تأملات إيمانية

في سورة يوسف عليه السلام

كتبه

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

دار الفتح الإسلامي
بمصطفى كامل

دار الخلفاء الراشدين
للنشر والتوزيع



رقم الإيداع : ٢٠٠٦/١١٦٣٦

دار الخلفاء الراشدين

ج.م.ع ـ الإسكندرية

ش منشية الزهراء ـ أبو سليمان ـ حي الرمل

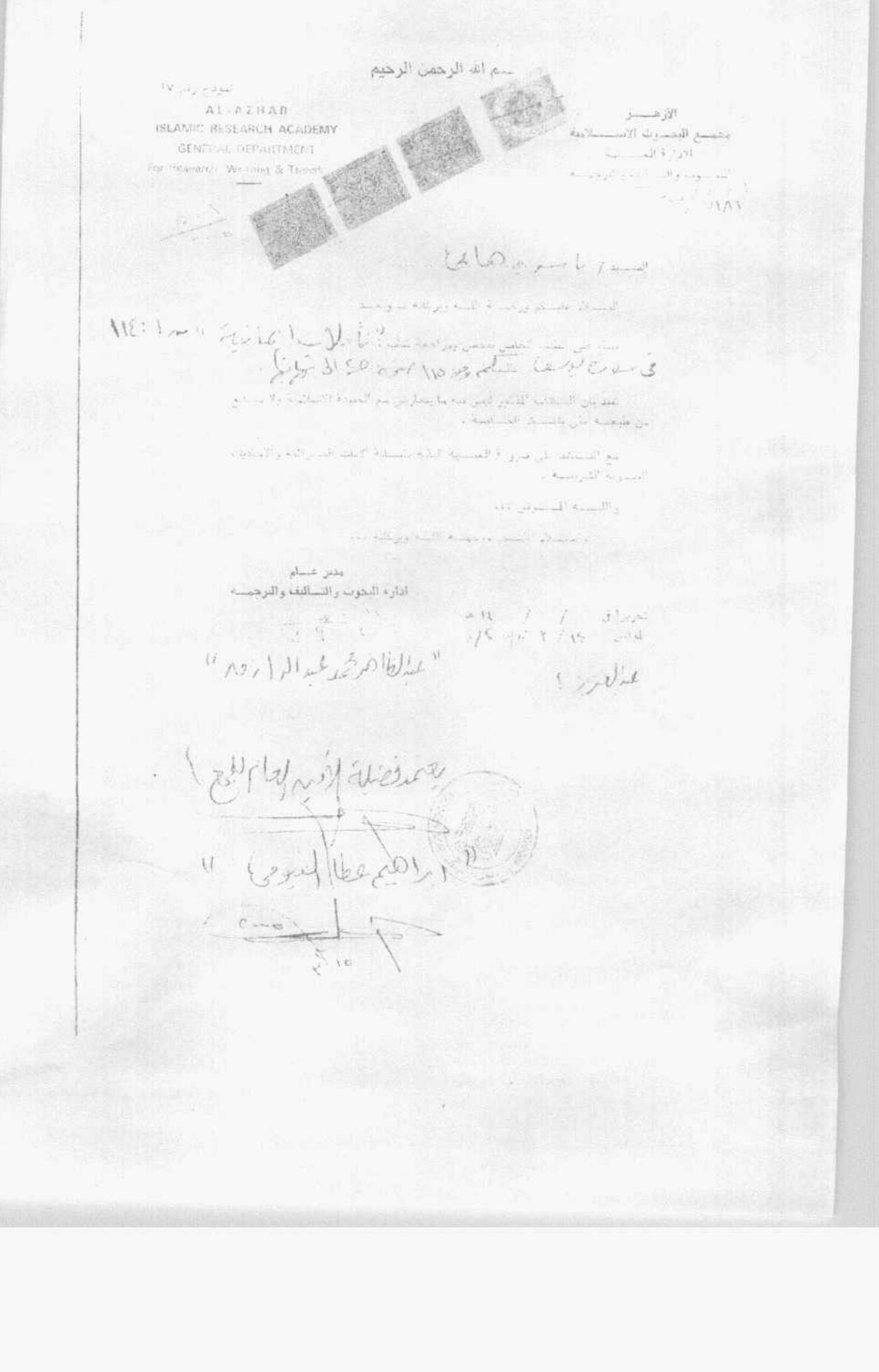
٠١٠٦٧١٤٧٦٨/٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي

الإسكندرية ـ مصطفي كامل

بجوار مسجد الفتح الإسلامي

٠١٠٧٣٨٢٧٨٢



بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية
الإدارة العامة

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writing & Transl...

السيد / باسم صالح

مدير عام
ادارة البحوث والتأليف والترجمة

عبد الظاهر محمد عبد الرازق

إبراهيم عطا الفيومي





مُقَدِّمَة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١] .

أما بعد ، فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

سورة يوسف عليه السلام هذه المعجزة الخالدة ، والدلالة القاطعة من دلائل نبوة محمد ﷺ ، طالما وقَفتِ القلوبُ والعقولُ مبهورةً أمام ما تضمنه سياقها العظيم من أنواع النور ، من الخبر الصادق ، والقصص الحَسن ، ومعاني الإيمان الصافي ، والعقيدة النقية ، وتعريف العباد بأسماء ربهم وصفاته وأفعاله ، وتعليق قلوبهم بها ، والتفصيل الدقيق لما يحتاج إليه المكلَّفون ، والإعراض عن ما لا فائدة لهم في ذكره ، وتحبيب النفوس في المُثُل العليا في شخوص أنبياء الله – صلوات الله عليهم وسلامه – وتَبيين الأحكام ، والحلال

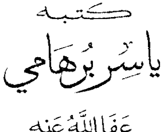
والحرام والأخلاق ، وكشف أغوار الشخصيات التي تجد أمثالها متكررة في كل زمانٍ ومكانٍ ، فتعرف غَوْر النفس الإنسانية ، وما يعتريها من أمراض وكيفية معالجتها ، والأسلوب العليّ الحَيِيّ النَّقيّ الذي يصف أحرج المواقف التي تتسلل من خلالها الشياطين في قصص البشر ؛ لإفساد القلوب وإلقاء بذر الحرام فيها ، يصفها القرآن بأروع الكلمات وأنصعها وأنظفها ، التي تُلقي بذور الإيمان والطاعة ، وتسمو بالقلب ليرتفع عن علائق الطين ليكون في النديّ الأعلى بدلًا من الحضيض الأسفل ، وغير ذلك من أنواع الهدى والنور ، يعجز اللسان عن وصف ما يقع في القلب منها ، فضلًا عما تتفاوت فيه القلوب في إدراكاتها من شخصٍ لآخرٍ ، بل ومن قراءةٍ لأخرى ، ومن مرةٍ لأخرى لنفس الشخص ، فضلًا عما أحاط الله به من العلوم التي تضمّنَتْها ، والمعاني التي احتَوتها ، فسبحان من أحاط بكل شيءٍ علمًا ، ولا يحيطون به علمًا ، والحمد لله الذي امتنَّ علينا ببعثة رسوله ﷺ وإنزال القرآن عليه ، ومَنْحِه هذه السورة الكريمة ، فَصَلِّ اللهم على من اجتبيتَه واصطفيتَه من خلقكَ لتُنْزِلَ على قلبه هذا الكتاب ، وتفيض عليه الحكمة ، وسَلِّمْ تسليمًا كثيرًا .

وبعد ، فهذه محاولة لتدبّر ما في هذه السورة العظيمة – وكل القرآن عظيم -- من المعاني ، بعد الوقوف على تفسيرها ، وبيان حقائق الإيمان ، وتزكية النفس من مواقف القصة ، بعيدًا عمّا عَلَقَ بكثير من التفاسير في هذه المواقف من الآثار الإسرائيلية التي تهتم دائمًا بالتفاصيل غير المفيدة ، فتأخذ القلب بعيدًا عن طريقة القرآن المبهرة المضيئة المنيرة ، أكتبها تذكارًا لنفسي عساها تستيقظ في فترات غفلتها على منة الله في أوقات التنبيه ، وتذكرةً لإخواني وأحبائي المسلمين عسى أن نُدرك شيئًا من عظمة القرآن وطريقته الكريمة ، فنزدادُ حبًا وشوقًا لما أنزله سبحانه ، وحرصًا على تلاوته وتدبره ، ونزدادُ حبًا لرسول الله ﷺ الذي خَصَّهُ الله بهذه الرحمة والفضل العظيم ، وهو سبحانه أعلم حيث يجعلُ رسالته ، وهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار ، فاختار قلبَ محمدٍ ﷺ ليملأه بالنور المبين ، ويفيض على من اجتباهم من عباده المؤمنين من آثار هذا النور ،

ولنزداد حُبًا لأنبياء الله – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – خصوصًا في هذه السورة ، إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف – صلى الله عليهم وسلم – وشوقًا للحياة معهم في الدنيا بذكر سيرتهم ، ونسأل الله أن يرزقنا مرافقتهم في الآخرة بِحُبِّنَا لهم ، وإن لم نعمل عَمَلَهم أو نتصف بصفاتهم .

وأكتُبها كذلك تسليةً لنفسي ولأهلي وأولادي في مِنحَة المِحنَة التي أصابتنا ، وتبشيرًا لنا وللمسلمين جميعًا بقرب النصرة والفرج والتمكين ، فإن هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ وهو بمكة والإسلام محاصرٌ حبيسٌ بها ، والمسلمون مضطهدون ينالهم أنواع الأذى ، والظلام دامسٌ شديد ، فنزلت السورة مبشرةً بقُرب الفرج والنصر والتمكين﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف : ١١٠] .

نسأل الله – سبحانه – أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه ، وصالحًا على وِفق شَرعِه المُنزَّل على خير خلقه محمد ﷺ ، وأن يجعله كذلك من أسباب الثبات على الدين في مواجهة الفتن ، فاللهم يا مقلب القلوب ، ثبِّت قلوبنا على دينك ، ويا مصرِّف القلوب ، صرِّف قلوبنا على طاعتك ، اللهم إنَّا عبيدك ، بنو عبيدك ، بنو إمائك ، نواصينا بيدك ، ماضٍ فينا حُكمك ، عدلٌ فينا قضاؤك ، نسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلتَه في كتابك ، أو علَّمتَه أحدًا من خلقك ، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء أحزاننا ، وذهاب همومنا ، اللهم علِّمنا منه ما جَهلنا ، وذكِّرنا منه ما نُسِّينا ، وارزقنا تلاوته آناء الليل وآناء النهار على الوجه الذي يرضيك عنا ، ونسألك اللهم رضاك والجنة ، ونعوذ بك من سخطك والنار ، آمين .



كتبه
ياسر برهامي
عفا الله عنه

تفسير البسملة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

اتفق العلماء على أن البسملة بعضُ آية من سورة النمل ، واختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة ، (أي : فهي لا تُعدُّ من آياتها) ؟ أم هي آية من كل سورة ، (أي : فهي إحدى آياتها) ؟ أو أنها بعض آية من كل سورة ، (أي : تكونُ الآيةُ الأولى في كل سورة هي البسملةَ وما يليها) ؟ أم أنها آية من الفاتحة دون غيرها ؟ أم أنها كُتِبَت للفصل لا أنها آية ؟

وأصح الأقوال أنها إحدى آيات الفاتحة ، وآية مستقلة في أول كل سورة ، للحديث الذي روته أم سلمة – رضي الله عنها – مرفوعًا : « **إِذَا قَرَأْتُمْ فَاتِحَةَ الكِتَابِ فَاقْرَؤوا ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فَإِنَّهَا إِحْدَى آيَاتِهَا** » [1]، فهو دليل على أنها إحدى آيات الفاتحة ، أمّا أنّها آية مستقلة في أول كل سورة فلحديث ابن عباس رضي الله عنهما : « **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنَزَّلَ عَلَيْهِ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾** » [2] ، ولحديث أَنَسٍ رضي الله عنه قال : **بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا ، فَقُلْنَا : مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ ، فَقَرَأَ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾** ... » الحديث [3]، ولحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **سُورَةٌ مِنْ القُرْآنِ ثَلاثُونَ آيَةً تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ ، ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾** » [4] ، وهي ثلاثون آية مستقلة دون عَدِّ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، فهذه الأحاديث تُرجِّح ما ذكرنا من أنها آية مستقلة في أول كل سورة ، وأنها إحدى آيات الفاتحة ، والله أعلم .

---

[1] رواه الدارقطني (٣٦) ، والبيهقي (٢٢١٩) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٩) .

[2] رواه أبو داود (٧٨٨) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٦٤) .

[3] رواه مسلم (٤٠٠) ، وأبو داود (٤٧٤٧) واللفظ له ، والنسائي (٩٠٤) ، وأحمد (١٢٠١٥) .

[4] رواه أبو داود (١١٩٢) ، والترمذي (٢٨١٦) ، وابن ماجة (٣٧٨٦) ، وأحمد (٧٩٦٢) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٩١) .

والباء في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ متعلقة بمبتدأ مؤخَّر محذوف ، تقديره (ابتدائي) ، أو بفعل محذوف تقديره (أبدأ) ، أي : ابتدائي بسم الله ، أو أبدأ باسمه ، أي : بذكر اسمه ﷻ استعانةً وتبرُّكًا .

واسم ﴿ ٱللَّهِ ﴾ معناه : الإله المعبود وحده لا شريك له ، على أصح قَوْلَيْ العلماء مشتقٌ من الإلاهة ، ودليل ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٣] ، مثل قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] ، فينبغي على العبد حين يذكر اسم ﴿ ٱللَّهِ ﴾ أن يستحضر القضية الأولى في حياته ، بل في الوجود كله ، وهي إفراد الله بالعبادة ، كما قال الله ﷻ لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [طه : ١٤] .

واسم ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ الاسم الدَّال على صفة الرحمة العامة ، من صفات ذات الرب سبحانه – أي : التي هي من لوازم ذاته ﷻ – ليست متعلقة بمشيئته أو ببعض خلقه ، بل كل من سواه ﷻ مرحوم بهذه الرحمة بمقتضى كونه مخلوقًا من مخلوقاته ، بصرف النظر عن كونه مطيعًا أو عاصيًا ، مؤمنًا أو كافرًا ، فهذه الرحمة العامة وسعت كل شيء ، وينبغي على العبد أن يستحضر عند تلاوته لاسمه ﷻ ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ آثار رحمة الله بخلقه جميعًا ، وكيف أن رحمةً واحدةً من مئةِ رحمةٍ أنزلها الله ﷻ ، بها تتراحَم الخلائق مِن أوَّلهم إلى آخرهم ، وبها تَرفع الدَّابَّة حافرها عن ولدها خَشيَةَ أن تُصِيبَه ، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته [1] ، وتأمَّل ما في قلوب البشر من التراحم بين الأمهات والآباء والأولاد ، وبين الأزواج والزوجات وغيرهم ، ثم ما في قلوب سائر الحيوانات لأولادها ، وانظر إلى آثار رحمة الله خلقَه بالمطر ، وما يُنزِّل لهم من الأرزاق والعطايا ، والمعافاة في الأبدان والأهل والأموال ، وكل هذا من هذه الرحمة الواحدة المخلوقة ، وادَّخَرَ ﷻ تسعةً وتسعين رحمةً ليوم القيامة ، فعند ذلك يرجو المؤمن رحمة ربه رجاءً

(١) رواه البخاري (٦٠٠٠) ، ومسلم (٢٧٥٢) .

عظيمًا ، ويناله من رحمة الله فوق ما يخطر بباله ، وتحضرني الآن رؤيا رأيتُها وهي أن ابني محمدًا قد أصابه جُرح ، فجعل يبكي فجعلت أبكي لبكائه رحمةً له ، فقلت في نفسي في المنام : إذا كنت أرحم ابني هذه الرحمة ، فكيف برحمة الله لعباده المؤمنين ، وهو أرحَمُ بعبادِهِ مِن الأم بولدها ، كما في حديث عمر بن الخطاب ﷺأنه قال : (قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺبِسَبْيٍ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ تَبْتَغِي ، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ: « أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ » قُلْنَا : لَا وَالله وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا » [1]) ، لابد أنها تكون رحمةً عظيمةً جدًا فوق ما يخطر ببالنا ، فالحمد لله .

واسمه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الاسم الدال على صفة الفعل فهو يختصُّ بمن شاء الله رحمته ، كما قال الله ﷻ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[آل عمران : ٧٤] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب : ٤٣] ، وقال ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وأعظم رحمة خصَّ الله بها عباده المؤمنين هدايتهم للإسلام ، وشَرْحُ صدورهم له ، وتوفيقهم للتقرُّب إليه بطاعته ، وما يُفيض عليهم من نعيم قُرْبه وحُبِّه ، الذي يُعَرِّفُهُم به جنس النعيم الذي أعده لهم في الدار الآخرة في جنته ، ثم ما يخصُّ به سبحانه مَن شاء بما شاء من أنواع الرحمة التي يتفاوت فيها الخلق أعظم تفاوت ، و« الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » [2]، فاللهم ارحمنا رحمةً تُغنينا بها عن رحمة من سواك .



(١) رواه مسلم (٢٧٥٤) .

(٢) رواه أبو داود (٤٩٤١) ، والترمذي (١٩٢٤) ، وأحمد (٦٤٩٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٢٢) .

الحروف المقَطّعة

قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ ﴾

قال تعالى : ﴿ الٓر ﴾ : أصح الأقوال في الحروف المقطعة – إن شاء الله – هو ما ثبت عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما – وهُما مَنْ هُما في تفسير كلام الله ﷻ – وعن أُناسٍ آخرين من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : (**أما ﴿ الٓمٓ ﴾ فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى**) ، وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : (**﴿ الٓمٓ ﴾ أنا الله أعلم ، ﴿ الٓر ﴾ أنا الله أرى**) ، وما نُقِل عن الخلفاء الأربعة من التوقُّف عن تفسيرها ورجّحه طائفة من المفسرين ، فهو منقول بلا إسناد عن الخلفاء الأربعة ، ولو صحَّ لكان توقّفًا منهم عن أمرٍ لم يعلموا وجهه ، ولا يُمنَع غيرهم من الكلام فيه ، كما تكلم ابن مسعود وابن عباس – رضي الله عنهما – ومما يرجِّح صحة تفسيرهما عموم قوله تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص : ٢٩] ، وهذه آية من آياته فكيف تُتَدَبَّر إن كان التوقُّف عن تفسيرها لازمًا ؟

وأما القول : إنها تدل على عُمُرِ الأمَّة ، فهو قولٌ باطل سندًا ومتنًا وواقعًا ، فالغيب لا يعلمه إلا الله ، وهذه الطريقة مأخوذة عن أهل الكتاب من اليهود ، لا عن النبي ﷺ وصحابته – رضي الله عنهم – وهي مخالفةٌ لما أتى به ﷺ من نفي علم الغيب عن غير الله ، خاصةً أنَّ عُمُرَ الأمَّة معناه انتهاء الدنيا وقيام الساعة ؛ لأن أمَّة الإسلام آخر الأمم ، فيجب رد هذا القول وإبطاله .

وأما أنها أسماء للسور وأسماء للقرآن ، فلا تعارض بين هذا القول وما رَجَّحْنَاه ، فإن السورة تُسمَّى باسم أول آياتها ، وهذا في الحقيقة ليس تفسيرًا لها ، وأما ما رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية أنها سيقت لبيان إعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، مع أنه مركَّب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وهو أيضًا ترجيح الفرَّاء والمُبَرِّد وقُطرُب والزَّمخشري ، فإنه ليس في مقام تفسيرها ، بل في مقام بيان

الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ، بِغَضِّ النَّظر عن معانيها كما ذكره ابن كثير - رحمه الله - ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد ، واسْتُعْمِلَ هنا ليُشْعِرَ بارتفاع قَدْر آيات الكتاب فوق كل كلامٍ ارتفاعًا هائلًا ، وعلُوًّا ساميًا ، لا يُنال ولا يُدرك ، ولا حتى يَقْرُب منه كلامٌ آخر .

وقوله تعالى : ﴿ ءَايَٰت ﴾ جمع (آية) ، وهي : العلامة ، وآيات القرآن علاماتٌ دالةٌ على أنه حق ، وأنه من عند الله - سبحانه - ، وعلى صدق محمد ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ ، والمبين بمعنى : أنه يُبَيِّنُ لمن سمعه وقرأه أنه الحق ، كما أنه يُوضّح الحق ويُبَيِّنُهُ ويُظهره ويُفَصِّلُهُ ويُفسِّره .



بين يدي القصة

قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾

إنزال القرآن من عند الله دليل على عُلُوِّ الله ﷻ وفَوْقِيَّتِهِ ، كما استفاضت بذلك أدلة الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمَّة ، وعربية القرآن من أعظم معجزات الرسول ﷺ ؛ إذ بَلَغ الغاية في الفصاحة والبيان ، مع تَضَمُّنِه لأخبار الأمم المتقدمة على التفصيل الدقيق لما يُحتاج إليه ، وهو مُصدِّقٌ لما بين يَدَيه من الكتاب ، أي : من الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل ، مُصدِّقٌ لما فيها من أهم قضية وهي قضية التوحيد والعبودية لله ﷻ ، وهو كذلك مهيمنٌ عليه ، أي : شهيدٌ عليها ، يجزم كل عاقل أنه يستحيل أن يكون ترجمةً مأخوذةً عن كتب الأولين ، لأن ترجمة لغة إلى أخرى لابد أن يقع فيها من ركاكة الألفاظ والمباني ما لا مَفَرَّ منه للحِفاظ على المعاني ، وهذه تراجم التوراة والإنجيل بالعربية شاهدة على ذلك أوضح شهادة ، فلا تجد فيها من الفصاحة والإتقان والبلاغة عُشرَ مِعْشار ما في القرآن ، بل المقارنة أصلاً لا يمكن عقدها ، فضلاً عن المعاني الإيمانية من الإيمان بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وقضائه وقَدَرِه ، ومن التعريف بالرسل الكرام وصفاتهم الجميلة التي تُحبِّب الخلق فيهم ، ودعوتهم النقيَّة البيِّنة في وسائلها ومقاصدها وأدلَّتها ، ودحض الشبهات المخالفة لها ، ومن تحقيق الإيمان باليوم الآخر وربط قلوب العباد بموقفهم غداً بين يدي ربهم ، ليُعِدُّوا لهذا اليوم عُدَّتَه ، وغير ذلك مما لا تجده في كتاب آخر بالعربية أو غيرها ، كل ذلك مع المحافظة على سياق القَصَص الموافق تفصيله ما عند أهل الكتاب ، بل وأدق مما عندهم ، مما يجعل كل عاقل يجزم جزماً يقينياً قاطعاً أن القرآن كلام الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، ولذا ختم الله الآية بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، فمن كان عنده عقل أيقَنَ بذلك ، ومن شكَّ أو كذَّب فلانعدام عقله ، أو عدم قبوله ما دَلَّ عليه العقل لِعناده وكِبره ، وكما بدأت السورة بالتنبيه على شرف القرآن ، وعلى أنه من آيات صدق

رسول الله ﷺ خُتِمَتْ بذلك ، بقوله تعالى :﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ إلى قوله تعالى :﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

والقرآن دعوة للعقل ليس بالمعنى الاصطلاحي عند المتكلمين ضِعاف العقول ، وليس كذلك بالاصطلاح المعاصر الذي يجعله الناس مرادفاً للهوى والتحكم ، فتجد الواحد منهم على جهله يزعم أنه يريد أن يُحَكِّمَ عقله على أحكام الله ورسوله ﷺ ، ويريد أن يعترض عليها ويُصَوِّب ويُخَطِّئ بزعم أنه يستعمل عقله ، وهو في الحقيقة إنما يلهو ويلعب ، كصبيٍ صغيرٍ يُفكر بعقله المحدود في تركيب جهاز إلكتروني غايةٍ في التعقيد ، بل – والله – النسبة أعظم من ذلك ، ولكن العقل الذي يدعو القرآن إليه هو إدراك حقائق الوجود ، ومعرفة الغاية التي من أجلها وُجِدَ الخلق ، ونهاية المطاف بعد هذه الحياة ، ومعرفة صفات ربهم ووحدانيته وصدق رُسُلِهِ ، وتوابع ذلك من معاني الإيمان ، فليس بعاقل من أفنى عُمُرَه في لذّات الطعام والشراب ، والجنس والرياسة ، والشهرة والمال ، وهو يرى الموت يحصد أمامه من هو أشد منه قوةً وأكثر جمعاً ، وليس بعاقلٍ من رأى عاقبة من سَبَقَه من الكَفَرَةِ والفَسَقَة والعُصاة ، ثم هو يسير على سُنَّتهم ، ويُكرِّر غيَّهم وضلالهم ، وليس بعاقلٍ من نَسِيَ نفسه وجعل عُمُرَه لغيره ، فأفسد دينه وآخرته لإصلاح دنيا غيره ، وما أصلحها ، بل أفسدها وأشقى نفسه وغيره ، إذ لا صلاح إلا في اتباع شرع الله ﷻ ، فالعقل الحقيقي هو في أن يُعِدَّ الإنسان لمستقبله بعد رحيله عن ظهر هذه الأرض ، بعد رحلته القصيرة التي يحياها فوقها ، ولذا لا يصح وصف الكفار بأنهم يعقلون أو يعلمون – فضلاً عن أن يكونوا عقلاء العالم أو علماءه – لإدراكهم بعض أنواع العلوم الدنيوية ، إذ لم تَقُدْهم هذه العلوم للاهتداء إلى كُبرى الحقائق الكونية ، وأسباب السعادة الدنيوية والأخروية .



أحسن القَصص

قال تعالى : ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

المقارنة بين قَصَصِ القرآن وغيره من القَصَصِ توضح لنا بجلاء هذه الحقيقة : أنَّ القرآن أحسن القَصَصِ ، وقَصَصُ غير القرآن إما أن يكون من قَصَصِ أهل الكتاب ، أو من قَصَصِ البشر المخترع ، أو المنقول عن من سبقهم كالأساطير ، وأنت تجد في قَصَصِ أهل الكتاب من الاهتمام بالتفاصيل غير المفيدة كأسماء الأشخاص والبلدان ، والأولاد والزوجات ، وأنواع الأشجار وألوان الكلاب والحيوانات ، ونحو ذلك مما قد ملأ كثيرٌ من المفسرين كُتُبَهم به ، وفي قصتنا هذه على سبيل المثال – قصة يوسف عليه السلام – نجد الاهتمام الكبير بأسماء إخوة يوسف عليه السلام، وأسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ساجدةً له ، ونحو هذا مما لا يَنفع العلمُ به ولا يَضر الجهلُ به ، وتجد في القرآن الإعراض عن مثل هذا كله ، نجد فيه البيان لما فيه صلاح القلب والسلوك والخُلُق والاعتقاد والعمل ، وتجد أيضاً في قَصَصِ أهل الكتاب المبالغات ، فضلاً عمّا دخل في هذا القَصَصِ من الأكاذيب والباطل مما تشهد العقول بتناقضه واستحالته ، فالحمد لله على نعمته بقَصَصِ القرآن .

وأمَّا قَصَصُ البشر فمبناه على الكذب لا الصدق ، وغايته الشهوات الأرضية والأهواء النفسانية ، فتجد قَصَصَ الناس اليوم – الذي يروج بينهم – حول قصص الحب الجنسي الرخيص ووصف المواقف التي سَترُها هو الفطرة السوية ، لكن هذه الفطرة قد طُمِسَتْ وزالت عند القوم ، أو حول قصص الجريمة والقتل وسفك الدماء ، والصراعات الحقيرة حول المال والمخدرات والرياسة ، وبالطبع فالمرأة سلعةٌ متداولة مشتركة في كل قَصَصِهم ، تَعمَى القلوب بقراءة قَصَصِهم أو سماعه أو مشاهدته ،

وتَفسد العقائد والأخلاق وتَنحط المجتمعات ، وهذه أقوالهم وإحصاءاتهم حول زيادة نسب الجريمة بمشاهدة أفلام الجنس والعنف ، وأعتى أنواع الانحراف بين أطفالهم وشبابهم ورجالهم ونسائهم بسبب السينما والتليفزيون ونحوها من وسائل الإفساد التي مبناها على القَصَصِ الفاجر الكاذب المدمِّر ، الذي لا يحتمل عاقل أن يقول بجوازه فضلاً عن متشرعٍ مُتَدَيِّن ، فنصيحةً لكل مسلم ومسلمة بالإعراض عن هذا القصص القاتل للقلوب مشاهدةً في الأفلام ، أو سماعاً أو قراءةً باسم الأدب ، وما هو إلا إضاعة للأدب ، والواجب علينا أن ندرك قيمة النعمة العظيمة بقصص القرآن الذي فيه صلاح الدنيا والآخرة ، وهو أحسن القصص الذي يُذهب المَلَل ، كما ورد في سبب نزول سورة يوسف عليه السلام من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (**مَلَّ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ مَلَّةً ، فَقَالُوا : (يَا رَسُولَ الله ، حَدِّثْنَا) ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾** [الزمر : ٢٣] ، **ثُمَّ مَلُّوا مَلَّةً أُخْرَى ، فَقَالُوا : (يَا رَسُولَ الله ، حَدِّثْنَا فَوْقَ الحَدِيثِ وَدُونَ القُرْآنِ) ، يَعْنُونَ القَصَصَ ، فَأَنْزَلَ الله : ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾** [يوسف : ١-٣])[١] .

وهذه السورة تميزت عن باقي قصص القرآن بأنها سياق تام لقصة واحدة ، لم تتكرر بالتفصيل في موضع آخر من القرآن ، كقصة موسى عليه السلام مثلاً ، تجدها قد تكررت وبتفاصيل مختلفة في سُوَر مختلفة ، ولم تُسَقْ سياقاً واحداً تاماً في موضعٍ واحدٍ ، بخلاف سورة يوسف عليه السلام ففيها من الإعجاز القصصي ما يُبْهر العقول والقلوب ، فصلَّى الله على من أنزلها على قلبه وسلم تسليماً كثيراً .

وأما قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ** ﴾ أي : لَمِنَ الغافلين عن تفاصيل ما أَوْحَى الله إليه من الكتاب والإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ**

---

(١) صحيح : رواه ابن جرير والحاكم (٣٣١٩) ، والطبري في تفسيره (١٢ / ١٥٠) ، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٦٨) وسكت عنه ، وذكره أبو نعيم في الحلية (٤ / ٢٤٨) ، وصححه الألباني في صحيح الموارد (١٤٦٢) .

﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، ولقد كان النبي ﷺ قبل البَعثة مجتنباً لعبادة الأوثان ، مبتعداً عن مساوئ الأخلاق ، متعبِّداً لله ﷻ على التوحيد ، لكنه لم يكن يعلم تفاصيل الإيمان والعلم الذي امتنَّ الله عليه بإنزال هذا القرآن العظيم على قلبه ، وكذلك كل عَبدٍ لا يتدبَّر القرآن ولا يتعلمه يكون من الغافلين ، فالقرآن ذِكرٌ لمن يتذكَّر ، مُنبِّهٌ من سِنَة الغفلة ، يُحيِي الله به قلوب من اصطفاهم من عباده ، فتستيقظ القلوب لنور التَّنْبِيه ، وتُعِدُّ العُدَّة للسَّير على الصراط المستقيم الموصِل إلى رحمة رب العالمين .



رؤيا يوسف عليه السلام

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ ﴾

﴿ إِذْ ﴾ بمعنى : حِين ، مُتعلِّقة بفِعلٍ محذوفٍ تقديره : (اذكُر) ، والمعنى : واذكر يا محمد حين قال يوسف لأبيه ، ويوسف عليه السلام أكرم الناس كما ثبت في الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** » [1]، وثبت أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سُئِلَ رسولُ الله ﷺ : (مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ ؟) ، قَالَ : « **أَتْقَاهُمْ** » ، قَالُوا : (لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ) ، قَالَ : « **فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ** » ، قَالُوا : (لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ) ، قَالَ : « **فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي ؟ خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا** » [2]، فيوسف أكرم الناس نَسباً وشرفاً ، ومع ذلك جرى له ما جرى من البيع رقيقاً والسَجن وفِراق الوالدين منذ الصِغَر إلى نحو الأربعين عاماً وغير ذلك ، وهذا كلُّه مما يُبيِّن لنا هَوان الدنيا على الله – سبحانه – وحقارتها ، فلو كانت ذات قيمة لما حَرَمَ منها أكرم الخلق عليه ، ولما عرَّضهم فيها لأنواع البلايا ، وصدق قول النبي ﷺ : « **لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ** » [3]، فإذا حَرَمَ الكريمُ حبيبَه جناحَ بعوضة أو أهوَن ، فما أهانه ولا مَنَعه ، فله الحمد .

ونلحَظ في هذا الحوار الجميل بين الابن وأبيه ، المليء بالأدب والتقدير

---

(١) رواه البخاري (٣٣٩٠) ، والترمذي (٣١١٦) ، وأحمد (٥٦٧٩) .
(٢) رواه البخاري (٣٣٥٣) ، ومسلم (٢٣٧٨) ، وأحمد (٧٤٤٤) .
(٣) صحيح : رواه الترمذي (٢٣٢٠) ، وابن ماجة (٤١١٠) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٢) .

والاسترشاد من الابن البار ، نلحَظ الحُب والشَفَقة والنُصح والتوجيه والتربية من الأب الحنون ، ونلحظ وجود هذه المجالسة الخاصة التي لا يحضرها غيرهما ، والتي تكاد تكون قد غابت بالكلية عن أكثر الأُسَرِ اليوم وعن أكثر المربِّين والموجِّهين ، شغلتهم عنها ملاهي الحياة ، واكتفوا في توجيه أبنائهم ومن يربونهم بمجرد الأوامر العامَّة ، التي كثيراً ما تكون أشبه بالأوامر العسكرية الزاجرة ، التي لا تُنْبِت عاطفة ولا تؤثِّر في قلب ، هذا إن وُجِدت أصلاً في زحمة الحياة المعاصرة ، التي يتولى التوجيه والتربية فيها وسائل الإعلام – أقصد وسائل الإفساد – من تليفزيون وشريط فيديو وبث مباشر وشبكة (الإنترنت) ومجلةٍ وشريط أغانٍ ومناهج تعليم منحرفة وأصدقاء سوء ، فضلاً عن الغِنَى المُطْغِي أو الفقر المُنسي الذي يجعل الأب – وغالباً الأم – لا يجلسان مع أولادهما أصلاً ، بل يخرج الأب قبل استيقاظهم ويعود بعد نومهم ، ولو بَقِيَ وقتٌ يستثمرُه فهو يقضيه على المقهى يلعب (الطاولة) ويتجاذب أطراف الحديث مع قُرَنائه في مجالس السوء هذه ، أو لو جَلَسَ في البيت فالكل صامت أمام العِجْل الفِضِّي (التليفزيون) يتلقَّى منه هو وأولادُه التوجيه والتعليم ، فأين هذه الجلسة التي يَستَنصِح الابن فيها أباه منفرداً به ، مختصاً به ؟! هذه الجلسة لها أهمية قُصوَى في التربية ، لا بد أن يعطيها الأب والشيخ والمعلِّم لكل ابن من أبنائه وتلميذ من تلاميذه على حِدَة ، حتى تتواصل القلوب وتتقارب المشاعر ، ونخرج من نِطاق المادِّية ودائرة الرَّفاهية الكاذبة ، التي تُشقي الإنسان ولا تُسعده ، فإن السعادة هي سعادة القلب بالأحاسيس الجميلة النبيلة ، والمعاني الإيمانية الحية التي أصلُها حب الله وعبادته والشوق إليه ، ثم حب أنبيائه ورسله الكرام – صلوات الله وسلامه عليهم – ومتابعتهم ، فلا بد لنا أن نضع في برامج توجيهنا لأبنائنا مثل هذه الجلسة ، التي تجدها في هذا الموضع ، كما تجدها في قصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل عليه السلام حين يقول له : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، وتجدها في وصية لقمان لابنه وهو يَعِظُه ، وتجدها في وصية النبي ﷺ

لابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول له : « **يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ** » [1] ، هذه الكلمات التي أثرت أعظم الأثر في نفس الابن والمُرَبَّى والمُعَلَّم ، وبقيت في قلبه عبر السنين كما سنرى عن قريبٍ في قصتنا الكريمة .

وقول يوسف عليه السلام : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ تجد فيه رُقِيَّ الحِوار والأدب الرفيع مع الأب ، كما تَلمَس فيه الشعور بالخصوصية ، فهو أبوه هو ، وإضافته التاء المكسورة للفظ الأب تُشْعِر بالقُرب الشديد وكَسرةِ جَناح الذُّل ، وتستخرج من الأب أنهار الحنان والعطف ، وتُهَيِّج عاطفة الأبوَّة الرحيمة ، تلك العاطفة العجيبة التي هي من آيات الله في خلقه ، ومن أدلة اتصاف الرب - سبحانه - بصفة الرحمة ، إذ خلق في قلوب عباده هذه العاطفة ليرحمهم « **ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السماءِ** » [2] ، وقال النبي ﷺ : « **للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الأُمِّ بِوَلَدِهَا** » [3] .

ولا تجد جواباً لهذه الكلمة ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ أحسن من ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ - تصغير : ابني - وذلك للتعبير عن كمال الشَّفقة والنُّصح والمحبة والرحمة ، وكلمة ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ كلمةٌ جليلةٌ اختفت - للأسف - من قواميس لغتنا ، وكان النبي ﷺ يستعملها ، فقال لأنس : « **يَا بُنَيّ** » [4] ، كما بَوَّبَ النَّووي في كتاب الأدب في صحيح مسلم : (**بَابُ جَوَازِ قَوْلِهِ لِغَيْرِ ابْنِهِ يَا بُنَيَّ وَاسْتِحْبَابِهِ لِلْمُلَاطَفَةِ**) .

وكما ذكرنا أنه استعملها إبراهيم مع وَلَدِه إسماعيل - عليهما السلام - ،

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٥١٦) ، وأحمد (٢٥٣٧ ، ٢٦٢٧ ، ٢٦٦٦) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧) .
(٢) سبق تخريجه ص (١٠) .
(٣) سبق تخريجه ص (١٠) .
(٤) رواه مسلم (٢١٥١) ، وأبو داود (٤٩٦٤) ، والترمذي (٢٦٧٨) .

واستعملها لُقمان مع ابنه وهو يَعِظُه ، ولا يزال يستعملها الآباء الرحماء مع أبنائهم ، والمربون الناصحون مع تلامذتهم ، للتعبير عن الود والنصح والرحمة ، قارن هذا مع ما تسمعه من كلمات التعنيف التي تصدر من الآباء والأمهات في مجتمعاتنا ، فضلاً عن السِّباب والشَّتم مما يُدَمِّر الشخصية ويُعَوِّدُ القسوة وينزع الرحمة ، فينشأ الأبناء على نَزَعات الغِلْظَة والقسوة ، فتحصل الأخلاق الفاسدة والانحرافات النفسية ، وما يتبعها من أمراض المجتمعات وتشوهات الشخصية ، حتى يستعجب الناظر في كثير من الشخصيات ، كيف وُجِدَتْ فيها هذه القسوة التي لا توجد عند الوحوش ، وحقيقةُ الأمر أنها نبعت من سوء التربية ، وقلَّة الحنان أو انعدامه في الصِّغر ، فنسأل الله تعالى أن يرحم آباءنا وأمهاتنا كما ربونا صغاراً ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ .

وأما رؤيا يوسف عليه السلام التي رأى فيها أحدَ عشر كوكباً - وتأويلها الواضح إخوته - والشمسَ **والقمرَ** - وتأويلهما الواضح أبوه وأمه - له ساجدين ، فهي دليل على إثبات الرؤيا **الصالحة** التي يُستأنس منها أمر الغيب ، ومَفاتِح الغيب لا يعلمها إلا الله ، لا يعلمها **ملكٌ** مقربٌ ، ولا نبيٌّ مُرسَل ، ولكن الله يُطْلِعُ مَنْ شاء مِنْ خلقه على أشياء من الغيب ، **لا** تخرج عن عموم قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وقوله تعالى : ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن : ٢٦] ، فالرُسُل إذا أخبرت بأشياء من الغيب - كما أَخبر الرسولُ ﷺ بأشراط الساعة وأمور الآخرة - فهم لا يُخبِرون بكل التفاصيل التي تُزيل هذهٰ الأمور عن وصفها بأنها غيب ، بل لا يزال هناك من التفاصيل ما استأثر الله به ، فتظل هذه الأمور غيباً ، مثل وقت حدوث هذه الأمور ، أو كيفية كثيرٍ منها كمثل ما في الجنة وما في النار ، فإننا نعلم المعاني ولا نعلم الكيفية ولا الحقيقة الكاملة .

وإذا عَلِمَ بعض الخَلق التفاصيل الكاملة لشيءٍ من مفاتيح الغيب ، كما يُعْلِمُ الله المَلَك الذي يكتب أجل الجنين ورزقه وعمله وشقي أم سعيد [1] ، وكما أخبر الرسول

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩٤) ، ومسلم (٢٦٤٣) ، وأبو داود (٤٧٠٨) .

ﷺ في غزوة بدر عن مصارع المشركين فقال : « **هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَداً إِنْ شَاءَ اللهُ** »[1] ، فهو معلق على مشيئة الله في إمضاء هذا الأمر وإثباته أو محوه وعدم إمضائه ، فمعرفة تفاصيل هذا الغيب لم يخرجه عن كونه غيباً لأنه يمكن أن يُمْحَى ويمكن أن يُثْبَت .

ومن هذا الباب أمر الرؤيا ، فهي مما يُحتمل أولاً أن تكون رؤيا صادقة من الله – تَعالىَ – ، وهي التي قال عنها النبيﷺ : « **رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ** »[2] ، ويُحتمل أن تكون حُلماً من الشيطان ، ويمكن أن تكون حديث نفسٍ مما يَشغَل الإنسان ، وهذا غالباً ما لا يخفى على البصير بالتأويل ، ولكنه في النهاية يبقى اجتهاداً محتملاً للخطأ والصواب ، ثم تأويل الرؤيا الصادقة قد يصيب فيه المرء وقد يخطئ ، كما ثبت في الصحيح أن النبيﷺ قال لأبي بكر في تأويل رؤيا : « **أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا** »[3] ، مع أن الصِّدق الذي نال به الصِّدِّيق أرفع المراتِب بعد الأنبياء من أعظم أسباب الإصابة في تأويل الرؤيا ، ومع ذلك فقد أخطأ الصِّدِّيق بعضاً ، فَغَيْرُه أولى باحتمال الخطأ في التأويل ، ولهذا كانت الرؤيا استئناساً لحُكم الغيب ، وليس استدلالاً قاطعاً ، ولهذا لم تَصلُح لمعارضة الأدلة الثابتة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح ، ولكنها ربما صَلُحَتْ مُرجِّحاً لِيَسْتَأْنِس به البَصير الصادق عند تعارض الأدلة وعدم وجود مُرَجِّح بينهما عنده ، خصوصاً في آخر الزمان ، لقول النبيﷺ « **إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ** »[4] ، وهذا هو الفرق بين أهل السنة وبين بعض أهل البدع في أمر الرُّؤى والإلهام والكَشْف ، فهو عند هؤلاء قَطْعٌ ، وعند أهل السنة استِئناسُ حقٍ لغير الأنبياء ، أما الأنبياء فرؤياهم وحيٌ قاطع ، فإنهم معصومون ، قال الله تعالى عن إبراهيم ﴿ **يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا**

(١) رواه مسلم (١٧٧٩) ، والنسائي (٢٠٧٤) ، وأبو داود (٢٦٨١) .
(٢) رواه البخاري (٦٩٨٧) ، ومسلم (٢٢٦٣) .
(٣) رواه البخاري (٧٠٤٦) ، ومسلم (٢٢٦٩) .
(٤) رواه البخاري (٧٠١٧) ، ومسلم (٢٢٦٣) ، والترمذي (٢١٩٦ ، ٢٢١٥) ، وابن ماجة (٣٨٨٤) ، وأحمد (٦٨٧١ ، ٦٨٨٦) ، ومالك (١٥٠٤) .

تَرَىٰ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، وقال عن إسماعيل عليه السلام: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فجعل ما رآه في الرؤيا أمراً ، ويوسف عليه السلام حين رأى رؤياه كان غلاماً ، فلم يكن قد نُبِّئ بعد ، لأن الأنبياء رجال - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ولكن كانت رؤياه صادقة كما عَلِمها أبوه يعقوب عليه السلام، وعَلِم منها عُلوَّ يوسف عليه السلام على إخوته ، فكانت نصيحته له : ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ ﴾ ، ومن هنا يُستدَل على أنه لا ينبغي أن تُقَص الرؤيا إلا على ناصحٍ محبٍ ، لأن الرؤيا كما قال النبي ﷺ: « الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ » [1]، فربما كان غير الناصح سبباً لوقوع المكروه بتأويلها على وجهٍ غير مرغوبٍ فيه .

وكذلك يُستدل بهذه الآية على كِتمان بعض ما فَضَّلَ الله به بعض عباده من أنواع الإكرام والاختصاص عمن يُتَوَقَّع منه الحسد والحقد ، كما في الحديث عن النبي ﷺ: « اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بالكِتْمَانِ ، فإن كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ » [2]، وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ [الضحى : ١١] فهو إما بمعنى الحديث بما عَلَّمَه الله من النُّبوة والعِلم فيُعَلِّمُه للناس ، وإما بمعنى الثَّناء على الله ﷻ بها ، وكلا المعنَيين صحيح ، وعلى المعنى الثاني ، فهو يحدِّث بها أهل الصلاح والخير الذين لا يحسدون مؤمناً على ما أنعم الله به عليه .

ونلحظ هنا عِلم يعقوب عليه السلام بنفسية أبنائه الآخرين ، وما يوقِعُهم الشيطان فيه من الحسد ليوسف عليه السلام لما اختصَّه الله به من أنواع الفضل الذي كانت مَباديه ظاهرةً منذ الصِّغر ، ولذا كان حُب يعقوب عليه السلام له أكثر من إخوته ، للصفات الجميلة التي اختصَّه الله بها ، وهكذا ينبغي للأب أن يكون خبيراً بصفات أبنائه ، وكذا المُرَبِّي والمعلِّم مع تلامذته ، ليستطيع - قَدْرَ الإمكان - معالجة ما يقع بينهم ، وليكن منتبها لهذا الداء

---

(١) صحيح : رواه أبو داود (٥٠٢٠) ، والترمذي (٢٢٠٤ ، ٢٢٠٥) ، وابن ماجة (٣٩٠٤) ، وأحمد (١٥٥٩٣ ، ١٥٦٠٢ ، ١٥٦٠٦ ، ١٥٦١٦) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٥) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الصغير (١١٨٦) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٣) بلفظ « إنجاح » بدلاً من « قضاء » .

العضال – داء الحسد – الذي هو من أدواء إبليس ، والذي كان من أسباب هلاكه ، وكان داء ابن آدم الأول القاتل لأخيه ، نعوذ بالله من هذا الداء ، هذا الداء هو الذي يدفع إلى أنواع الكيد والمكر بالمحسود ، لمحاولة إزالة النعمة التي فضَّل الله بها مَنْ شاء مِنْ عباده على بعض ، وهذا كله منبعه الشيطان ، رأس الحاسدين وأول الحاقدين المتكبِّرين ، ولذا حرص يعقوب عليه السلام أن يُبَيِّنَ ليوسف ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، وهذا من أهم وسائل التربية والتوجيه في مثل هذا المقام ، وهو يريد منع العداوة بين الإخوة ، وتوجيهها للعدو الحقيقي البَيِّن (الشيطان الرجيم) ، فالكيد السَّيِّء طارئٌ على الإنسان ، فلا ينبغي أن تكون العداوة متأصلةً معه إلا من صار شيطاناً – والعياذ بالله – وهذا هو الواجب على الأب المربِّي ، أن يُعَمِّق في نفوس أبنائه وتلامذته عداوة الشيطان ، والانتباه لعداوته ، فإن أكثر الناس لا يلتفتون لعداوة الشيطان ، ولا يتَّخِذونَه عدواً ، بل يتَّخِذونَه ولياً ، فلا ينتبهون لوَسوَسَته وخواطر السوء التي يُلْقِيها ، وشبهات الضلال التي يُغَذّيها ، فتُثمر في قلوبهم ثمار الغي والضلال .

وتأمَّل كيف أثَّرَتْ هذه الكلمة من يعقوب عليه السلام في نفس يوسف عليه السلام ؟ فقال بعد نحو أربعين سنة : ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ ، فهو قَدْ وَعَي الدرس من أبيه جيداً ، وعَلِم أن ما وقع من إخوته كان نَزْغاً من الشيطان ، وليس أصله من قلوب إخوته ، فعلى الرغم مما كان فيها من الحسد وما وقع بينهم من الكيد ، إلا أن الخير في قلوبهم كان أغلب ، وهو الذي انتصر في النهاية بفضل الله ، وزال الحسد وزالت العداوة بشهود تفضيل الله وإيثاره – الذي هو دواء الحسد – حين قالوا : ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ .

وتأمَّل الأدب الرفيع في ترك المعاتبة واللوم كما وعدهم ، فقال : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ، ونسب الأمر للشيطان ، ولما ذكر ما وقع بينه وبينهم ، ذكر نفسه أولاً فقال : ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ فذكر نفسه أولاً ، لئلا يجد إخوته

من الحرج أن الشيطان نزغ في قلوبهم هم ، وهي الحقيقة ، ولكنها العبارة الرفيعة الأدب ، التي تؤدي المعنى ولا تجرح الشعور في مثل هذا المقام ، والمقصود أن المؤمن عليه دائماً أن ينتبه إلى عداوة الشيطان ، مما يقتضي حراسة الخواطر من كيده ، والاستعاذة بالله منه ومن همزه ونفثه ونفخه .



التربية الإيمانية

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

هذه الجلسة التربوية الإيمانية الرائعة التي أثرت في يوسف عليه السلام عمره كله ، وظل أثرها عَبْر السِّنين رغم الفِراق الطويل ، يقصُّها الله علينا ليعلِّمَنا كيف يُغرَس الإيمان والحب لله في القلب ، ولتكون القدوة والأسوة للآباء والمُربّين في توجيه الأبناء والتلاميذ .

فيُخبر الله عن قول يعقوب ليوسف – عليهما السلام – : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ ، أي كما اختارك وأراكَ سجود هذه الكواكب والشمس والقمر لك ، فكذلك يجتبيك ربُّك ، أي : يختارك ويَصْطَفيك بفضلِه ، وشهودُ نعمة الله وفضله أصلُ سعادة العبد ، إذ هي أصل الشُّكر ، وإنما يعمل الشيطان ليجعل الخلق غير شاكرين ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] ، فإذا شكر العبد ربه قطع الطريق على الشيطان فلم يجد إلى قلبه سبيلاً ، وشُهود الاختصاص بالرحمة والتفضيل من أعظم ما يأخذ بقلب العبد إلى ربه – سبحانه – حباً وشوقاً ورجاءً وعبوديةً ، فالحب يَنبُتُ على حافّات شُهود المِنَن ومعرفة الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وهذا قد تحقق في كلمات يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام ، وأعظم نعمةٍ واجتباء يَمُنُّ الله بها على عبده هي نعمة الإسلام والإيمان والإحسان ، ثم الاجتباء بالقُرب الخاص والتفضيل على كثير من عباده المؤمنين ، وأعلى ذلك الاجتباء بالنبوة والرسالة ، تأمَّل ما ذكر الله – سبحانه – في كلامه لموسى عليه السلام : ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ [طه : ١٣] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾ [طه : ٣٦-٣٧] إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه : ٣٩]

وقوله تعالى : ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾[طه : ٤١] ، ولولا تثبيت الله لهذه القلوب لضَعُفَت من شدَّة الفرح والحب والشوق إلى الله – سبحانه – ، وتأمَّل قول الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[النساء : ١١٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم : ٤] ، ماذا ينالنا نحن من إدراك قَبَسٍ من النور الذي حَلَّ في قلوب الأنبياء ؟ وتأمَّل قول الله – تعالى – لعباده المؤمنين : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[آل عمران : ١٦٤] ، وتأمل قول الله – تعالى – : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[آل عمران:٧٣] ، وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱجْتَبَٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[الحج : ٧٨] ، فحين تستشعر أن الله هو الذي سَمَّاكَ مُسلماً من قَبْل وِلادَتك ، ومَنَّ عليك من قَبْل وجودك ، وَسَمَّاكَ مسلماً في القرآن – أشرف الكتب المنزلّة على أشرف الرسل ﷺ – يكاد القلب يذوب حباً وشوقاً ورجاءً لمزيد الفضل والرحمة منه ﷻ ، فالكون مَليء بأدلة التفضيل بين الخلائق ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[الإسراء : ٢١] ، وتأمُّل هذا في الدنيا يقود إلى وجود تفضيلٍ أعظم في الآخرة ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾[الإسراء : ٢١] ، وشُهود التفضيل بالدِّين أعظم سبب للحب ، مع معرفة صفات الجمال والجلال لله – سبحانه وتعالى – .

ولنتأمَّل في ذِكْر اسم الرب مضافاً إلى ضمير المخاطَب المفرد في قوله – تعالى – : ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾، لنجد التوجيه ولَفْت نظر القلب إلى هذه الخصوصية في العلاقة ، ربك أنت الذي يفعل بك كلَّ جميل ، وَيَمُنُّ عليك بكل نعمة ، ويختصك أنت ، ويريدك أنت ، فلتشهد أفعاله الجميلة بك ، ولتحرص على أن تكون له وحده ، وتشهد فضله وحده ، لا تُحَقِّقُ هذا الشعور غير هذه الكلمة ﴿رَبُّكَ ﴾في مثل هذا الموضع .

وتأمَّل قول يوسف عليه السلام في نهاية القصة : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ وقوله : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ تجد هذا التعلُّق الخاص بالرُّبوبِيَّة ، الذي يشهد به العبد الصالح المنَّة الخاصة والنعمة الخاصة ، مثل ما تجده في قول صالح عليه السلام : ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١] ، وقول شعيب عليه السلام : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٩٠] ، فحين أمرهم بالاستغفار ذكر اسم الرُّبوبِيَّة مضافاً إلى ضمير المخاطَبين ، وهم هنا لم يُخَصُّوا بَعْدُ بالفضل والتقريب ، وحين ذكر تعلُّقه هو بها وجد أثره من صفات ربه الرحيم الودود ، ذكر اسم الرُّبوبِيَّة مُضافاً إلى ضمير المتكلم المفرد : ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ ، لأنه وجد من رحمته الخاصة وأثر حُبِّه ﷻ ما لم يجدوه هم ، وتأمَّل قول السحرة : ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٨] لِتَعرف قدر هذه الخصوصية بهذا الفضل ، هذا الذي يأخذ القلب إلى الله ﷻ ، ويكاد يذوب شوقاً وحباً لله ، وتأمل ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] ، هذا الذي يجب أن يُربَّى عليه الإنسان ويُنشَّأ عليه من شُهود نعمته ﷻ واختصاصه عبده بفضله ورحمته ، فيُحِب ربَّه أعظم الحب ، ويكون تعلُّقه به وحرصه على مرضاته مُقدَّماً على كل ما سواه ، اللهم ارزقنا حُبَّك ومَرضاتِك .

وقد أكدَّ يعقوب عليه السلام على شُهود أثر الرُّبوبِيَّة بذِكْر جميع الأمور منسوبةً إلى فعله ﷻ ، فلم يقل : (ستكون يا يوسف عالماً بتأويل الرؤى ، وستنال المنازل العالية التي نالها آباؤك) ، وإنما كانت كل الأمور من أفعاله ﷻ : ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ و﴿ وَيُعَلِّمُكَ ﴾ و﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ و﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ .

وقد أثرَّت هذه الكلمات في يوسف عليه السلام أعظم الأثر ، فظل مُشاهداً لفضل ربه - سبحانه - وفعله الجميل به في كل مراحل حياته ، فيقول لصاحبيه في السجن : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ ، ويقول لهما : ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ،

ويقول لأبيه في خاتمة القصة : ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا ﴾ لم يقل قد تحققت ، ويقول : ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ ﴾ فنسب الإحسان إلى ربه ، ولم يقل خرجتُ من السجن بل الله أخرجه ، وقال : ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ ولم يقل جئتم ، وقال : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ فنسب الشَّر إلى الشيطان وفِعْله ، فهذا هو الأدب ، فالخير كلُّه في يَدَي الرب – سبحانه – والشَّر ليس إليه ، وقال : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾ فذكر لُطْفَه ومشيئته ، كل هذا أثر هذه التربية الإيمانية في الصغر ، فالله الذي يفعل ويتفضَّل وَيَمُن ويُحْسِن ، ويَلطف ويشاء ، له الحمد ﷻ ، وقال : ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾ ، كل هذا فضله ومنته .

وفي قوله عليه السلام : ﴿ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ ﴾ نجد أن شهود النعمة منه سبحانه يأخذ قلبَ العبدِ ، فكيف بإتمامها ؟! إن ابتداء النعمة فضل عظيم ، وأعظم منه إتمامها ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [المائدة : ٣] ، وقال تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ [الفتح : ١-٢] .

وإذا شهد مع ذلك أنه إتمامٌ للنعمة على آله كلِّهم ، وأنَّه سَبَق إتمامها على أَبَوَيْه من قَبل إبراهيم وإسحاق ، فهو إذن مغمورٌ بِنِعَمِ الله التامة عليه وعلى آبائه ، كل هذا أعظم في شهود الرحمة والفضل واستدعاء المحبة والشكر ، فاللهم أتم نعمتك علينا واجعلنا شاكرين لها مثنين بها عليك .

وتأمَّل كيف ذَكَر يعقوب نفسه باسمه ، وليس بضمير المتكلم المعتاد في مثل هذا المقام ، تجد في ذلك التواضعَ لله ﷻ ، والاعترافَ بفضله ، وشهودَ الفضل عليه لاجتباء أحد من ذريته للنبوة والرسالة ، فهذا فضل ونعمة على الأسرة كلها .

وذَكَرَ اسم يعقوب الذي سُمِّيَ به في صِغره دون ذكر إسرائيل ، الذي سُمي به في كِبَره بعد جِهاده في الله وتضحيته وصبره وغلبته [1] لنفسه لله ﷻ، وهذا – والله أعلم– تواضعاً لله – سبحانه – .

قوله تعالى عن يعقوب عليه السلام : ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، إن الإيمان بالأسماء والصفات أساس التوحيد والمعرفة ، ونجد هنا التربية الإيمانية على التعلق بالأسماء والصفات واستحضار آثارها ، وذكر هنا ثلاثة أسماء لله – سبحانه – : (الرب والعليم والحكيم) ، ذكر اسم الرب مضافاً إلى ضمير المخاطَب المفرد ، ليرى في نفسه خصوصية التعلُّق وشُهود الإصلاح الخاص ، فالرب هو الذي يَرُبُّ مَرْبوبَه ، أي: يُصْلِحه ويقوم على شأنه ، والله – سبحانه – يخصّ أنبياءه ورسله ثم أولياءه بأنواع من العناية والإصلاح ، ويُسْبغ عليهم من النعم والفضل ما لا يُسبغه على غيرهم ، فإذا استشعر العبد ذلك عَظُمَتْ عنده النعمة ، وتعلق قلبه بربه تعلقاً خاصاً ، حباً وشوقاً ورجاءً ، يختلف عن تعلق سائر الخلق ، فإنَّ النعمة الدينية أعظم من النعمة الدنيوية ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

والرَبُّ أيضاً المالك لَمْربوبِه ، وإذا استشعر العبد أنه مملوك ، مُختصٌ بمزيد فضل مالكه ، مُهَيَّءٌ مُعَدٌّ لأمر لم يُهَيَّئ له غيره من المماليك ، ربأ بنفسه أن يضيعها أو يَرضَى لها بأن يملكها غير مالكها الحق ، ولم يرض بعبودية غير ربه ومولاه .

والرَبُّ أيضاً السيد الآمر الناهي المطاع ، وفي هذا يشهد المؤمن أن أوامر ربه ونواهيه له هو ، وهو المقصود بها قبل غيره ، وأن طاعته هي المقصودة ، وهذا يجعله أشد حرصاً على التزام الأمر ، واجتناب النهي ، والمداومة على الطاعة .

---

(١) اليهود – عليهم لعائن الله المتتابعة – يعتقدون أن اسم إسرائيل أنعم الله به على يعقوب بعد أن أمسكه من حقويه وصرعه ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، فهو عندهم (اصرع – ائيل) ، أي : الذي صَرَع الرب سبحانه ، وإنما معناه عبد الله ، الذي صرع نفسه لله ﷻ أو نحو ذلك ، والله أعلم .

واسم﴿ ٱلْعَلِيمُ﴾ في هذا الموطن يقتضي شُهود عِلمه بمن يَصْلُح للاجتباء ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم بالشاكرين ، وأعلم بكيفية تدبير أمر عبده المؤمن ، حتى يوصله إلى غايته المحمودة ، وأعلم بما في قلوب عباده ، فيُقَدِّر أمره الغالب بعلمه الأول الموصوف به أَزَلاً - سبحانه - .

واسم﴿ ٱلْحَكِيمُ﴾ بمعنى الذي لا يفعل ولا يُشَرِّع شيئاً إلا لحكمةٍ وغايةٍ محمودةٍ ، فهو يضع الأشياء في مواضعها ، وإذا اجتبى عبداً وعلَّمه ، ومَنَّ عليه بما لم يَمُنّ على غيره ، فلأنه أهلٌ لذلك ، فهو أعلم بخلقه ، ويفعل فيهم مقتضى الحكمة التي يستحق الحمد عليها ، كما أن شرعه ﷻ كله حكمة ، وأوامره الشرعية لعباده المؤمنين فيها مصالحهم في دينهم ودنياهم ، وهذا كله يقتضي التسليم لشرعه ، والرضا به - سبحانه - وعنه رباً مدبراً قادراً ، لا يتهمه في قضائه ﷻ ، ولا يعقِّب على حكمه ، وإن غابت عنه الحكمة في مبادئ الأمور فليوقن بها ، فما يخلو قضاؤه ﷻ عنها أبداً ، وليصبر لأمره فسيرى العجب ، وليواظب على الحمد والتفويض والتوكل .

واسمه﴿ ٱلْحَكِيمُ﴾ بمعنى : المُحْكِم للأشياء ، الذي أتقن صُنع كل شيء ، وتدبير كل شيء ، وكِلا المعنَيين في قصة يوسف عليه السلام يظهر في تفاصيلها من آثارهما العجب ، فتأمَّل حكمة الله في إلقاء يوسف عليه السلام في البئر ، ثم بيعه رقيقاً وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وكيف كان هذا في الحقيقة سبباً لعلوه وارتفاعه على إخوته ، الذين أرادوا إنزاله ، فارتفع بفضل الله ، وأرادوا إذلاله فَعَزَّ بتقدير الله وحكمته ؟ وانظر كيف كان السجن سبباً للمُلْكِ ، لو لم يُبتَلَ يوسف به لظلَّ في رِقِّ العبودية ، فكان الضِّيق سبباً للسَّعة بحِكْمَة الحكيم - سبحانه - ، وغير هذا كثير مما سَيَمُر بنا - إن شاء الله - أثناء تفاصيل القصة ، وتأمَّل كذلك إتقان التدبير والكيد منه سبحانه ، وكيف كان الأمر في غاية الإحكام لينفذ أمره ، والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولقد ظلَّ يوسف عليه السلام متعلقاً بأسماء الله الحسنى التي علَّمها له أبوه عبر السنين ،

وظهر هذا جلياً في نهاية القصة بعد السنين الطوال والفراق البعيد ، فيقول لأبيه : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، نفس الأسماء التي ألقاها على سمعه وقلبه أبوه الكريم في صغره ، وهذا يؤكد لنا أهمية التربية الإيمانية على فهم معاني الأسماء والصفات والتعلق بها ، حتى لو كانت البيئة بعد ذلك غير مُعِينَة على نفس التربية ، بل حتى لو كانت البيئة فاسدة ، كالتي عاش فيها يوسف ، كانت بيئة كافرة ماجنة لاهية ، ومع ذلك بقي أثر التربية العظيمة ، ولو تأمَّلتَ وصية لقمان لابنه كيف يعلِّمه أسماء الله الحسنى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ١٦] ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] ؟ وتأمَّل كذلك الكلمات التي يعلِّمها النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنه : « احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ ... » الحديث [1] ، فيظهر لك ضرورة هذه التربية ، ومدى التقصير الذي يقع فيه الآباء والمربون إذا أهملوا هذا الجانب من جوانب التربية ، وبالقطع واليقين أن طريقة علم الكلام بالتعريفات الرياضية والحدود الكلامية هي أبعد الطرق وأَظْلَمُهَا ، فليبتعد عنها الأب والمربي ، وعليه بطريقة الكتاب والسُنّة والسلف الصالح - رضوان الله عليهم - .



(١) سبق تخريجه ص (٢٠) .

عِبر و عظات

قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝ ﴾

يُخبر تعالى أن في قصة يوسف من العبر والعظات ، ما هو دَلالات وعلامات للسائلين المُستخبِرين الباحثين عن ذلك ، دَلالات على وحدانية الرب - سبحانه - وكمال أسمائه وصفاته ، وحكمته وعلمه ، وفضله وعدله ، ودَلالات على صدق رُسُلِه ، وما لهم من الصفات الجميلة التي تحببهم إلى نفوس الخلق ، من الكرم والإحسان ، والعفو وسلامة الصدر ، والإخلاص والمراقبة ، والصبر والشكر والتفويض ، ورجاء فضل الله وعدم اليأس من روحه ، والاستعانة بالله وحده والالتجاء إليه في كل شِدَّة ، بل في كل حاجة دينية أو دنيوية ، وغير ذلك مما لَعَلَّهُ أن يَمُرَّ بنا في مواضعه من القصة ، ودَلالات على حُسن عاقبة الصبر والتقوى والإحسان ، وقبح عاقبة الحسد والحقد والمكر السَّيء وقطيعة الرحم والظلم واتباع الشهوات ، مما هو دَلالة على أمر الآخرة وما فيها من الحساب والثواب والعقاب ، ودَلالات على فضل العلم والدعوة إلى الله - سبحانه - ، وكيفية الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، ودَلالات على الإيمان بالقدر ، وأن مشيئة الله نافذة ، وأن الله غالبٌ على أمره ، رَضِيَ العباد بذلك أو لم يرضوا ، ودَلالات ظاهرة قاطعة على نبوة محمد ﷺ ، الذي أَوحَى الله إليه هذا القرآن العظيم ، ومنه هذه السورة الكريمة .



المؤامرة الخبيثة

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

يُبيّن الله – تعالى – في هذه الآيات ما وقع فيه إخوة يوسف عليه السلام من حقدهم وحسدهم ليوسف وأخيه على حب أبيهما لهما أكثر من إخوتهما ، والحسد هو الداء العُضَال ، الذي هلك به إبليس حين حسد آدم ، وهلك به ابن آدم الأول حين حسد أخاه فقتله ، ومنبع ذلك الداء الجهلُ بحكمة الله في قَسْمِه وعطائه ، والاعتراض على فضله ومِنَّته على من شاء من خلقه ، وسبب ذلك المقارنة الجاهلة بين النفس التي ترى كمالاتها المظنونة دون عيوبها ، وتعمى عن فضل المُقارَن به ، فإبليس رأى كمال فضل النار على الطين ، وليس هذا كمالًا في الحقيقة ، وجَهِلَ عيوب نفسه من الكِبر والعجب والإباء لأمر الله ، وعَمِيَ عن فضل آدم ؛ إذ خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وعَلَّمَهُ أسماء كل شيء .

وإخوة يوسف عليه السلام رأوا أنهم جماعة ، وقد رُوِيَ أنهم إخوة لأم واحدة ، وهل هذا يقتضي التفضيل والاختصاص بمزيد من المحبة ؟! وأنت تلحظ أن اجتماعهم غالب عمرهم لم يكن على خير ، حتى تابوا إلى الله ، وتناولوا دواء الحسد بشهودهم إيثار الله تعالى ليوسف عليهم ، وشهود خطيئتهم ، فمجرد كونهم (عُصبة) لا يلزم منه المحبة والفضل ، ولِتعلمَ ما كانوا عليه في اجتماعهم من الجهل والجفاء تأملْ أنهم قالوا

لبعضهم دون مُنكِر منهم : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نعوذ بالله من الجهل والضلال ، أبوهم الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن خليل الله ، العليم بالله وبصفاته ، الذي جعله الله قرَّة عينٍ لجدِّه إبراهيم ﷺ في حياته وتربَّى في حجره ، وجعله الله إماماً يهدي بأمره ، يقولون عنه : إنه في ضلال ، وليس فقط في ضلال ، بل يجعلونه ضلالاً مبيناً واضحاً جلياً ، فسبحان الله ! كيف انقلبت الموازين ، واختل الفهم إلى هذا الحد ؟! لكنه الحسد الذي يُعمي القلب ، ويُغير الحقائق في نفس الحاسد حتى لا يرى الخير في غيره ، ويحكم على من لا يوافقه في غيِّه وجهله بالضلال ، وهم قد جمعوا في هذه الجملة عدداً من العظائم : عقوقَ الأب ، وحسدَ الأخ ، وغِيبةَ أبيهم النَّبي ، وسوءَ الظن به ، والاعتقادَ الفاسد بنسبة الظلم إليه في تفضيله ، والإعجابَ بالنفس بما لا يستلزم الفضل ، وأشد هذه كلها الاعتقاد الفاسد في أبيهم النَّبي ، وتلفظهم بهذه الكلمة العظيمة باتهامه بالضلال ، ولا شك أن اعتقاد ضلال نبي من الأنبياء -- فضلاً عن التلفظ بذلك – مِن الكفر ، ولكنهم كانوا جُهَّالاً بما يجوز وما لا يجوز في حق الأنبياء ، فعُذِروا بالجهل في عدم التكفير ، وإن كان إثمهم بذلك عظيماً ، لكن لا يُكَفَّر المعيَّن قبل إقامة الحجة وإزالة الشبهة ، ومثلُ هذه الكلمة في الشناعة والفساد قولهم لأبيهم حين قال في نهاية القصة : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي : تسفهوني وتنسبوني إلى خرف الهرم ، ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ ، قال قتادة : (قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ) ، وكذا قال السُّدِّي وغيره ، والأنبياء لا يجوز أن يُسَفَّهوا أو يُضَلَّلوا ، بل هذا قول أعدائهم الكفرة فيهم ، ولولا جهل أبناء يعقوب لكفروا كفراً ينقل عن الملة فيما اعتقدوا وتلفظوا في حق نبي الله يعقوب ﷺ ، ففي القصة دليل على العذر بالجهل في مسائل الاعتقاد .

وقارن بين أدب يوسف وهو يَقُصُّ على أبيه الرؤيا ويقول : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ... ﴾ وبين قولهم عن أبيهم : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ لتعلم الفرق الذي من أجله أحب

يعقوبُ يوسفَ أكثر منهم ، فلم يكن تفضيله إياه عن هوى نفسٍ ، أو إعجابٍ بهيئةٍ وجمالٍ ظاهر ، أو تفضيل زوجةٍ على أخرى بتفضيل أولادها ، فإن نبي الله مُنَزَّه عن ذلك ، إنما كان تفضيله ليوسف لما رأى من صفات النجابة وحسن الأدب ، وكمال العقل وعلامات الاجتباء والاصطفاء ودلائل التفضيل الإلهي والإعداد لوراثة النبوة .

ولا شك أن المؤمن يحب في الله من يراه أكثر طاعة ، وموافقةً لدين الله الذي يحبه ويرضاه - سبحانه - لعباده ، والأب الذي يفضل في المحبة ابنه المطيع على ابنه العاصي ليس بظالمٍ ولا مُتَعَدٍ ، وإنما الجَور الذي حذَّر منه النبي ﷺ هو في التفضيل في العطية الدنيوية ، فلا يجوز تفضيل بعض الأولاد فيها على بعض بغير سبب كمرضٍ أو زمانةٍ أو فقرٍ أو حاجةٍ ، وسمَّى النبي ﷺ تفضيل بعض الولد في العطية جوراً فقال ﷺ للبشير والد النعمان بن بشير لما أراد أن يخصه بهبةٍ : « **لَا تُشْهِدْنِي عَلَى جَوْرٍ** »[1] ، وقال ﷺ : « **اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ** »[2] ، وظاهر هذه الأحاديث وجوب العدل والتسوية بين الأولاد في العطية ، وهو مذهب أحمد - رحمه الله - ، وقال الجمهور بالاستحباب ، ولا صارف للأمر بالعدل عن الوجوب ، فالظاهر مذهب أحمد ، واستثناء المريض والزَّمِن والفقير ونحو ذلك هو من جهة المعنى ، لأن العدل يقتضي إعطاء كل واحد كفايته ، وهؤلاء حاجتهم أكثر من غيرهم ، والأحاديث وردت في عطية أو هبة زائدة عن الحاجة ، والجمهور أن العدل المأمور به يستوي فيه الذكور والإناث ، لأن لفظ (**أَوْلَادِكُمْ**) يشمل الذكور والإناث ، وذهب أحمد إلى أن العدل في الهبة كالميراث ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، والظاهر قول الجمهور لعموم الدليل .

والمقصود أن التفضيل في المحبة بناءً على الصفات والأخلاق ليس من التفضيل المنهي عنه ، فلم يكن يعقوب عليه السلام مخطئاً ولا مخالفاً للأَوْلى في شدة محبته ليوسف عليه السلام وأخيه على بقية أبنائه .

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٠) ، ومسلم (١٦٢٣) ، والترمذي (١٢٨٨) ، والنسائي (٣٦٨٣) ، وابن ماجة (٢٣٦٧) ، وأحمد (١٧٦٣١) ، ومالك (١٢٤١) .

(٢) رواه البخاري (٢٥٨٧) ، ومسلم (١٦٢٣) ، وأبو داود (٣٥٤٤) ، والنسائي (٣٦٢٧) .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (واعلم أنه لم يَقُمْ دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنهم أُوحِيَ إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر ، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى :﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم : الأسباط ، كما يقال للعرب : قبائل ، وللعجم : شعوب ، ويَذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أُوحي إليهم) أ.هـ . والصحيح ما رجحه ابن كثير من عدم نبوتهم لأننا على يقين من عدم نبوتهم حال فعلهم ما فعلوه بيوسف ، ويُسْتَصْحَبُ هذا الحكم حتى يأتي دليل ، ولا دليل كما ذكر – رحمه الله – .

وقوله تعالى عنهم : ﴿ ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ يبين ما يصل الحسد بصاحبه إليه من العظائم والقسوة والفظاظة وعمى البصيرة وقطيعة الرحم ، قال ابن إسحق – رحمه الله – : (لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيمٍ من قطيعة الرحم وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الضَّرع الذي لا ذنب له ، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل ، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده ، ليفرّقوا بينه وبين أبيه وحبيبه ، على كبر سنه ورقَّة عظْمه ، مع مكانة من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً ، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه ، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمراً عظيماً) رواه ابن أبي حاتم .

وتأمل كيف سوَّل لهم الشيطان ونفوسُهم الأمارة بالسوء قتلَ يوسف أو إلقاءه في أرض بعيدة لا يعود إلى أبيه ، ومنَّاهم ووعدهم الغرور أنه بذلك سيخلو لهم وجه أبيهم ومحبته ووده ، يا عجباً لهذا الغرور !! أَيَصْفُو لهم قلب أبيهم وقد قتلوا حبيبه أو طرحوه ؟!! إن أدنى ذرةٍ من عقل تؤكد أن مثل هذا الفعل لا يجلب إلا الكراهية

والسخط العمر كله ، ولكنه الغرور والوعد الكاذب الذي يشقى به الإنسان ، ثم هل هُم فعلاً حريصون على حب أبيهم ؟! لو كانوا كذلك لأحبوا ما يحب ، ولَعَلِمُوا أن إِحْزَانَه وإغضابه بإبعاد ابنه عنه من أعظم المنكرات ، لكنه في الحقيقة حبٌ للنفس وحظها ، فهم لا يحبون أباهم حقيقةً ولا يريدون إلا نصيب النفوس وحظها من أبيهم ، ومثل هذه المحبة محبة علة ، لا ينظر المحب فيها إلا إلى حظِّه وشهوته مثل حب امرأة العزيز ليوسف ، ليس حباً حقيقياً ، بل هو حب للنفس وأنانية رذيلة دنيئة ، ومن عدل الله ﷻ أن جعل هذه المحبة لا ينال صاحبها بها وطره وغايته ، بل يتعذب بها ويبتعد عن مقصوده ، ولو نال شيئاً منه لما تنعَّم به ، بل ينقلب عليه عذاباً ووبالاً ، وليحذر العبد أن تكون محبته لربه ﷻ محبة عِلَّة ، لا يطيع ربه إلا لينال حظاً من الدنيا ، من جاهٍ أو منصبٍ أو مالٍ أو شهوةٍ ، فيصير ممن ﴿ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ﴾ [الحج : ١١] ، واعلم أن حظ العبد من الطاعة والعبادة ، من حب الله والشوق إليه ، ورجائه وحسن الظن به والتوكل عليه ، ولذة كل هذه العبادات وغيرها ، ليس من حظ النفس المذموم ، بل هو من أعظم المطالب الشرعية التي يحبها الله والتي هي من بشرى المؤمنين ، وهو ذوق طعم الإيمان وحلاوته وهو جنة الدنيا التي من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

وفي قوله تعالى عنهم : ﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب ، دليلٌ على خطر هذه الطريقة الشيطانية التي يُسوّل بها الشيطان للعبد فعل المعصية ، ويُهَوِّن عليه مواقعتها لأنه سوف يتوب ، فالعبد إن كان عنده أصل الإيمان والانقياد الباطن فهو يجد ألماً وضيقاً ولَوماً داخلياً بها وصراعاً نفسياً لفعل المعصية ، ولا يزال به هذا الألم والضيق حتى يترك المعصية ، وحسب قوة الإيمان وضعفه يكون هذا الألم قوةً وضعفاً ، فيحاول الشيطان أن يُسَكِّن هذا الألم ويخدّر هذا الشعور ويؤجّل هذا الصراع حتى يتمكن داعي الشهوة من حسم هذه المعركة لصالح فعل المعصية ، وهذا المُخَدِّر الذي يُسَكِّن ويُخدر به هذا الألم هو حديث النفس وتمنيتها بالتوبة في المستقبل ،

وبعد فعل المعصية يُسَوِّف التوبة ، أو يُنسي العبد إياها ، أو يصده عنها بأي طريق ، فالمهم عنده أن يفعل المعصية الآن ، وغداً يجد طريقاً للصدّ عن التوبة ، وأنت تلحظ هذا الأمر فعلاً في هذه القصة ، فعلى الرغم من عزم إخوة يوسف على التوبة بعد فعلتهم ، لم يتوبوا إلا بعد سنينَ طوال ، لمّا أخذوا دواء الداء وهو داء الحسد ، فقد ظلوا طيلة هذه السنين يُكِنُّون العداوة ليوسف عليه السلام ، وما شعروا بالندم على فعلتهم ، حتى إنهم قالوا ليوسف وهو عزيز مصر ، وهم لا يعلمونه : ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ ، فلم يزل الحقد في نفوسهم ، ولا يُلْمَح بداية الندم إلا في قول كبيرهم : ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾ ، فكان بداية الفرج عليهم شعورهم بالتفريط ، فهل تركهم الشيطان يتوبون عقب فعلتهم في بيع يوسف عليه السلام ؟! لم يتركهم ، بل ظلّ الحسد والحقد يملأ القلوب عبر السنين ، التي ربما بلغت نحو الأربعين أو أقل أو أكثر .

فإيّاك وطريقة الشيطان في تسهيل أمر الذنب وتمنية النفس بالتوبة ، فإنها من أماني الغرور التي لا تتحقق ولا تُغني من الحقّ شيئاً ، وربما كان من عقوبة الذنب الحرمان من التوبة المعزوم عليها ، واحسم الصراع في داخل النفس لصالح ترك المعصية قبل فعلها ، فهذا الذي تطمئن به النّفس ويسكن به القلب .

وقول قائلهم : ﴿ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ تلمس فيه درجة من القسوة أقل من الاقتراح الأول بقتله ، وتردداً وترديداً لهم في الفعل بقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ ، وإن كان والله اقتراحاً قاسياً جداً ، يطول به – في ظاهر الظنون – عذابُ أخيهم ومعاناته في ظلمة البئر ، ثم في ذُلِّ الرِّق طول العمر ، لولا ما قدره الله ليوسف عليه السلام من التمكين في الأرض وتيسير المأوى وتليين قلب من اشتراه عليه وعظيم محبته له إلى درجة الولد ، فسبحان من هو غالب على أمره وبحمده !! وتلحظ في كلمات إخوة يوسف ﴿ ٱقْتُلُوا ﴾ ، ﴿ ٱطْرَحُوه ﴾ ، ﴿ أَلْقُوه ﴾ الفظاظة والغلظة وقلة الرحمة .

والغيابة : أسفل الجُب ، بحيث يغيب ما وُضِعَ فيه عن نظر الناظر ، وحين يستحضر المرء صورة الطفل الصغير الذي يُلقَى في أسفل بئر مظلم وحيداً منفرداً ، يُترك فيه ليالي مظلمة ، حتى تأتي السيارة التي تأخذه رقيقاً تبيعه للناس ، فيكون خروجه على أيديهم ، هو الفرج بالنسبة إلى ما كان فيه ، البيع رقيقاً هو الفرج ! لا حول ولا قوة إلا بالله ، حين يستحضر المرء ذلك وأنه وقع من إخوة لأخيهم من أبيهم ، مع حسن خُلُقِهِ وخَلْقِهِ ، يعلم أن كيد الشيطان بالعبد لا يقف عند حدّ ، ويعلم كم يُكِنُّ الشيطان للإنسان من عداوة ، ورغبة في الشقاء والعذاب ، ليس فقط بالمُعَذَّبِ المطرودِ المُباعِ المظلومِ ، بل واللهِ بالمُعَذِّب المُلقِي البائع الخاسر الظالم ، فإن هذه القسوة الشديدة تجلب عذاباً حاضراً لصاحبها في دنياه قبل أخراه إلا أن يتوب ، والإنسان الذي نُزِعَتْ من قلبه الرحمة غير مرحوم ، نفسه تمقُته على ظلمه ، ومَنْ حوله يمقتونه ، والكائنات حيّها وجمادها يمقته ، وأعظم من ذلك مقت أهل السماء ، وأعظم منه مقت الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [غافر : ١٠] ، وقال النبي ﷺ : « وَالْعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ » [١] ، ولا تظن أن هذا في الكافر فقط ، بل من كان فيه من صفات الكفار القبيحة من الظلم والفسق كان له نصيب من هذا المقت بقدر ما فيه قلةً وكثرة ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢-٣] ، نعوذ بالله من مقته وغضبه ، ونعوذ بالله من القسوة والغفلة .



(١) رواه البخاري (٦٥١٢) ، ومسلم (٩٥٠) ، والنسائي (١٩٣٠) ، وأحمد (٢١٤٩٧) ، ومالك (٥٠٩) .

الوعد الكاذب

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

وقع الاتفاق على الاقتراح الأخير بإلقاء يوسف عليه السلام في غيابات البئر ، وبدأ تنفيذ الخطة من خلال الحديث الكاذب والوعد الذي يُضمرون إخلافه وادّعاء طلب الأمانة التي هم عازمون على إضاعتها وخيانتها ، فأتوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا : ﴿ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ، وواضحٌ أن يعقوب عليه السلام كان يلمس منهم سوء المعاملة ليوسف ، فكان لا يأمنهم عليه ويحول بينهم وبين الخلوة به ولا يتركه يُفارق المنزل ولو حتى للَّعب الذي يحتاجه الصغير ، فَدَرْءُ المفاسد مُقدَّم على جَلْب المصالح .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾ كذبٌ صريحٌ منهم ، فَهُم في الحقيقة له حاسدون وعليه حاقدون وفي ضرره ساعون ، وكم من مُقْسِمٍ على النصيحة هو لك غاشٌ ، فإياك أن تغترَّ بمن يزعم النصح حتى تعرض نصحه المزعوم على أمر الله ثم تعرضه على فعله وسلوكه ؛ لتعلم حقيقة النصح من الغش ، فقديماً قاسَمَ الشيطان أبوينا ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٢١] وكان أعظم الغشاشين ، ولا تنخدع بمن يأمرك بالسوء ، ويظهر من فلتات لسانه وأعماله دلائل الغش والحسد ، حتى ولو حاول خداعك بالله ، ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ ، قال ابن عباس : (يسعى وينشط) ، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ وهذا هو الوعد الذي تواطئوا على إخلافه ، وتأمل قدر التأكيدات وأنواعها المختلفة التي استعملوها في كلامهم ، من (إنَّ) المؤكدة ، ولام التوكيد المتكررة ، و ﴿ لَنَـٰصِحُونَ ﴾ ، و ﴿ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ مع أنهم على العكس تماماً مما يُعْلِنون .

وفي كذب إخوة يوسف وإخلافهم الوعد وخيانتهم للأمانة وفجورهم في خصومتهم لأخيهم – مع عدم تكفيرهم والحكم عليهم بالنفاق الأكبر – ما يؤكد قاعدة

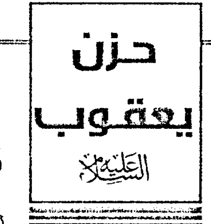
أهل السنة في انقسام النفاق إلى أصغر وأكبر ، كالكفر والشرك والظلم والفسق ، وأن اجتماع أعمال النفاق التي أخبر عنها النبي ﷺ في قوله : « **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ** »[1] ، وكذا قوله ﷺ : « **أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ** »[2] ، وهذا نِفَاقُ العمل لا نِفَاقُ الاعتقادِ المخرِج من الملة ، والمنافق الخالص النفاق في هذا الحديث هو أيضاً المنافق النفاق الأصغر ، ولكنه على خطر عظيم ؛ لأن النفاق الأصغر ذريعةٌ وسببٌ للنفاق الأكبر ، وإذا كان منافقاً خالصاً ، كان على حافة النفاق الأكبر ، ليس بينه وبينه شيء إلا حد الإيمان والتوحيد ، فهو على شفا هلكة الكفر والنفاق الأكبر ، فليدرك نفسه قبل فوات الأوان .



---

(١) رواه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) ، والترمذي (٢٦٣١) ، والنسائي (٤٩٣٥) ، وأحمد (٨٣٣١) .

(٢) رواه البخاري (٣١٧٨) ، ومسلم (٥٨) ، وأبو داود (٤٠٦٨) ، والترمذي (٢٥٥٦) ، والنسائي (٤٩٣٤) ، وأحمد (٦٤٧٩) .



قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

حاول يعقوب عليه السلام أن يمتنع من إرسال ابنه الحبيب يوسف عليه السلام مع إخوته لأمرين : **الأول** : هو أنه يحزنه فراقه مدة ذهابهم عدة ساعات من النهار ، والأمر الثاني : خوفه أن ينشغلوا عنه فيأكله ذئب ، وهو صغير لا يستطيع الدفع عن نفسه ، ونلحظ من هذا مدى حب يعقوب ليوسف – عليهما السلام – ، فإنه كان يحزنه فراقه ساعات فكيف كان حزنه وبَثُّهُ وألَمُه عليه هذه السنين الطوال ؟ لقد كان صبره ﷺ صبراً عظيماً ، فإن الواحد منا يشقُّ عليه ويؤلمه فراق أولاده وأهله أياماً وأسابيع ، وليس فيهم الصفات الجملية خُلُقاً وخَلْقاً عُشْرَ مِعْشَارِ ما كان عليه يوسف عليه السلام ، يكفيك في معرفة جماله الظاهر قول النبي ﷺ عنه أنه : « قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ » [1] ، فلو قُسِّمَ الحُسْنُ في هذه الدنيا لكان نصفه موزَّعاً بين البشر والنصف الثاني ليوسف ﷺ ، وأما جماله الباطن فالقصة من أولها إلى آخرها تدل عليه دَلالة آسرة للقلوب ، من علمٍ وحُكْمٍ وكَرمٍ وعِفَّةٍ وطهارةٍ واستغناءٍ بالله ونصحٍ للخلق وسعة صدرٍ وعفوٍ وصفحٍ ، وغير ذلك كثير يجعل قلب كل مؤمن يهفو إلى رؤية يوسف – صلى الله عليه وعلى نبينا وصحابته وسلم – .

نسأل الله أن يرزقنا رفقته ورفقة الأنبياء جميعاً في الجنة ، ونحن نحبه على سماع سيرته ، فكيف بمن صَحِبَهُ ورآه ؟! فكيف بحبِ أبيه له الذي هو من صلبه ؟! وحُقَّ لنبي الله يعقوب عليه السلام أن يُحزنه غياب يوسف عليه السلام عنه ساعات ، وهو يرى فيه شمائل وراثة النبوة ، وهو يعلم منه أنه المُهيَّأ والمُعَدّ من الله لحمل المهمة العظيمة في آل يعقوب

(١) رواه مسلم (١٦٢) جزءاً من حديث طويل ، وأحمد (١٣٦٣٦) المسند بلفظ « أُعْطِيَ يوسُفُ عليه السلام شَطْرَ الحُسْنِ » .

- مهمة النبوة والرسالة - وهو عليه السلام يراعيه ويربِّيه أحسن التربية لذلك ، ومع هذا فَقَدَرُ الله نافذ وأمره غالب ورحمته بعبده أعظم من رحمة الأم والأب بولدهما .

وسبحان الله ! كيف كان غياب يوسف عليه السلام عن أبيه سبباً في رفعته وملكه ؟! وكيف كان حفظ الله له في غيابه عن أبيه أعظم من حفظه له في كَنَفه ؟! وكيف كانت تربية الله له بعيداً عن توجيهات أبيه أكمل وأتم مما كان يريده يعقوب عليه السلام له ويَقدِر عليه ؟! فليفوض العبد أمره لربه عز وجل ، وليتوكل عليه تعالى في حفظ نفسه وأهله وولده وماله وشأنه كله وصلاحه وفلاحه في الدنيا والآخرة ، فهو ﴿ **خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ** ﴾ ، فما يظنه العبد ضرراً يجعل الله فيه أعظم النفع ، وما يحسبه نقصاً يجعله الله عز وجل سبباً للكمال ، وما يراه ضياعاً أو سبباً للضياع يجعله الله عز وجل حفظاً وسبباً له ، فلنحسن الظن بالله تعالى فهو أكرم الأكرمين ، وهو لا يسوء عبده المؤمن إلا ليَسُرَّهُ ، وما يحرمه إلا ليعطيه ، وما يبتليه إلا ليُكرمَه ويعافيَه .

وأما خوف يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام من الذئب ، فهو خوف طبيعي لا ذَمَّ فيه ولا نقص ما دام معه كمال التوكل ، وقد كان من يعقوب عليه السلام ، وهذا الخوف دافع لأخذ أسباب الحذر والحيطة ، وسبحان الله ! أخذ يعقوب بالأسباب ، ولكن الحذر لا يغني من القدر ، وتلقف أبناؤه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم الكاذب وحجتهم الزائفة فيما صنعوا بأخيهم .

وفي قولهم : ﴿ **قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ** ﴾ تلمح تكرار تكلمهم بلفظ : ﴿ **وَنَحْنُ عُصْبَةٌ** ﴾ هنا ومن قبل ذلك في قولهم : ﴿ **لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ** ﴾ ، فهو يدل على شعورهم المتزايد باجتماعهم وإعجابهم بأنفسهم ، وهذا الأمر من أخطر الأمراض النفسية القلبية التي تَعرِض للتجمعات ، أن يرى الأفراد المجتمعون على أمرٍ واحد استحقاقهم للتميز على غيرهم لمجرد اجتماعهم ، ولو تأملنا الحركات العنصرية والعصابات الإجرامية عبر الزمان والمكان لوجدنا من

أعظم أسباب استمرار الإجرام والفساد هذا الشعور بالقوة والاعتزاز بالجماعة ، بل الدول الظالمة بقاؤها وبطشها وقهرها لغيرها مبنيٌ على هذا الشعور ، والإنسان مدنيٌ بطبعه يميل إلى الاجتماع ، فإما أن يكون اجتماعاً على الخير والتعاون على البر والتقوى فيكون مأموراً به ، يسدُّ الحاجة الفطرية في الإنسان إلى الاجتماع ، وإما أن يكون اجتماعاً على الشر والتعاون على الإثم والعدوان فيكون وبالاً على العباد والبلاد وهلاكاً للحرث والنسل ، وهل قامت الحروب الكبرى كالعالميَّتَيْنِ إلا بسبب هذه (العصبية) الجاهلية ؟! وهل تَسَلُّطُ اليهود على أكثر الأمم والشعوب إلا نابعٌ من هذا المرض ؟! فلابد من الحذر من هذا المرض لدى الجماعات البشرية المختلفة ، ولابد من سد الحاجة الإنسانية إلى الاجتماع بضبطه بالبر والتقوى ، لا بإلغائه فإن إلغاءَه مصادمٌ للفطرة ولابد أن تضمحل الدعوة إليه ، فليس علاج المريض بقتله ، ولا علاج تضرره بكثرة الأكل ... بمنعه من الأكل بالكلية ، ولكن بالقصد والتوسط في الأمور كلها .



يوسف عليه السلام في محنة الجب

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

قال ابن كثير – رحمه الله – : (يقول الله تعالى فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ ، هذا فيه تعظيم لما فعلوه ، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل الجُب ، وقد أخذوه من عند أبيه – فيما يُظهرونه له – إكراماً له وبسطاً وشرحاً لصدره وإدخالاً للسرور عليه ، فيُقال : إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمَّه وقبَّله ودعا له ، وذكر السُّدِّي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه ، ثم شَرَعُوا يؤذونه بالقول من شتمٍ ونحوه ، والفعل من ضربٍ ونحوه ، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجُب (البئر) الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلَّوه فيه ، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ، وإذا تشبَّث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراعوفة ، فقام فوقها) أ . هـ .

تبكي العين ويتوجع القلب على ما جرى ليوسف عليه السلام من إخوته ، هذا الطفل الجميل البريء الطاهر النجيب الذكي الزكي الكريم ، يُلطَم ويُشتم ويُضرب ويُلقى في البئر ، يغمره الماء بلا ذنب ولا جريرةٍ إلا حسد إخوته على تفضيل الله ﷻ له في قلب أبيه ، وحُقَّ له أن يُفضَّل ، ماذا يصنع الحقد بالإنسان ؟! وما هذه القسوة العجيبة وقطيعة الرحم وانعدام البصيرة ؟! كيف كان شعور يوسف عليه السلام الطفل الصغير ، وهو يحاول التشبث بحافات البئر لئلا يقع فيه ، فتُضرب يده ؟! وكيف ظَنُّه بما عساه يكون قد فعل لإخوته ، وهو يلجأ إليهم واحداً بعد واحد ، فيلطمه ويشتمه ؟! وكيف كان

شعوره حين انصرفوا عنه وتركوه وجاء عليه الليل وحده بلا أنيسٍ ولا جليسٍ ولا ضوءٍ إلا ظلمة الليل وظلمة البئر البعيد عن الدار والأب الحنون والأم الشفوقة والأخ الوحيد الرفيق في الإخوة بنيامين ؟! وما المصير المجهول الذي ينتظره بعد ذلك ؟! لولا رحمة الله ﷻ ويُسْرُه الذي أنزله في هذا العُسر الشديد ، ولولا الأمن والسكينة التي أنزلها في قلبه لمات يوسف خوفاً ورعباً وجزعاً وهمّاً وحزناً ، لكنها رحمة الله الواسعة ونعمته السابغة ورأفته العظيمة .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول ابن كثير – رحمه الله – : (يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليُسر في حال العُسر إنه أوحى إلى يوسف عليه السلام في ذلك الحال الضيِّق – تطييباً لقلبه وتثبيتاً له – أَلَّا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسَناً وسينصرك الله عليهم ويُعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع) أ . هـ .

سبحان الله !! كان إلقاء يوسف في البئر إلى أسفل ، فجعلها الله بكرمه سُلَّماً إلى الرِفعة والعُلُو ، أرادوه أن يكون أسفل فجعله الله أعلى منهم فوقهم بمراتب عالية لا تُدرك ، أرادوه إلى إهانة فجعله الله إلى إكرام ، أرادوه إلى خوفٍ وفزع فجعله الله في أمن وسكون ، أرادوه إلى وحشةٍ وانقطاع فكان الوحي من الله أنيسه وجليسه ، اللهم لك الحمد كما تقول وخيراً مما نقول ، لا نحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، أنت جبار قلوب المنكسرين إليك ، وأنت الغالب على أمرك ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

والذي يظهر – والله أعلم – أن الوحي إلى يوسف عليه السلام في تلك الحال كان وحي إلهام ، لأن يوسف عليه السلام لم يبلغ بعد ، بل كان غلاماً ، والأنبياء رجال ، والبلوغ شرطٌ في النبوة كما دل عليه القرآن : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٣] ، فيكون هذا الوحي مما يصح وقوعه لعموم المؤمنين ، فهو بشارة لكل مظلوم مُلقى في

ظُلمة وخوف وإذلال وعُسرٍ .... بالنور والأمن والعِزِّ واليُسر بفضل الله الكريم المنان ، وعلى قدر الإيمان يفتح الله ﷻ للقلب من أسباب الخير والرحمة ويلهم من أسباب الطمأنينة والسكون .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فسره العلماء على وجهين :

الأول : أنه متعلقٌ بـ ﴿ وَأَوْحَيْنَا ﴾ أي : لا يشعرون بإيحاء الله إليه ، وهو قول مجاهد وقتادة .

الثاني : أنه متعلقٌ بـ ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم ﴾ أي : ستنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون أنك يوسف ولا يعرفونك ، وهو منقول عن ابن عباس ، والأول أظهر إن شاء الله تعالى .



مكر وصبر

قال تعالى : ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨ ﴾

تمتع إخوة يوسف عليه السلام بقدرة غريبة على الخداع والمكر ، إن دموع الإنسان من أصدق مظاهر التعبير عن ما في نفسه ، خصَّ الله الإنسانَ بها من بين الكائنات الحية الأخرى ، فحين يستعملها في المكر والخديعة وإظهار خلاف ما يبطن يكون في أحطِّ المنازل ، قلوب إخوة يوسف عليه السلام تضحك طرباً وسروراً على نجاح الخطة الظالمة – التي هي في الحقيقة فشل ذريع – وعيونهم باكية أمام أبيهم الشيخ الكبير ذي الحُرمة والفضل ، وألسنتهم تقرع سمعه بأشد خبر يمكن أن يسمعه ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾ ، خبرٌ وقْعُه كالصاعقة ، بل والله أشد على قلب الأب الحنون الشفيق المحب لأنجب أولاده وأفضلهم عند الله عز وجل وعنده ، وإذا كان الذئب قد أكله – بزعمهم – فلن يعود ثانيةً ، وقد قطعوا على أنفسهم طريق العودة في الكذبة التي كذبوها ، فلو قالوا مثلاً : (تاه منا في الطريق) ، (ضلَّ وهو يلعب) أمكن أن يعودوا فيقولوا : (وجدناه أو عاد) ، لكن ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾ ، ما أقسى قلوبهم حين واجهوا أباهم بمثل هذه الكذبة ، التي حاولوا ترويجها على أبيهم بإثارة شفقته عليهم بأنهم أبرياء صادقون !! لكن لا يصدقهم أبوهم لموقفه السابق منهم المتحيز ضدهم في زعمهم .

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – : (وقولهم : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا

صَـٰدِقِينَ﴾ ، تلطفٌ عظيمٌ في تقرير ما يحاولونه ، يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا ، – والحالة هذه – لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله ، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا) أ . هـ .

وقد كثر استدلال الكثيرين بهذه الآية على أن الإيمان هو التصديق ، فالمرجئة يقولون هو التصديق لغةً وشرعاً ، ومن أهل السنة من يقول هو التصديق لغةً بدَلالة هذه الآية ، وشرعاً هو قولٌ وعمل ، **والصحيح** أن الآية لا تدل على ما ذهبوا إليه ، إنما تدل على أن أحد معاني الإيمان هو التصديق ، ولا يلزم من ذلك أن يكون هو المعنى الوحيد له ، فإن لفظ الإيمان يحتمل معانيَ أخرى من الأمن والسكون إلى أمر غَيْبي ، ويشمل معنى الخضوع والانقياد ، ولهذا يُعَدَّى فعل (آمن) بالباء واللام ، والفعل (صدَّق) يتعدى بنفسه وبالباء ولا يكاد يُعَدَّى باللام ، ولذا فليس التصديق مرادفاً للإيمان من كل وجهٍ لغةً ، وعلى أي حال فالإيمان شرعاً : قول وعمل ونية ، يزيد وينقص كما هو مقرر بأدلته في موضعه .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ ، قال ابن كثير – رحمه الله – : (أي مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا – أي قصدوا – إلى سَخْلَة[1] – فيما ذكره مجاهد والسُّدِّي وغير واحد – فذبحوها ولطَّخوا ثياب يوسف عليه السلام بدمها مُوهِمِين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرِّقوه ، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نَبي الله يعقوب عليه السلام ، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لَبسهم عليه : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾ ، أي : فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله عز وجل بعونه ولطفه ، ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي : على ما تذكرون من الكذب المُحال) أ . هـ .

---

(١) السَّخْلَة : هي ولد الشاة من المعز والضأن .

أمرٌ آخر من علامات قسوة قلوبهم على يوسف عليه السلام، أنهم نزعوا قميصه وتركوه بلا قميص ليستعملوا قميصه في ترويج كذبهم على أبيهم ، ولكن الله فضحهم عند أبيهم بنسيان تخريقه ، فكان هذا الأمر من التيسير على يعقوب عليه السلام مع العُسر الذي نزل به بخبر أكل الذئب ليوسف عليه السلام ، فقد أيقن أن الأمر ليس كذلك ، وأن هناك أمرًا مدبَّرا فحصل له بذلك نوع طمأنينة أن يوسف عليه السلام لم يَمُتْ - كما زعموا - فازداد ما عنده من اليقين بوعد الله في يوسف عليه السلام وما يعلمه من الله عز وجل - وهم لا يعلمون - أنه العليم الحكيم اللطيف الخبير الذي يجتبي من يشاء ، وقد علم من الله عز وجل أن يوسف عليه السلام لابد أن يعلو على إخوته ويرفعه الله فوقهم كما دلت عليه رؤيا يوسف عليه السلام، ويعلم أنه الذي يرث النبوة من آل يعقوب عليه السلام، فلابد من أن يكون الأمر الذي ذكروه كذباً وزوراً ، وهنا يظهر كمال اليقين بوعد الله عز وجل وإن كانت الأسباب الظاهرة لحصوله منعدمة أو تبدو للمتأمِّل تسير في عكس الطريق ، ولكن سنة الله تعالى لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً ، ووعد الله لا يُخْلَف ، وهو عز وجل يبتلي عباده بمثل هذه المحن وانعدام الأسباب الظاهرة أو كونها عكس الطريق ليستخرج من عباده عبودية الصبر والتوكل واليقين ، ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ بلا جزع في القلب ، ولا شكوى لغير الله تعالى ، ولا عمل بالجوارح يدل على السخط ، ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ، المُتَوَكَّلُ عليه في جلب المنافع ودفع المضار وإنفاذ وعده لعبده ، فمهما أظلمت الدنيا في نظرنا فبالصبر واليقين يأتي النور والفرج من عند الله عز وجل وتُنَالُ الإمامة في الدين ، ومهما سُدَّت الطرق فالفتح آتٍ والنصر قريب ، وقال تعالى عن الرُّسل : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١٢] ، وما أجمل تمثل عائشة - رضي الله عنها - وهي متهمة بريئة مظلومة في محنة قصة الإفك بهذه الآية ، قالت : (وَاللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلاً إِلَّا كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾) [1] ! وما أجمل عاقبتها في ذلك حيث برَّأها الله من فوق سبع سماوات بكلامه الذي يُتْلَى إلى يوم القيامة ! فعلى

(١) رواه البخاري (٢٦٦١ ، ٤١٤١) ، ومسلم (٢٧٧٠) .

العبد إذا أَعْيَته الأسباب وضاقت عليه السُّبل ، أن يُكثر من هذا الذِّكر الجميل ويُصَبِّر نفسه ويُذَكِّرَها بمنزلة عبادة الصبر وعبادة التوكل والاستعانة بالله ﷻ، فهو إنما ابْتُلِى ليرى الله ﷻ منه ما يحب من أنواع العبودية ثم تكون له العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة ، فاللهم أحسِن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأنت ربنا الرحمن المستعان على ما يصف أعداؤنا أعداء الدين .



من السوق إلى القصر

قال تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ظاهر **السِّياق** – والله أعلم – يدل على أن إخوة يوسف عليه السلام عادوا إلى البئر مرة أخرى بعد كذبهم على أبيهم لينظروا ماذا يَصنع وماذا يُصنع به ، فيسَّر الله تعالى مرور قافلة سائرة على الطريق ، فأرسلوا من يستقي لهم الماء – وهو واردهم – فأدلى دلوه في البئر ، فتشبث يوسف عليه السلام به ، فأخرجه واستبشر به وقال : ﴿ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ﴾ ، فعند ذلك أَسَرَّه إخوته بضاعة ، أي : كَتَمُوا أن يكون أخاهم ، وزعموا أنه بضاعة يُباع ، فباعه إخوته بثمن بخس دراهم معدودةٍ ، لا موزونة لعيبها ونقصها ، وكانوا زاهدين فيه ليس لهم فيه رغبة ، فالضمير في ﴿ أَسَرُّوه ﴾ و ﴿ شَرَوْه ﴾ أي : باعوه ، يعود على إخوة يوسف عليه السلام وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ، والقول الثاني إن الضمير يعود على السيارة فيهما ، أي : أن الواردين أسرُّوه عن بقية السيَّارة ، وقالوا اشتريناه من صاحب البئر ، ثم باعوه بثمن بخس ، والأول هو الصحيح الظاهر ، فإخوته هم الذين باعوه بالثمن البخس ، فأما من اشتراه من السيارة فكانوا مستبشرين ، ولم يكونوا فيه من الزاهدين ،

والدليل على ذلك أنهم باعوه لعزيز مصر ، وإذا أردت أن تعرف قيمة سلعة فانظر مَنْ يشتريها ، فإذا كان الملوك هم الذين يشترونها فهي غالية ، فمِثْلُ يوسف عليه السلام في جماله الظاهر لا يُزهد فيه ، وإنما زَهَدَ فيه إخوته لحسدهم وحقدهم وحرصهم على التخلص منه ، فالذي يظهر أن إخوة يوسف عليه السلام هم الذين باعوه عبداً رقيقاً بضاعةً تُباع وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وقد كَتَم أمره ولم يَبُح بِسِرِّهِ خوفاً على نفسه من الهلاك في البئر أو قتلاً بيد إخوته بعدما رأى ما رأى منهم ، فبلاءٌ أهون من بلاء ، وظلمٌ أقل من ظلم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وإذا كان بيع الحُرِّ جريمة كبيرة من الكبائر كما قال النبي ﷺ : « **قَالَ اللهُ ﷻ : ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ : رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ** »[1] ، فكيف بمن يبيعون أخاهم ابن أبيهم من صُلبه ؟!! فكيف إذا كان أكرم الناس يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن اسحق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله ؟!!

ولنتأمل قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ في هذا السياق ، لنستحضر أن الله – سبحانه – مُطَّلِعٌ على هذا الظلم والإجرام والعدوان ، قال ابن كثير – رحمه الله – : (أي عليم بما يفعله إخوة يوسف ومُشْتَرُوهُ ، وهو قادرٌ على تغيير ذلك ودفعه ، ولكنّ له حكمة وقدرًا سابقًا ، فترك ذلك ليمضي على ما قدَّره وقضاه ﴿ **أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ** ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلامٍ له بأنِّي عالمٌ بأذى قومك لك وأنا قادر على الإنكار عليهم ، ولكن سأملي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم كما جعلتُ ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته) أ . هـ . فإذا تألَّمْتَ أيها المظلوم الأسير لِذُلِّ الأسر وهوانه ولفراق الأهل والأحبة والأوطان فلك السَّلوى عن ذلك في ذكرى يوسف عليه السلام وهو يُباع بالثمن البخس الدون القليل ، وليس هذا بالذُّل الحقيقي والهوان الحقيقي رغم ما يبدو للناس من ذلك ، فإن الذُّل الحقيقي هو في طاعة الشيطان وعبوديته وهو العدو اللّدود ، فَلِهَوَانِ العُصاة والكفار على الله ﷻ جعلهم

(١) رواه البخاري (٢٢٢٧) ، وابن ماجة (٢٤٤٢) ، وأحمد (٨٤٧٧) .

عبيداً لعدوه وحرمهم شرف السجود والعبودية له ﷻ ، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : ١٨] .

فالمُهان هو من لم يسجد لله ، والذَّليل هو من ذلَّ لعدوه الذي يريد إهلاكه أبداً ، وأنت عزيزٌ بطاعة الرحمن ومعصية الشيطان ولو باعك إخوانك في النسب أو الوطن أو القومية أو غير ذلك بالثمن البخس الذي يقبضونه من أعداء الإسلام ، ووالله لا يُمتَّعون به إلا قليلاً ، وهو مشوب بالنَّغَص والألم والشقاء ، وهل يريد الشيطان بالإنسان إلا ذلك ؟! فلو باعوك فلا تحزن ، ولك الأسوة في يوسف الكريم على الله ﷻ فلا تَهُن نفسك لانقيادك الظاهر في أيديهم ، فكذلك سار يوسف ﵇ مع مُشْتَرِيه ، وأُوقف صامتاً عن أمره كاتماً حاله في سوق الرقيق مع جماله الظاهر والباطن ومنزلته عند ربه ﷻ ثم كانت له العاقبة على من باعه .

فاصبر أيها المظلوم فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين ، واصبر فإن العاقبة للمتقين ، والله يعلم حالك ويرى مكانك ويعلم ما يفعل الظالمون ، وهو لا يحب الظالمين ولا يرضى بالظلم ولكنه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته ، وعَلِّق قلبك بالله ربك ، واستحضر آثار أسمائه وصفاته فهو الذي يُدبِّر بعلمه وحكمته ، ولا تستعجل للظالمين فإن لهم أجلاً لا يتعدَّونه ، وهم لا يُعجزون الله ﷻ ، وإذا آلمك قيدٌ أو آذاك وَثاق فإليك قول مجاهد عن يوسف ﵇ وإخوته : (لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم استوثقوا منه لا يأبق حتى وقفوه بمصر ، فقال : من يبتاعني وليبشر ، فاشتراه الملك - يعني الوزير - وكان مسلماً) أ . هـ . والله أعلم بإسلامه ، ولكن الوَثاق في حالة الرِّق والسفر بالرقيق معهود لمنع الإباق ، فالإخوة هم الذين طلبوا من السيارة وَثاقه طول السفر ، فلا تجزع ولا تَقُلْ : ربي أهانني ، وانظر إلى حال طاعتك في أسرك ووثاقك ، فإن كنت مطيعاً فأبشر ، وإن كنت مفرطاً فاستدرك حتى لا يفوتك العِزُّ الحقيقي .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، سوق الرقيق واسعة ، والمشترون متنوعون مختلفون ، والغالب على الرقيق الذُّل والإهانة والتكليف من الأعمال بما لا يبقى معه وقت لِفِكر ولا عِلم ، وكان من الممكن أن يقع هذا ليوسف عليه السلام ، يشتريه من لا يَعرف قدر الناس ولا يتفرس في مقاديرهم ، وكم من الناس عنده هذه الفراسة ؟! أقل القليل في أهل الإسلام ، فكيف بأهل الكفر والفسوق والعصيان ؟! لكنّ قَدَرَ الله النافذ وأمره الغالب ولطفه الخفي بيوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أسبق من كل الاحتمالات وأكبر من غالب الظنون ، فَقَدَّرَ سبحانه برحمته أن يشتريه عزيز مصر ، وأن يُلقي الله عز وجل في قلبه إكرامه ومحبته حتى يفكر في اتخاذه ولداً ، وأن يتفرس فيه النفع ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : (أَفْرَسُ الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته : أكرمي مثواه ، والمرأة التي قالت لأبيها : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه)[1] ، فاللهم لك الحمد كما تقول ، وخيراً مما نقول ، لا نحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

يُقَدِّر عز وجل إلقاء يوسف عليه السلام في الجب وبيعه رقيقاً ، وبُعده عن أبيه وحنانه وتربيته وتعليمه ، ليترك يوسف البدو إلى الحضر ، وحياة الشدة والحقد والحسد من إخوته الذين لا يدخرون الوسع في الكيد ، إلى حياة السعة والقصور والراحة والتقدير والاحترام ، ويعوضه الله عن حنان أبيه ، بحنان هذا الرجل العزيز الذي يربيه كولده راجياً نفعه ، وإذا أمر عزيز مصر بإكرام مثواه ، وهم أهل الرفاهية الذين ربما خَدَمُهم وفقراؤهم في رفاهية أشد من أكثر البدو ، فكيف يكون إكرام من يعامله العزيز وامرأته كابْنِهما ؟ وأبدله الله بتعليم أبيه يعقوب تعليم الرب - سبحانه - وإيتاءه إياه الحُكم

(١) صحيح : أخرجه الحاكم (٣٣٢٠) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

والعلم ، والحُكمُ : هو الفهم في الدين والعمل به ، وقال ابن كثير - رحمه الله - : (يعني النبوة) ، أي حباه الله بها بين أولئك الأقوام ، فالله ﷻ لا يُغالب ولا رادَّ لأمره ولا مُعَقِّبَ لحكمه ، لو بقي يوسف عليه السلام عند أبيه لما حصل له من هذا الخير ما حصل ، وإذا حَرَم الله ﷻ عبده المؤمن شيئاً عوضه خيراً منه أو مثله ، وتأمَّل ذكر فعل الرب - سبحانه وتعالى - وذكر صفاته وربط الأحداث بذلك ، وهذا من أعظم ما يُمَيِّز قصص القرآن ويجعله مختلفاً تماماً عن أي قصص آخر ، فإنما تُستفاد المعاني الإيمانية والمعارف الربانية الإلهية من خلال مشاهدة آثار الأسماء والصفات والأفعال ، وهذا متكرر في كل أجزاء القصة تقريباً ، تجد في هذا الموضع ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ** ﴾ أي : تأويل الرؤيا الذي ما كان يمكن أن يكون إلا بتيسير الله ﷻ المَثْوَى الكريمَ ليوسف عليه السلام ، ﴿ **وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ** ﴾ ، فإخوة يوسف عليه السلام أرادوا إهانته وأراد الله إكرامه ، فغلب الله الخلقَ على أمره ﷻ ، ونفذ أمره واضمحل أمرهم وإرادتهم ، وهذه قاعدة كلية عامة ﴿ **وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ ، فكل صراع بين الحق والباطل والخير والشر ، يريد أهل الباطل فيه إزهاق الحق وإبطاله ، فيُحِقُّ الله الحقَ بكلماته ويزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، يريد أهل الكفر أن يُطفئوا نور الله بأفواههم ، والله غالبٌ على أمره ، فيُظهر الله ﷻ دينه على الدِّين كله ولو كره المشركون ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة الله وقدرته وعزته وأنه ﷻ الفعال لما يريد .

وقوله تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ** ﴾ أي : كما أنجينا يوسف عليه السلام من إخوته مَكنَّا له في أرض مصر ، وقوله تعالى : ﴿ **ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ كل هذا من أفعال الرب - سبحانه - وصفاته وسننه في خلقه ، وتلحظ توجيه القلوب إلى آثار الأسماء والصفات والأفعال ، فيما مضى من القصة من أول كلام يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام كما سبق بيانه ، وتعليمه إياه أنّ ربَّه عليمٌ حكيم ، وفي ذكر إلقاء يوسف عليه السلام في الجب ذكر الله ﷻ إيحاءه إليه بأنه ينبئهم بأمرهم هذا فقال ﷻ :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، وفي ذكر بيعهم له للسيارة قال ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ ، وفيها يأتي في القصة مزيد من ذلك ، ففي ذكر ما وقع بينه وبين امرأة العزيز قال تعالى : ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ ، وفي مواجهة التهديد بالسجن قال عن يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، ودعوة يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن كلها ذكر أسماء الله وصفاته وربوبيته وألوهيته وآلائه ونعمه ، وفي جواب يوسف عليه السلام لرسول الملك لما جاءه بعد تأويل الرؤيا قال : ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ، وفي ذكر مُلك يوسف أرض مصر قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ولعله يأتي المزيد من ذلك -- إن شاء الله تعالى – في تضاعيف القصة .

والشاهد من هذا : أن المؤمن لابد أن يلحظ من الأحداث التي تقع أمامه أن الله الذي يدبِّر الأمر ، وأن كل ما يرى من أمور هو أثرٌ من آثار أسماء الله وصفاته وأفعاله ، فيتعلق قلبه بالله ﷻ وحده ، ويصغر الخلق في قلبه ولا يغره تقلب الذين كفروا وظلموا في البلاد ، فلله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، وعبده المؤمن يعبده وحده ويتوكل عليه وحده ويوقن أن الخير كله بيده والملك كله بيده ، ويبتعد عن سبيل أكثر الناس الذين لا يعلمون ، لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فيظنون أن الأمور بأيدي الخلق وأنهم مستقلون بأفعالهم ، وذلك لأنهم لم يعلموا الآيات المتلوة ولم يفقهوا الآيات المشهودة مع أن تفكراً يسيراً في الكون وما فيه من موتٍ وحياةٍ ، وإعزازٍ وإذلالٍ ، وإيلاجِ الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل ، يجعل العاقل يقطع أن البشر لا يملكون شيئاً ، ولا يستقلون بأفعالهم ، بل لابد أن يجعلهم الله فاعلين مالكين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، كيف لا ؟! وكل واحد منهم كان نطفة من منيٍّ يمنى ، كان شخصياً حيواناً منوياً من مئات الملايين من الحيوانات المنوية التي أمناها أبوه في رحم

أمه ، ففي المرة الواحدة من الإمناء حوالي من ٢٠٠ مليون إلى ٦٠٠ مليون حيوان منوي ، لو سبق حيوان غير الذي سبق إلى البويضة لكان إنساناً آخر بصفات أخرى بقدرات عقلية وسمعية وبصرية وبدنية ونفسية أخرى غير التي هو عليها ، كيف لا ؟! وقد خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وجعل الله ﷻ له السمع والبصر والفؤاد ، كيف لا ؟! وقلبه الذي ينبض فيجري الدم في عروقه إلى كل أجزاء جسمه لا يملك أن يجعله ينبض أو يقف ، لو توقف عن النبض لمات الإنسان في لحظة ، لو توقف جريان الدم عن أي عضو من أعضائه لتعطلت قدرته ومنافعه .

فالإنسان مغلوب على أمره حتماً ، والله غالبٌ على أمره ، قاهرٌ فوق عباده ، لا يملك مَنْ دونه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، هو سبحانه رب السماوات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم ، فالق الحب والنوى ، ما من شيء إلا هو آخذ بناصيته ، الأول الذي ليس قبله شيء ، والآخر الذي ليس بعده شيء ، الظاهر الذي ليس فوقه شيء ، والباطن الذي ليس دونه شيء ، هو الغني والخلق كلهم فقراء إليه ، كل هذا - والله - أمرٌ محسوسٌ لكل عاقلٍ بأقل قدرٍ من الفكر ، وليس فقط مقتضى الآيات الشرعيَة المتلوَّة المُنَزَّلة والأحاديث النبوية المباركة ، وإن كانت الآيات والأحاديث تُرشدُ الفكرَ والعقلَ والقلبَ إلى الحق بأقصر طريق وأيسر سبيل ، وذلك لمن تدبرها واستحضر معانيها بقلبه الحي أو ألقى السمع وهو شهيد ، فاللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا مُعطي لما منعت ، لا ينفع ذا الجد منك الجد ، أغثنا برحمتك ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ، سبق ذكر كلام ابن كثير - رحمه الله - أنها النبوة ، وقال غيره : (الحُكم : الحِكمة ، والعِلم : الفقه في الدين قبل أن يُبعث نبياً) ، وهذا أظهر لأن الله تعالى قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فهذا الحُكم والعِلم يجزي الله ﷻ به كل محسن ، وبالقطع لا يكون كل محسن من المؤمنين نبياً ،

فالتفسير بالحِكمة والفهم والفقه والعمل أظهر ، لأنه القدر المشترك بين الأنبياء وسائر المحسنين ، ويخص الله ﷻ الأنبياءَ بمزيدٍ مِنْ الحُكم والعِلم لا يناله غيرهم ، ولعل هذا - والله أعلم - هو السبب الذي لأجله ذكر القرآن ما آتاه الله ﷻ يوسفَ عليه السلام بالحُكم والعِلم دون التصريح بالنبوة ، لينتفع المؤمنون بما دلّهم عليه القرآن من القدر المشترك فيطلبوه بالإحسان ، ولو صرَّح بالنبوة لما وَجدَت النفوس سبيلاً للتأسي للقطع بالخصوصية .

وهذه هي طريقة القرآن دائماً ، تذكر أوصاف الأنبياء بالقدر المشترك بينهم وبين المؤمنين ليتأسى المؤمنون بهم ، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ٨٤] ، وسلامة القلب يطلبها كلُ مؤمن ، وقال ﷻ عن إسحق ويعقوب - عليهما السلام - : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٢ - ٧٣] ، فالصلاح والدعوة إلى الله ﷻ وفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والعبادة صفاتٌ يحرص عليها كل مؤمن ، وللأنبياء منها القدر الأعلى ، وقال سبحانه عن لوطٍ عليه السلام : ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٥] ، فالعلة في إدخاله في رحمة الله ﷻ أنه من الصالحين ، ليس فقط لكونه نبياً ، فكل صالح يدخل في رحمة الله بصلاحه ، وقال ﷻ عن أيوب عليه السلام : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٤] ، فبالعبادة ينال العابدون من هذه الرحمة ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٥ - ٨٦] ، فالممدوح من صفاتهم - الصبر والصلاح - ممكن لكل عباد الله المؤمنين ، وقال سبحانه عن آل زكريا : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ، وكلها صفات ممكن للمؤمنين تحصيلها ، وإن لم تكن درجتهم فيها كدرجة الأنبياء .

فهذه طريقة القرآن التي لو تقصيناها لطال المقام ، يذكر الله ما آتاه الأنبياء

والمرسلين بالأوصاف المشتركة بينهم وبين المؤمنين ، لِيَحُثَّ المؤمنين على تحصيلها لينالوا - بقدرهم - من جنس ما ناله الأنبياءُ والمرسلون ، وإن كان لهم من الاجتباء والاختصاص ما لا يدركه غيرهم - عليهم الصلاة والسلام - ، والمقصود أنه بالإحسان - وهو كما فسره النبي ﷺ : « **أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** »[1] - ينال الإنسان من أنواع الحكمة والفقه والعلم والعمل ، فكلما أحسن العبد عبادة ربه .... فتح لقلبه عيوناً وعيوناً يرى بها الحقائق وتنكشف له بها منازل الطريق إلى الله تعالى ، ويعلم بها عيوب نفسه وعمله فيتلافاها ويستدركها ، وأعظم من ذلك وأعظم أن يعرف أسماء ربه وصفاته وأفعاله وآلاءه ، فيزداد بذلك إحساناً إلى إحسان فـ﴿ **هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ** ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، فاللهم اجعلنا من المحسنين .

ثم هذا الإحسان في عبادة ربه يحصل له به غنىً في قلبه يستغني به عن الخلق ، فلا يحتاج لمنافستهم في دنياهم ، بل يتركها لهم حتى لو كانت من حقه ودنياه هو ، فهو يربأ بنفسه أن ينافس ويخاصم عليها ، فـ (المليونير) - كما يسمونه - إذا وقع منه قروش فتقاتل الناس عليها ، هل يحط نفسه للمنازعة عليها والمطالبة بها ؟ بالقطع لا ، بل يترفع عنها ويتركها لهم ، لكمال غناه ، فيحصل للمحسن بذلك بذل الفضل وكف الأذى واحتمال أذى الناس ، ويقوى على أن يدفع بالتي هي أحسن السيئة ، ويسهل عليه العفو والصفح والجود والكرم وعدم استقصاء الحق والسماحة ، وهذه مظاهر الإحسان إلى الخلق ، وقد كان ليوسف عليه السلام من ذلك ما يليق بمقامات النبوة العالية والدرجات الرفيعة ، تأمَّل إحسانه مع صاحبيه في السجن ، وحين نسِيَه الذي نَجَا سنواتٍ ، لم يعاتبه بكلمة ، ولم يشارطه على قضاء حاجته ، بل بذلها مجاناً ، وزاد عليها النصح لهم فيما يعملونه ، وزادهم من عنده بشارة بالفرج ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾ ، وتأمَّل إحسانه وعفوه وكرمه مع إخوته تجد أن الذي سَهَّلَ عليه قوله : ﴿ **قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ** ﴾ شهوده لفضل الله

(١) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٨) ، والترمذي (٢٦١٠) ، والنسائي (٤٩٩٠) .

ﷻ ومنته ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ، فَمِنَّةُ الله عليه بالصبر والتقوى والإحسان أغناه الله ﷻ بها ، فبذل مظلمته بلا عتاب أكثر من جملة واحدة ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾ ، لم يزد عليها إلى آخر عمره ولا كررها على أسماعهم مرة أخرى ﷺ ، وبهذا الإحسان بنوعيه – في عبادة الله ﷻ ، ومع الخلق – يقوم أمر العالَم ويصلح ، ويهتدي الخلق ويقتدون بسادة المحسنين أنبياء الله الكرام – عليهم وعلى سيدهم محمد ﷺ أفضل الصلاة والسلام – .

اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى ، وبأنّا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، أن تلحقنا بهم وأن ترزقنا مرافقتهم في الجنة .



مِحنة ومِنحة

قال تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

محنةٌ جديدةٌ وابتلاءٌ جديدٌ ليوسف عليه السلام ، محنةٌ سببها حياة الرفاهية والشهوات التي يحياها أهل الملك والسلطان في أغلب الأحيان ، وإن كان يوسف عليه السلام في وادٍ وهُمْ في وادٍ ، لكنهم لا يعرفون من الحياة إلا شهوة البطن والفرج والرياسة والمال وكلام الناس ونحو ذلك من فتن السرَّاء التي لا يصبر عليها أكثر الخلق ، ولما كان العبد حقاً هو الذي يصبر على كل حال ، ويعتصم بأمر الله عز وجل من كل الفتن ، ويَسلَم قلبه من كل تعلُّق بغير الله تعالى ، وكانت هذه الدنيا محلاً ليُحَصِّل الخلق كمال عبودية ربهم عز وجل على كل حال ، في السرَّاء والضرَّاء ، والعُسر واليُسر ، فيما يحبون وفيما يكرهون ، قَدَّرَ الله عز وجل على يوسف عليه السلام - ويقدِّر على غيره من عباده المؤمنين - مثل هذه الفتنة ، نعوذ بالله من الفتن .

يوسف عليه السلام الشاب الأعزب ذو الجمال الخارق والحسن الباهر ، يعيش في قصر العزيز مع امرأته التي لم تزل في شبابها وحُسنها ، وزوجها مشغول في وزارته ، بالإضافة إلى تسيب وانحلال في المجتمع كله ، وخصوصاً هذه الطبقة المترفة الحاكمة ، وكما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كان في الرجل نوع دياثة ، لتركه امرأته تفعل ما تشاء وتخلو بمن تشاء ، ورغم علمه بها وقع منها تركها ثانياً تفعل ما تشاء وتخلو بمن

تشاء ، وواضح أيضاً من سياق القصة أن المرأة كانت مسموعة الكلمة ، لأمرها شأن ، تستطيع الضغط على زوجها وغيره من رجالات الدولة بطريقتها الخاصة ، حتى ينفذوا ما تريد ولو كان إلقاء البريء الطاهر الكريم في السجن بضع سنين ، فهي امرأة ذات منصب وجمال ، تزينت وتهيأت وغلقت الأبواب ، ودعت يوسف عليه السلام إلى نفسها ، إلى الفاحشة والعياذ بالله ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، فسّرها غير واحد من السلف : هَلُمَّ لك ، تقول : (أنا لك ، تعالَ إلى من تُمَلِّكُكَ نفسها) ، وهي ذات المنصب والجمال ، وعلى القراءة الأخرى : (هِئْتُ لك) ، أي : تهيَّأت لك ، ومعنيا القراءتين متلازمان ، فـ (هَلُمَّ لك وتعالَ) ملازمٌ ل :تهيأتُ لك وتزينتُ لك ، هو فتاها الذي تَمَلِكُه في عُرف الناس ، والعادة أن المرأة لا تكون طالبة ، ومع ذلك هي تطلبه وتُمَلِّكه نفسها وعِرضها ، أيُّ فتنةٍ أعظم من هذه الفتنة ؟! مع شدة حاجة يوسف عليه السلام إلى الأنيس في غربته ، وإلى المرأة في عزوبته وشبابه ، والأبواب مغلقة ، والخلوة تامة ، والرجل حتى لو حضر فَرَدُّ الفعل المنتظر لا يهدد بالخطر ، ومع ذلك كان الجواب المباشر ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ ، الالتجاء إلى الله عز وجل ، والاحتماء بِجَنَابِه ، والتحصُّن بعصمته ، فوالله لا يُنجي من هذا الموقف إلا الله – سبحانه – ، ولاستعاذة يوسف عليه السلام أعاذه الله عز وجل من شر هذه المرأة ، وصرف عنه السوء والفحشاء أو صرف عنه شر الشهوة المحرَّمة ، وهذا أقصر الطرق وأيسرها للشباب في مواجهة فتنة الشهوات ، التي تطل برأسها في كل مكان ، ومجتمعات اليوم شبيهة بالمجتمع الذي عاش فيه يوسف عليه السلام ، في الاختلاط المحرم ، والخلوة المحرمة ، وصعوبة الزواج ، وتبرج النساء وتزينهن ، بل وعرضهن أنفسَهن في الحرام ، كل ذلك كان موجوداً بعينه في قصة يوسف عليه السلام ، وكان المَخرَج من هذه الفتنة هو الاستعاذة والالتجاء إلى الله – سبحانه – وتحقيق الإخلاص ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ .

فعلى القراءة بِكَسر اللام ﴿ ٱلْمُخْلِصِينَ ﴾ تكون اسم فاعل ، فالإخلاص فعل العباد ، فإرادة وجه الله وحده وابتغاء ما عنده من أعظم أسباب صرف السوء

والفحشاء عن العبد ، وهذا مع الاستعاذة التي هي **أولاً** : شهودٌ لتدبيره ﷻ للكون وما فيه ، وأنه الملك الذي يحمي مَنْ شاء ممن شاء ، ثم هي لجوءٌ إليه وفرارٌ إليه وطلب الحماية منه ، فهي من الاستعانة به ﷻ والتوكل عليه ، فبالإخلاص يحقق العبد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وبالاستعاذة يحقق العبد ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فعند ذلك يهديه الله الصراط المستقيم .

وعلى القراءة الأخرى ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ بفتح اللام ، فَهُم الذين أخلصهم الله لعبادته ، فالمعنيان متلازمان ، لأن تخليص الله لهم إنما هو ليحققوا عبادته وهي الإخلاص ، ولكن على قراءة ﴿ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ يكون الشهود لفضل الله ومنته هو الأصل ، فهي في معنى ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وعلى قراءة ﴿ ٱلْمُخْلِصِينَ ﴾ يكون شهود إفراد الله بالإخلاص وتوحيد العبادة هو الأصل ، فهي في معنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وكلا الأمرين ضروري ولازم للعبد ، وهما متلازمان ، فلا يحصل إخلاصٌ إلا بتوفيق منه ﷻ ، ولا تحصل الإعانة إلا لعبدٍ توجَّه إلى الله ﷻ بقصده وأراد وجهه ، وهو الأول والآخر سبحانه وبحمده ، يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وكلا القراءتين صحيح متواتر ونزل بهما الوحي ، ليعلم العباد ضرورة الإخلاص لله ﷻ والاستعانة به واللُجأ إليه سبحانه ، وإنما تملأ الشهوات القلب إذا خلا من إرادة وجه الله ﷻ ومحبته والإخلاص له ، أو إذا خلا من الاستعانة بالله واللجوء إليه ، أما إذا امتلأ قلب العبد بالإخلاص والاستعانة فإنه يطرد الشهوات المحرمة ، ويمده الله ﷻ بتوفيقه وحفظه ، ويصرف عنه شر خلقه ونفسه وشيطانه ، ويدحر عنه جيوش الظلام والفساد ، فلا تجد إليه مدخلاً ، وإنما تتمكن هذه الجنود من الدخول إلى القلوب الخاوية من عبادة الله ومحبته ، فحب الله وإرادة وجهه هو الدواء الشافي من هذا المرض العضال الذي يملأ المجتمعات ويدمر القلوب والإرادات ويؤدي إلى انتشار الفواحش والمنكرات ، وليحذر الشباب على أنفسهم من محاولات

التبرير والاعتذار بأن الشهوات هي التي تفرض نفسها ، وأن الحلال سُبُله قد ضاقت ، فيوسف عليه السلام كان في نفس الظروف ، واحذر أن يقول لك الشيطان : (إنه نبي ، وأنت لست كذلك) ، فالله عز وجل يعلّل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من النبيين ، بل قال : ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فهي إذاً لكل مخلصٍ لله سبحانه ، وليس في الخروج عن هذه الصفة - الإخلاص - إلا الوقوع في شباك إبليس وغوايته ، قال عز وجل: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص : ٨٢-٨٣] ، فليس هناك إلا طريقان : الإخلاص ، وفيه يصرف الله عن العبد السوء والفحشاء ، والطريق الآخر : إغواء إبليس والوقوع في السوء والفحشاء ، عياذاً بالله من ذلك ، فاختر لنفسك أحد الطريقين تصل إلى أحد المصيرين .

وأمر آخر أرشد إليه القرآن ، إذا استحضره العبد سَهُلَ عليه ترك الفاحشة ومقدماتها ، وهو تذكر حقوق المخلوقين التي تُنتَهك بفعل الفاحشة ، قال تعالى : ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ، والرب هنا بمعنى السَّيد ، وكان هذا في شريعتهم ، وقد ورد النهي الصحيح الصريح عن النبي ﷺ في قوله : « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : اسْقِ رَبَّكَ ، أَطْعِمْ رَبَّكَ ، وَضِّئْ رَبَّكَ ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : رَبِّي ، وَلْيَقُلْ سَيِّدِي مَوْلَايَ ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : عَبْدِي أَمَتِي ، وَلْيَقُلْ : فَتَايَ فَتَاتِي غُلَامِي »[1] ، فهذا اللفظ مكروهٌ في شرعنا ، وإنما استعمله يوسف عليه السلام على ما جرت به لغتهم ، ولم يكن منهياً عنه في شرعهم ، والغرض المقصود أن يوسف عليه السلام ذَكَّرَ نفسَه والمرأةَ بحق زوجها ، وأن الإحسان يقتضي الإحسان ، وأن مقابلة الإحسان بالإساءة ظلم ، وأن الفاحشة من الظلم والخيانة ، والحق أن هذه المسألة من أعظم الأدوية لهذا الداء لو استحضره العبد ، كما صح عن النبي ﷺ استعماله للشاب الذي استأذنه في الزنى ، فَقَالَ : (يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَى) ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ ، قَالُوا : (مَهْ مَهْ) ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « ادْنُهْ » ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا ، فَجَلَسَ ، قَالَ ﷺ: « أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟! » ،

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٢) ، ومسلم (٢٢٤٩) ، وأبو داود (٤٩٧٥) ، وأحمد (٢٧٤١٤) .

قَالَ : (لَا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ) ، قَالَ : « وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ » ، قَالَ ﷺ : « أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ ؟! » ، قَالَ : (لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ الله ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ) ، قَالَ ﷺ : « وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ » ، قَالَ ﷺ : « أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟! » ، قَالَ : (لَا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ) ، قَالَ ﷺ : « وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ » ، قَالَ ﷺ : « أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟! » ، قَالَ : (لَا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ) ، قَالَ ﷺ : « وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ » ، قَالَ ﷺ : « أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟! » ، قَالَ : (لَا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ) ، قَالَ ﷺ : « وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ » ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ ﷺ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ » ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ[1] . فإذا عَلِمَ الذي يُقْدِمُ على الفاحشة ومقدماتها أن عليه – بعد حق الله تعالى – حقاً للمخلوقين ، مِن أهل هذه المرأة مِن أبٍ وأخٍ وزوجٍ وابنٍ وأقاربَ يتضررون أعظم الضرر من هذه الفعلة ، وأنه لا سبيل للتحلُّل منها غالباً ، فإنه يمتنع من فعل الفاحشة ومقدماتها ، فالزنى وإن كان اعتداءً على حق هو في الأصل حق لله – سبحانه – إلا إنه يتضمن أيضاً حقوق المخلوقين المذكورين ، ورضا المرأة لا يُسقط حقهم بحال ، فهو ظلم وعدوان عليهم حتى ولو رضيت ، فإذا كانت مغتصبة كانت الجريمة أفظع وأفظع والعياذ بالله ، وهذا من أعظم الزواجر عن ارتكاب هذه الفواحش لمن كان في قلبه الإيمان بالله واليوم الآخر ، يعلم أنه موقوف بين يدي الله ﷻ غداً للحساب ، ويقف خُصُومه الذين ظلمهم في عِرْضِهم ، يأخذون من حسناته حتى يرضوا ، وما الظن في غيظ من انتُهك عِرضه ، هل يُبقِي من حسنات خصمه شيئاً ؟! نسأل الله العافية .

وأمر ثالث : وهو شهود عدم فلاح الزاني ومرتكب الفاحشة ومقدماتها في مقاصده ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ، وهذه عقوبة إلهية في الدنيا والآخرة يتولاها ﷻ بقضائه وقدره بين العباد ، حتى لو لم يلتزموا شرعنا ، في إقامة الحدود والحقوق وضيعوها ، فالظالمون – ومنهم الزناة والزواني – لا يفلحون ولا ينجحون في

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٢١٧٠٨) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٠) .

مقاصدهم ، ويبوؤون بالفشل في أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم ، ولذلك يحرص أعداء الإسلام على نشر الفواحش بين المسلمين ، ليَسْهُلَ الطريق عليهم في هزيمة المسلمين ، فهزيمة الأمة أمام شهواتها مقدِّمة لهزيمتها في معارك القتال ، ولقد جرَّب المسلمون عبر التاريخ أثر انتشار الفواحش في مجتمعاتهم ، في تسلط العدو عليهم ، والعكس بالعكس ، فانتشار العفة والطهارة من أسباب النصر والتمكين ، ولننتبه إلى أن آية التمكين هي في سورة النور ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] ، فالفرد والأمة معلقٌ صلاحهم على تجنب الظلم والفواحش ، نسأل الله أن يجنب أمتنا الفواحش والفتن ، وأن ينصرها على عدوها ، آمين .

استعمل يوسف عليه السلام في حواره مع المرأة أنواع التذكير والوعظ عساها ترجع وتنزجر ، ولكن أنَّى لها التذكُّر والاتعاظ ، والقلب خاوٍ من الإيمان وحلاوته ، والعقل محجوب عن رؤية العواقب وخطرها ، والنفسُ الأمارة بالسوء متربعةٌ على عرش القلب ، والشهوةُ مسيطرةٌ في هذه اللحظات الحرجة ، مع إغلاق الأبواب ، والخلوة المحرمة ، والزينة الكاملة ، والمعشوق غايةٌ في الحسن والجمال ، فهذه لحظات يبلغ الضعف الإنساني مداه ، ولذا كان من ينتصر فيها على نفسه وشيطانه في ظل الله عز وجل يوم القيامة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : « وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ ... »[1] الحديث .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١) ، والترمذي (٢٣٩١) ، والنسائي (٥٣٨٠) ، وأحمد (٩٣٧٣) ، ومالك (١٧٧٧) .

فأكد همَّها بـ ﴿ لَقَدْ ﴾ ولم يستثن ، وهمُّها مقترنٌ بأخذ ما تقدر عليه من أسباب ، ولذا كان عزماً تُحاسَبُ عليه ، لأن امتناع الفعل كان لأمرٍ خارجٍ عن إرادتها وقدرتها ، وليس تركاً لأجل الله ﷻ ، والأدلة قاضية بأن الإنسان إذا أراد شيئاً من خيرٍ أو شرٍ ، وعزم عليه ، وأخذ ما يقدر عليه من أسباب ، حُوسِبَ على هذه الإرادة ، كما في قصة أصحاب الجنة : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم : ١٧] أي : ليقطعنّها مصبحين ، ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [القلم : ١٨] ، فَعُوقِبُوا على عزمهم عدم إعطاء المساكين قبل أن يتمكنوا من ذلك ، وفي الحديث الصحيح : « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ » ، فَقُلْتُ : (يَا رَسُولَ الله ، هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ ؟!) ، قَالَ : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ »[1] ، وفي الحديث الصحيح الآخر : « إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ ... » الحديث ، وفيه « وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا ، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلَا يَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ »[2] ، وإنما يتجاوز الله ﷻ عن حديث النَّفس إذا كان بغير عمل – أيِّ عمل – أو كلام ، كقول النبي ﷺ : « إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَنْ مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ »[3] ، فامرأة العزيز نظرت وأحبت ، وأرادت وتزينت ، وراودت وغلَّقت الأبواب ، ودعت وتكلمت ، وجذبت ثم هددت وتوعدت ، ونفذت وعيدها ، فكيف لا تكون ملومة مذمومة على مثل هذا الهَمّ ؟! وأمَّا همُّ يوسف – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – فقد قال تعالى : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ ، وأصح الأقوال فيه – إن شاء الله تعالى – أنه حديث النفس الذي تركه يوسف عليه السلام لله ﷻ – أي خوفاً منه ﷻ – ومن جرَّائه سبحانه ، فهو عليه السلام مُثاب على ذلك ، وهو من الجهاد – جهاد النفس – لله ﷻ الذي تحصل به الهداية ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ

(١) رواه البخاري (٣١ ، ٦٨٧٥) ، ومسلم (٢٨٨٨) .
(٢) رواه ابن ماجة (٤٢٢٨) ، والترمذي (٢٣٢٥) ، وأحمد (١٧٥٦٣) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٤) .
(٣) رواه البخاري (٥٢٦٩) ، ومسلم (١٢٧) واللفظ له .

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، وتأمّل أولاً أن همَّها قد أُكِّدَ ، وهمُّه لم يؤكّد ، وهمُّها كان مقترناً بالأعمال التي ذكرنا ، وهمّه كان مقترناً بالفِرار من المعصية ، والاستعاذة بالله ﷻ ، والتحذير من الظلم ، وهمّها كان بلا استثناء ، وهمّه كان معه الاستثناء ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ ، وهي تُرِكَتْ وَوُكِلَتْ إلى نفسها ، ويوسف عليه السلام عصمه الله ﷻ وصرف عنه السوء والفحشاء ، وهي ذُكِرَتْ بالمراودة والتزين ونفسِها الأمارة بالسوء وخطيئتها ، ويوسف عليه السلام ذُكِرَ بالإخلاص ، فشتّان ما بين الهمّين ، وقد اختلف العلماء هنا اختلافاً كثيراً حول همّه عليه السلام والبرهان الذي رآه .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام ، وقد رُوي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وطائفة من السلف في ذلك ما رواه ابن جرير وغيره والله أعلم ، وقيل : المراد بهمِّه : خطرات حديث النفس ، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق ، ثم أورد البغوي هنا حديث عبد الرزاق عن معمر عن هشام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **قَالَ اللهُ ﷻ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ : (إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا ، فَإِنْ تَرَكَهَا – وَرُبَّمَا قَالَ لَمْ يَعْمَلْ بِهَا – فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، ثُمَّ قَرَأَ** ﷺ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ »[1] ، والحديث مخرج في الصحيحين ، وله ألفاظ كثيرة هذا منها ، وقيل : هَمَّ بضربها ، وقيل : تمنَّاها زوجة ، وقيل :﴿ هَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ أي : فلم يهم بها ، وفي هذا القول نظر من حيث العربية ، حكاه ابن جرير وغيره) أ . هـ . وقد أحسن – رحمه الله – في إعراضه عن ذكر تفاصيل ما رُوِي عن بعض السلف في همّه بها من نحو حَلِّ السراويل وغير ذلك ، مما هو مأخوذ عن أهل الكتاب ، وهُم مولعون بذكر تفاصيل هذه المواقف ، إذ هذا نصيبهم من القَصَصِ ، وهو من أكثر المواضع إثارةً وتشويقاً للنفوس المريضة بالشهوات ، والإنسان يقف في هذا الموقف أمام عظمة القرآن ، وسُمُوِّه عن قصص

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠١) ، ورواه مسلم (١٢٩) ، ورواه الترمذي (٣٠٧٣) بنحوه .

أهل الكتاب ، وعن القَصَصِ البشري ، الحقيقي منه والخيالي ، فإن الناس في هذا المقام ، لو كان هناك حقيقة لوقفوا أمامها طويلاً طويلاً ، للتلذذ بالشهوة سماعاً واستحضاراً ، وفي وسائل إعلامنا المعاصرة مشاهدةً ورؤيةً ، ولو لم تكن هناك حقيقة ، لتخيلوا وزادوا من عند أنفسهم ، وقد صاغ بعض المنحطين الزنادقة منهم قصة يوسف عليه السلام مع تغيير الأسماء هروباً من رقابة الهيئات الدينية ، ومعلوم كيف يكون تركيز القوم على هذه اللحظات ، ومعلوم أن قصصهم كله قائم على تصوير هذه المشاهد ، كتابةً وسماعاً ومشاهدةً ، والعياذ بالله .

وأما أهل الكتاب ، فكأنهم يتلذذون بنسبة النقائص إلى الأنبياء ، ليُبَرِّرُوا بذلك انحرافهم هُم وانحطاطهم ، فإنه إذا كان الأنبياء قد فعلوا الفواحش فلا لَوْمَ إذن على غيرهم ، والعياذ بالله ، يقف الإنسان مبهوراً أمام القرآن العظيم ، الكتاب الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] ، كيف ذكر هذه اللحظات بهذا السُّمُو وهذه الطهارة والفوائد الإيمانية والتوجيهات التربوية المؤدِّبة لعباد الله المؤمنين ، مع الوضوح والتبيين - لمن تأمَّله وتدبَّره - ليظل القلب يرفرف عالياً قريباً من الله تعالى ، لا يَجُرُّه إلى أسفل تخيُّلُ كيفية تحصيل الشهوة ، والعبارات التي توقظ أمراض النفس الأرضية ؟! وأي سُموٍّ تجده أرفع من قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾؟! فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجاً .

وأما ما ذكره ابن كثير من القول إنه هَمَّ بها ليضربها فضعيف ، فإن الله - سبحانه - أخبر أنه صَرَفَ عنه السوء والفحشاء ، وضربُها ليس سوءاً ولا فحشاء في هذا المقام ، والتعليل بأنه من عباد الله المخلصين ، لا يتناسب مع تفسير همِّه بضربها ، وأما قول من قال : لم يهم بها لأنه رأى برهان ربّه فضعيف ، كما ضعّفه ابن كثير - رحمه

الله – من جهة اللغة ، لأن القرآن أثبت همّه أولاً ، ثم ذكر ﴿ لَوْلَآ ﴾ بعد ذلك ، ولو كان الأمر على ما ذكروا لكان الكلام : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ، والآية ليست كذلك ، فالصحيح أن جواب ﴿ لَوْلَآ ﴾ محذوف تقديره (لفعل) ،أي (لولا أن رأى برهان ربه لفعل) ، ولكن صَرَفَ الله ﷻ عنه الفعل – وهو السوء والفحشاء – لأنه من عباد الله المخلصين ، وقد أطنب الشيخ الشنقيطي – رحمه الله – في رد الإسرائيليات المروية في ذلك وأحسن – جزاه الله خيراً – ورجّح أنه لم يهم ، وهذا ليس بصحيح ، بل الصحيح – إن شاء الله تعالى – ما ذكره البغوي – رحمه الله – مائلاً إليه ، من أنه حديث النفس الذي تركه من جرّاء الله ﷻ أي : لأجله سبحانه ، فهو مما يُثاب عليه ويُكتب في الحسنات الكاملة .

وأما برهان ربه الذي رآه : فقد قال ابن كثير – رحمه الله – : (ففيه أيضاً أقوال ، فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك وعمر بن إسحاق وغيرهم : رأى صورة يعقوب عليه السلام عاضّاً على إصبعه بفمه ، وقيل عنه في رواية : فضرب في صدر يوسف عليه السلام ، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه : رأى خيال الملِك ، يعني سيده ، وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاه عن بعضهم : إنما هو خيال (قطفير) سيده حين دنا من الباب ، وروى ابن جرير عن محمد ابن كعب القرظي قال : رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فإذا كتاب في حائط البيت ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، وروى عبد الله بن وهب عن القرظي يقول في البرهان الذي رآه يوسف : ثلاث آيات من كتاب الله ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾ [الانفطار : ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] ، قال نافع سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي وزاد آية رابعة : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً

﴿ وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، وقال الأوزاعي : رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك ، قال ابن جرير : (والصواب أن يقال : إنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان همَّ به ، وجائزٌ أن يكون صورة يعقوب ، وجائزٌ أن يكون صورة الملِك ، وجائزٌ أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك ، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك ، فالصواب أن يُطْلَق كما قال – الله تعالى – ، قال : وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ أي : كما أَرَيْنَاه برهاناً صَرَفَه عما كان فيه ، كذلك نَقِيهِ السوء والفحشاء في جميع أموره ، ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي : المُجْتَبَيْنَ المُطَهَّرِينَ المُخْتَارِينَ المُصْطَفَيْنَ الأخيار – صلوات الله وسلامه عليهم –) أ . هـ .

وما رجحه ابن جرير – رحمه الله – من إطلاق ما أطلقه القرآن من البرهان دون تحديد وأن التحديدات إنما هي من الإسرائيليات التي لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب ولا حاجة بنا إليها **هو الراجح** ، ويكفينا أن الله – سبحانه – قد أخبر أن يوسف عليه السلام رأى دليلاً وآية من عند الله ، لذا أضافها الله عز وجل إلى اسم الربوبية ، وأضاف اسم الربوبية إلى الضمير العائد على يوسف عليه السلام ، للدلالة على رعايته وحفظه عز وجل وتدبيره لأمره ، فقال : ﴿ بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ فالله عز وجل هو الذي أصلحه وحفظه بربوبيته ، وقد بالغ البعض في إنكار ذكر الآيات ، التي ذكر مَنْ ذكر أنه رآها مكتوبة ، وليس المقصود قطعاً نص الآيات بالعربية كما هي في القرآن ، فيوسف عليه السلام لم يكن عربياً ولا يتكلم العربية ، ولكن ما المانع أن تكون معاني الآيات متكررة في الكتب السابقة ، ولها نظائرها مثلاً في صحف إبراهيم عليه السلام ، وليس هذا ترجيحاً منا لهذا القول ، ولكن بياناً لوجه مَنْ قال به ، وأنه في دائرة قول النبي ﷺ : « **حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ** »[1] ، وليس أنه كلامٌ باطلٌ يجب رده مطلقاً ، والراجح كما ذكرنا الاكتفاء بإطلاق القرآن ، فقد رأى يوسف عليه السلام آية ودليلاً أرشده للامتناع عن السوء والفحشاء صَرَفَه الله عز وجل به عن همّه الذي همَّ به ، لأنه من عباده المخلصين ، وقد سبق بيان القراءتين في ذلك وفائدة كل منهما .

(١) رواه البخاري (٣٤٦١) ، وأبو داود (٣٦٦٢) ، والنسائي (٥٨٤٨١) الكبرى .

والذي يظهر - والله أعلم - في لفظ (السوء) : أنه المقدمات المحرَّمة ، وأن الفحشاء : هي الزنى ، لأن السوء هو ما يسوء العبد أو تسوء عاقبته ، فالسيئة سُميت سيئة لأن عاقبتها تسوء العبد ، والفاحشة والفحشاء أي : الفعلة الفحشاء التي تعاظَم قبحها ، فهي في هذا الموطن - بل وفي أكثر المواضع في القرآن - بمعنى الزنى ، وفي بيان القرآن أن الله عز وجل صرف عن يوسف عليه السلام كلا الأمرين - السوءَ والفحشاء - ردٌّ على من زعم أنه فعل شيئاً من المقدمات المحرَّمة للزنى ، وفسر هَمَّ يوسف عليه السلام به ، فالإسرائيليات الواردة في ذلك - من كونه حَلَّ السراويل ، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته - مخالفةٌ لكتاب الله عز وجل فيجب ردَّها ، لأنها بلا شك محرمات ، فهي سيئات ، وقد أخبر الله عز وجل أنه صرف عنه السوء ، فيجب اعتقاد ذلك وأنه لم يفعل ما يسوء ، أي لم يفعل معصية لله عز وجل في مقامه هذا ، وقد تأكد ذلك بقوله تعالى :﴿ **إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ** ﴾ ، وإبليس قد أخبر أنه لا يغوي عباد الله المخلصين فقال :﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ** ﴾ [ص : ٨٢-٨٣] ، وما ذكروه من الغواية ، فيجب نفيه عن يوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ، والله أعلم .



الفـرار من المعصية

قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

شرع يوسف عليه السلام في الهرب من هذا المكان ، الذي حضره شيطان المرأة قطعاً للخلوة المحرمة ، وتخلصاً من هذه المراودة الخطيرة ، والفرار من أماكن السوء ، من أعظم أسباب النجاة من السوء ، ومفارقة أهل الفساد من أعظم أسباب الوقاية من الفساد ، والمكان والصحبة من أخطر أسباب وقوع كثير من الناس في الجرائم والمعاصي ، وهذه هي الفائدة التربوية العظيمة ، لكل شاب يجد من أنواع الشهوات معروضاً أمامه ، بل أحياناً طالباً له مراوداً له عن نفسه ، كمراودة امرأة العزيز ليوسف ، فلابد أن يبتعد عن أماكن الفساد ، ويسابق إلى الباب هروباً وفراراً ، كما فرَّ يوسف عليه السلام بنفسه ودينه ، وأن يفارق أهل المعاصي ولا يصحبهم ، بل يجعلهم وراءه ظهرياً ، ولا ينظر في وجوههم كما فعل يوسف عليه السلام ، فأعطى ظهره للمرأة ، حتى اضطرت أن تشق قميصه من الخلف حين جذبته إليها ، والنظر في وجوه أهل السوء والفحشاء بلاءٌ وعذاب ، حتى ولو كان الإنسان مضطراً كارهاً ، كما في قصة جُريج حين دعت عليه أمه

لَمَّا أهمل إجابتها ، فقالت : (اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ)[1] ، فاستجاب الله ﷻ دعاءها ، فاضطر جُريج إلى النظر في وجه البغي من بغايا بني إسرائيل ، التي أرادت إغواءه فعجزت ، فأمكنت نفسها من راعي الغنم حتى حملت منه سفاحاً ، وولدت وادعت أن جريج هو الذي وقع بها ، فكان نظره إليها لتبرئة نفسه من هذه الجريمة الشنعاء ، وقد برأه الله بإنطاق الصبيّ الرضيع حين قال له : (مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ) ، فقال : (أَبِي الرَّاعِي فُلان) .

فإذا كان عقوبةً للعبد أن ينظر في وجوه أهل الفساد مضطراً كارهاً ، فكيف بمن يُقْبِلُ على ذلك محباً راغباً مختاراً ؟! كما ينظر الناظرون إلى وسائل الإفساد من سينما ومسرح وتلفاز وفيديو ومجلات ، إن هذا النظر يُنبت مرض الشهوة المحرمة في قلب العبد ، وصحبته لهؤلاء - ولو على صفحات المجلات أو شاشات السينما والتلفاز - لهو من أعظم أسباب مواقعة الفواحش ، فاستبق - أيها الشاب - إلى الباب خارجاً عن هذه الأماكن ، واجعل أهلها وراءك ظهرياً ، ولو جذبوك من قميصك ، وانْجُ بنفسك كما نجا يوسف ﷺ ، وفِرَّ منهم فرارك من الأسد ، فهُم والله شرٌ من المجذوم ، الذي أمرك نبيك ﷺ أن « فِرَّ مِنْ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنْ الْأَسَدِ »[2] .

وتأمل في جذب المرأة قميص يوسف من خلفه ، حتى قدّته - أي : شقته وقطعته - ، تحاول شَدّه إليها لتنال الشهوة المحرمة ، كيف أعمتها الشهوة إلى هذا الحد من الطلب ، مع أن فطرة المرأة تأبى مثل هذا لو كانت سوية ؟ ولكن كما قيل : حُبك الشيء يُعمِي ويصم ، وتمزيق القميص دليل على أنها جذبة شديدة جداً ، فقد فقدت المرأة صوابها ، وغاب عنها عقلها ، بل وحسها ، فإن زوجها قد كان بالباب ، ولا شك أن دخول عزيز مصر إلى قصره ، يكون معه الجلبة المعهودة في دخول العظماء والكبراء إلى قصورهم ، ومع ذلك لم تشعر بشيء من مقدمات وصوله ، لأن

---

(١) رواه البخاري (٢٤٨٢) ، ومسلم (٢٥٥٠) ، وأحمد (٨٠١٠) .
(٢) رواه البخاري (٥٧٠٧) ، وأحمد (٩٤٢٩) .

الشهوة كانت مسيطرة .

فعلى العاقل أن لا يترك نفسه إلى هذا الحد ، الذي يزول معه العقل والحس ، ويرتكب ما يُخالف الفطرة السوية ، والحقُّ أن العشق داءٌ عضال ، يوصل إلى هذا الخلل ، وعلاجه إنما هو بمنع مقدماته ، التي أولها النظر ، ثم الخواطر ، ثم الكلام ، ثم الخلوة ، ثم ما بعد ذلك ، فإن مَنْع المقدمات والخواطر أيسر بكثير من مَنْع ما بعدها ، فإن هذا الداء أشبه بفرَسٍ يَرْكُضُها صاحبها ، أو إن شئت مثلاً من واقع حياتنا ، سيارة يحركها قائدها من سكونها ، وهي في أول حركتها وبطء سيرها ، يستطيع استعمال (الفرامل) بسهولة فتقف ، أما إذا أجراها على أقصى سرعتها ، ثم أراد أن يوقفها فجأة ، لم يستطع ولم تقف ، وربما انقلبت رأساً على عقب .

فالعشق فناء - باصطلاح الصوفية - يفنى فيه عقل العاشق وعواطفه الأخرى ، وربما غاب عنه حسه كما غاب عن هذه المرأة ، وهي لا تشعر بمدى قوة جذبها ليوسف ، ولا تشعر بأصوات ومقدمات دخول زوجها ، وكما حصل أيضاً للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ، غاب عنهن حسهن بأنفسهن حين نظرن إلى يوسف عليه السلام ، فقطعن أيديهن ، وقَلَّما يفيق العاشق من عشقه ، إلا أن يتداركه الله عز وجل برحمته ، والمقصود أن علاج البدايات أيسر من علاج النهايات ، والله المستعان .

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ** ﴾ ، سمى الزوج سيداً لعظيم حقه على المرأة كما قال رسول الله ﷺ « **لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا** » [1] ، كما أن المرأة أسيرةٌ رقيقةٌ عند الرجلِ ، كما قال النبي ﷺ : « **اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ** » [2] أي : أسيرات ، فلابد أن تقابل المرأة زوجها بهذا القدر من الاحترام والتوقير ؛ ليظل البيت مستقراً مطمئناً على الفطرة .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (١١٥٩) ، وابن ماجة (١٨٥٢) ، وأحمد (١٢٢٠٣) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٤) .

(٢) حسن : رواه الترمذي (١١٦٣) ، وابن ماجة (١٨٥١) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨٠) .

ذهلت المرأة عن وجود زوجها ، وهي التي غلّقت الأبواب ، وفوجئ الزوج بالمنظر ؛ قميص يوسف عليه السلام ممزق ، والمرأة في زينتها ، إذن في الأمر خطر ، وهناك مقاومة وعنف من أحد الطرفين ، وبسرعة ضحت المرأة الظالمة بحبها ، وذبحت عشقها ، حفظاً لجاهها عند زوجها ، ثم عند مجتمعها ، تلك الطبقة المترفة الماجنة ، ما أقبح هذا الحب الكاذب ! إنما هو إرادة دنيئة ، لنيل الشهوة المحرمة ، إرضاءً لحاجة الجسد الهائج ، والنفس الأمارة بالسوء ، التي في الحقيقة لا تحب إلا نفسها وذاتها ، لو كان هذا حباً حقيقياً ، لما ضحت به بهذه السهولة ، عند أول مقاومة .

نفس مهينةٌ حقيرةٌ ، تلك هي نفس عاشق الصور - أو عاشقة الصور - والأشكال ، فيها الجبن والهلع والحرص ، والاستعداد للتضحية بالحبيب ، تجد شَبَهًا بين هذه الشخصية المقززة في خسة الموقف ، وبين شخصية الإسرائيلي الذي وَشَىَ بموسى عليه السلام ، ودل على أنه الذي قتل الفرعوني بالأمس نصرةً له ، الجامع بين الشخصيتين : حب النفس وسرعة التلون في المواقف ، المرأة منذ لحظة تقول : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، وتجذبه حتى تمزق قميصه ، ثم في اللحظة التالية تتهمه بمحاولة اغتصابها ، وتسعى إلى أن يُسْجَن أو يُعَذب عذاباً أليماً ، حقاً شخصية منفرة مقززة ، حتى لو كانت ذات جمالٍ ظاهر ، لكنها ذات قبح باطن ، كذبٌ وخيانةٌ وجبنٌ وفجورٌ ، وإرادةٌ منحطةٌ نَجِسَةٌ ، هكذا كل عابد عاشق للصور أو عاشقة ، فالهرب منهم نجاةٌ للعبد في دينه ودنياه .

يوسف عليه السلام المبتلى بالحب الزائف ، يجد نفسه في موضع تهمة ، وهو الأمين على عرض الرجل ، يعرف له فضله ، ولا يجحد له حقه ، يجد نفسه مضطراً إلى الدفاع عن نفسه فيقول : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ ، يقولها بسلامة نية وصدق لهجة ، لكن للأسف هذه الطبقة المترفة ، وهذا المجتمع المتردي في سفالة الإرادات ونجاسة الشهوات ، لا يعترف بسلامة النية ، ولا يعرف فضيلة الصدق ، حتى لو قَبِلَهَا مؤقتاً ، لكن سُرعان ما تطغى المقاييس المادية والضغوط الاجتماعية ، ولذلك نجد أن ما قالته

المرأة من السجن ، هو الذي آل الأمرُ بيوسف عليه السلام إليه – ولا حول ولا قوة إلا بالله – ، على الرغم من الشهادة التي شهدها الشاهد مِن أهلها ، بادئاً باحتمال صدقها وكذبه ، قبل احتمال كذبها وصدقه ، وهو مما يُرَجِّح كونه رجلاً لا طفلاً رضيعاً ، كما ورد بذلك الحديث الضعيف : **أَنَّهُ أَحَدُ أَرْبَعَةٍ تَكَلَّمُوا فِي الْمَهْدِ**[1] ، والسند الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان رجلاً ، والسياق يُرَجِّحُ ذلك كما ذكرنا ، لأن فيه تعاطفاً مع المرأة بذكر صدقها أولاً ، ثم إن التعليل المذكور معقولُ المعنى ليس خرقاً للعادة ، فإن تمزيق القميص من الأمام ، دليلٌ على أنه يحاول الاعتداء عليها ، وهي تدفعه عن نفسها ، وتمزيق القميص من الخلف ، دليلٌ على هروبه منها ، وأنها هي التي تطلبه وتجذبه حتى تمزق قميصه ، والشاهد كان من أهلها ، فليس هناك أدنى محاباة ليوسف عليه السلام ، بل المحاباة لها ، ومع تبين الحق وظهور الصدق ، كانت النتيجة النهائية في هذا المجتمع الجائر ، أن يُسْجَنَ البريء حفاظاً على صورة المجرم أمام الناس ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ ، تيقّن العزيز من صدق يوسف عليه السلام وكَذِبِ زوجته ، برؤية القميص مشقوقاً من الخلف ، فقال لامرأته : ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أي : مكر النسوة وتدبيرهن السيء ، وذلك دليل على عِظَمِ شأنِ النساء في مثل هذا المجتمع المتحلل من المُثُل والمعاني الإيمانية ، القائم على اتباع الشهوات وتعظيمها ، ويبدو أن الرجل قد وقع له من كيد النساء ، ما جعل الأمر عنده قاعدة مستقرة ثابتة ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ، وقد ظن البعض أن الله عز وجل هو الذي استعظم كيد النساء ، والحقُّ أن هذا من كلام العزيز ، وإنما حكاه القرآن عنه ، وليس يَعْظُمُ كيدُ النساء في كل مجتمع ، فالمجتمع المسلم الطاهر النظيف ، الذي لم يُبْنَ على اتباع الشهوات ، يَضْعُفُ فيه مكر النساء وكيدهن ، وإنما يَعْظُمُ كيد النساء وتكون

(1) ضعيف : رواه الحاكم عن أبي هريرة ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٧٥٩) .

لهن الكلمة العليا في المجتمع الجاهل المبني على الشهوات ، لأن المرأة من أعظم الشهوات فيه ، بل إن شئت فقل : مركز الشهوات فيه ، فلابد أن تكون هي الحاكمة على طالبي الشهوة ، وأن يكون الرجال في تمام الاستجابة لطلباتهن ، ولا شك أن هذا من أعظم الضرر على المجتمع بأسره ، فإن النساء ناقصات عقل ودين ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه ، فقال : « **وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنّ** »[1] ، فعلى المؤمن أن لا يغلبه كيد النساء بالخضوع للشهوة ، وليس يلزم من ذلك عدم قبول شيء منهن ، بل الحق يقبل مِنْ كل مَن جاء به كائناً مَن كان ، وقد قَبِلَ النبي ﷺ نصيحة أم سلمة - رضي الله عنها - في الحديبية : « **في أن يَخْرُجَ ولا يُكَلِّمُ أَحَداً منهم حتى يَحْلِقَ رَأسَه ويَنْحَرَ هَدْيَه** »[2] ، ففعل ﷺ ، ففعلوا بعد أن كانوا مُمتنعين ، لكن المقصود أن لا تكون القوامة للنساء ، فهذا هو الخلل والضرر العظيم .

ومع تأكد العزيز من وجود الخلل عند المرأة ، وضعفها أمام شهوتها الجارفة ، وعدم قدرتها على مقاومة نفسها الأمارة بالسوء ، مع شدة جمال يوسف عليه السلام ، وكثرة غيابه وانشغاله عنها ، فقد كان همه الأكبر ليس في إصلاح الخلل ، وتغيير الأوضاع حتى يقطع أسباب الفتنة ، وإنما كان همه عدم انتشار الحديث ، الذي لو حدث وانتشر ، لتعرضت صورة السيد للاهتزاز في أعين الناس ، فكان أمره ليوسف عليه السلام : ﴿ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا** ﴾ أي : لا تذكره لأحد ، فهذا هو الأمر المهم عند هذه الطبقة ، بل عند أكثر الناس (كلام الناس) ، فلو لم يتكلموا فالأمر هين .

ولذلك لم يغير من الأمر شيئاً ، بل سمح أن تكرر الخلوة والمراودة مرات عديدة ، بل ويزيد الأمر مع المراودة تهديداً ووعيداً وضغوطاً شديدة ، ليس من زوجته فقط ، بل من نسوة غيرها كما سيأتي ، ولم يزد على أن طلب من المرأة الاستغفار : ﴿ **وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ** ﴾ ، والحقيقة أن الاستغفار المشروع إنما هو المقرون

---

[1] رواه البخاري (٢٩٨) ، ومسلم (٧٩) ، وأبو داود (٤٦٧٩) .
[2] رواه البخاري (٢٧٣٤) ، وأحمد (١٨٤٤٩) .

بالتوبة ، والتوبة تقتضي ترك المعاصي ومقدماتها ، فالخلوة معصية وهي مقدمة الفاحشة ، والتبرج معصية ، والحديث المحرم معصية ، فبقاء هذه الأمور مستمرة في البيت مع الغياب الدائم للزوج ، لا يكفي معه طلب الاستغفار ، ولكن ظاهر أن الرجل كان فيه نوع دِياثة ، والاستسلام أمام امرأته ، وعدم قدرته على إيقاف رغبتها عند حد ، فردُ الفعل كان ضعيفاً مهيناً ، بل إن شئت فقل : لم يكن هناك رد فعل ، بل عند التأمل نجد أنه قد استجاب لطلبها بسجن يوسف ﷺ ، يبدو أنها أقنعته بأن المصلحة في ذلك أمام الناس ، وفي الحقيقة أنها كانت إنما تعاقب يوسف ﷺ على عدم استجابته ، فقد وضح إذن – على الرغم من أنه يخبرها – أنها كانت من الخاطئين ، إلا أنه مستجيب لطلباتها ولا يستطيع أن يمنعها من المنكر .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (وقد كان لَيِّنَ العَرِيكَةِ سهلاً ، أو أنه عذَرَها لأنها رَأَت ما لا صبرَ لها عليه) أ . هـ . ، والعجب أن يسمي هذا عذراً ، إلا أن هذه النوعية من الرجال التي لا تعظم هذه الحرمة يمكن بالفعل أن ترى في جمال الصورة وقوة الشباب وشدة الشهوة مبرراً للفواحش ، وعذراً في مواقعتها .

وكم تسمع عن آباء وأمهات ، وربما أزواج ، يقولون لمن يقع في الفواحش أو مقدماتها : (أليسوا شباباً ؟ دعوهم يعيشوا أيامهم !! إذا كبروا عقلوا !!) ونحو هذه العبارات ، وكأن الصبر عن الشهوات إنما يُكَلَّفُ به الشيوخ وحدهم ومن ضعفت شهوته ، أمَّا مَن كانت شهوته قوية فمعذور ، والعياذ بالله من رؤية هذا عذراً ، فإن الله ﷻ لم يعذر أحداً في فعل الفواحش ، وإن كان جُرْمُ الشيخ إذا وقع فيها أشد ، لكن ليس الشباب عذراً ولا مبرراً للفواحش بحال من الأحوال ، والتساهل في مثل هذا نوع من الدياثة كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية عن عزيز مصر زوج هذه المرأة ، وقد قال النبي ﷺ : « **لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ دَيُّوثٌ** »[1] ، والديوث هو الذي يُقِرُّ الفُحْشَ على أهله ، فالذي يترك امرأته متبرجة تتزين لغيره من الرجال ، أو تراودهم بفعلها أو قولها

(١) صحيح : رواه النسائي (٢٥٦٢) ، وأحمد (٥٣٤٩) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥٢) .

أو حالها ، وكذا من يترك ابنته أو أخته أو من له سلطان عليها ، فهو فيه هذا القدر من الدياثة ، حتى لو غَلَّفَ حاله بالدعوة إلى الاستغفار والإقرار بالخطيئة .

وفائدة مهمة في هذا الكلام من العزيز ، وهو أن طلب الاستغفار من امرأته دليلٌ على وجود قدر من المعرفة بالله عز وجل ، لأن الاستغفار – وهو طلب المغفرة وذكر الخطيئة – دليلٌ على قدر من المعرفة بالثواب والعقاب ، ويؤكد ذلك قول المرأة في آخر قصتها : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فهو ظاهر الدلالة على وجود قدر من الإيمان والمعرفة ، وإن كنّا لا ندري هل تحقق به أصل الإيمان أم لا ؟ والذي يظهر أن هذا أثر من آثار مخالطة يوسف عليه السلام ، فإنه قد جاءهم بالبينات كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ﴾ [غافر : ٣٤] ، وقد قال يوسف أول ما دعته المرأة إلى نفسها : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ ، ولا شك أن يوسف عليه السلام لابد أن يكون دعاهم إلى الله – سبحانه – ، كيف لا وهو يدعو في السجن ؟ فلا شك أنه يدعو مع التمكين أكثر ، كما قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] ، ويوسف عليه السلام مُمَكَّنٌ من ساعة حضوره إلى قصر العزيز ، الذي قال لامرأته أكرمي مثواه ، كما قال عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، فلا شك أنه دعاهم إلى الله عز وجل ، وبيَّن لهم صفاته ووحدانيته عز وجل ، ومن هنا ظهر الاستغفار ومعرفة الخطيئة ، وتنزيه الله في الكلام مثل : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ ، ومعرفة الملائكة مثل ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وهذا يدلنا على أن الدعوة إلى الله عز وجل لا يجوز أن تتوقف بحال من الأحوال ، أو أن يُنتظر بها كمال التمكين ، فلا شك أن التمكين الأول وهو فتى العزيز ، ليس كالتمكين الثاني وهو على خزائن الأرض ، ولكن أي قدر من التمكين يجب أن يكون معه القدر الممكن من الدعوة إلى الله عز وجل ، وهي تثمر ثمارها حتى في الطبقات الحاكمة

المجتمع ، حتى ولو كان الداعي - في ظنهم - من العبيد الخاضعين لهم ، فالحَقُّ له سلطان وهيبة يقوى به الضعيف ويعز به الذليل ، فبآيات الله يَغلب مَن تمسك بها ومَن تبعه ، وبالإيمان يعلو من حققه ، وبكلام الله ﷻ يُحِقُّ سبحانه الحَقَ ويُعِزُّ أهلَه ، ويُبْطل الباطل ويُذِلُّ أهله .

فلا تضعف أيها الداعي صاحب الحق ، بما معك من آيات الله ﷻ مِن الوحي المُنَزَّل ، حتى ولو كنت مستضعفاً ، فأنت معك السلطان الذي لا يُغْلَبُ ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا** ﴾ [الإسراء : ٨٠] ، وعليك باستغلال كل قَدْرٍ مُتاحٍ مِن التمكين ، للعمل لدين الله ﷻ وإعلاء كلمته ، ولا تُكَلَّفُ إلا وسعك ، وإذا عملت بما تقدر عليه على مكانتك - أي على قدر إمكانك - ، فسوف يُقْدِرُكَ الله على ما لا تقدر عليه ، ويزداد تمكينك في الأرض بإذن الله والقيام بأمره ، كما أن مَن عَمِلَ بما عَلِمَ رزقه الله عِلْمَ ما لم يَعْلَم ، فكذلك من عمل بما قَدَرَ عليه رزقه الله القدرة على ما لا يقدر عليه الآن ، فاستعن بالله ولا تعجز ، وسر فالباب مفتوح ، والقوة لله جميعاً ﴿ **وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [هود : ١٢٣] .



كيد نسائي جديد

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

مجتمع الطبقة المترفة له اهتماماته المعروفة ، مِن تتبُّع أخبار النساء ، خاصة زوجات الكبراء والأمراء ، وقصص الحب والعشق في مركز هذه الاهتمامات ، والأخبار في هذا المجال تنتشر انتشار النار في الهشيم ، وكلام النساء في مجالسهن وعن بعضهن كثير ، وهُنَّ يتنافسن في فضح بعضهن ، والغِيبة والنميمة من الخصائص المعهودة المتكررة لمثل هذه المجتمعات ، يتعجب المرء من وحدة السمات لهذه الطبقات الاجتماعية ، رغم تباعد الأزمنة وتفاوت مظاهر الحياة تفاوتاً هائلاً ، ومع ذلك تجد القرآن كأنه يصف مجتمعاً من مجتمعاتنا اليوم ، التي تدندن حول نوع معين من الحب ، وإذا أُطلِقَ الحب فهم لا يعرفون غيره ، وهو حب الرجل للمرأة والمرأة للرجل ، وغالباً ما يكون المقصود هو

الحب المحرم بغير رابطة الزوجية .

فلو سألك سائل اليوم في مجتمعاتنا عن رأيك في الحب مثلاً ، أو عن حكمه ، لعلمتَ قطعاً أنه إنما يتكلم عن هذا الحب ، فنجدُ اهتمامات هذه الطبقة - طبقة زوجات الأمراء والكبراء - واحدة ، كأنها من لوازم الحياة بهذه الطريقة المترفة ، وهذا الحب عندهم عصب حياتهم ، وأسمى مشاعرهم ، وحُق لهم أن يكون كذلك ، فإن مشاعرهم في الحضيض الأسفل ، وانحرافات الأحاسيس والسلوك وأمراض القلوب والنفوس عندهم هي أعظم انتشاراً ، فيكون هذا الحب المنحط في الحقيقة ، هو الأسمى لدى القلوب المريضة أو الميتة والعياذ بالله ، فهي قلوب لم تَذُق حب الله ﷻ وحب عبادته والقرب منه ، فصارت حاجات الجسد هي الحياة ، والهوى هو الإله المعبود ، قال ﷻ : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٣] ، واللذة الجنسية عندهم **مُقَدَّمَةٌ** على كل اللذات .

ونَقِّلْ طَرَفَكَ في مجتمعات الغرب والشرق ، لِتَجِدَ هذه الحقيقة المُرة ، التي يحيا بها الناس من **أجل** نِصفهم الأسفل ، البطون والفروج ، وتُحْرَمُ الأرواح بالكلية من قوتها وغذائها حتى تموت ، وتخرج من الدنيا ولم تذق حقيقة الحب الذي خُلِقَتْ لأجله ، والذي ينبغي إذا أُطلقت كلمة (الحب) أن تنصرف إليه الأذهان والأفئدة مباشرة ، ألا وهو حب الله -سبحانه- ، والحب فيه ولأجله، ولا شك أن الحُبَّيْن لا يجتمعان ، أعني : حب الله ﷻ والحب المحرم ، فإذا وُجِدَ أحدهما طَرَدَ الآخر ، ونقول عن هذا الحب حبٌّ مُحَرَّمٌ ، لأنه مرتبط دائماً بتجاوز الحدود الشرعية ، فهو لا يحصل- بدون رابطة الزوجية - إلا بالنظر المحرم ، وهو المتكرر المتتابع ، ولو اكتفى بالنظرة الأولى وصرف الفكر والخواطر عما نظر إليه ، لما وقع في شَرَك العشق ، ثم هو لابد وأن يرتبط بمحاولة الحصول على الشهوة بأي طريقة ، ويعجز صاحبه عن إيقافه عند حد ، فيحصل زنى القلب بالتمني والخواطر المستحضرة في أوقات الخلوة ، و زنى اللسان بالكلام ، و زنى العين بالنظر ، و زنى الأذن بالسمع ، و زنى اليد باللمس ، و زنى الرِّجل بالمشي ، و زنى

الفم بالقُبَل ، ويبقى تصديق الفرج أو تكذيبه بالفعل والترك ، كما قال النبي ﷺ : « **كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَى مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَالعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعُ ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الكَلَامُ ، وَاليَدُ زِنَاهَا البَطْشُ ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الخُطَا ، وَالقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى ، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ** »[1] ، وهذا الحب الذي تَمَكَّنَ من القلب ، شغل على الإنسان حياته كلها فأصبح لا يعرف لها معنى ، ولا يدرك لها غاية إلا بنيل الشهوة من المحبوب ، فتضيع عبودية الله ﷻ ، بل لو كان العشق بين رجل وامرأة في الحلال ، قد تجاوز الحد حتى تعلق القلب بها – أو به – ، حتى يكون أشد حباً من حب الله لكان حباً محرماً ، لقول النبي ﷺ : « **ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ** »[2] ، وقال ﷻ : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ** ﴾ [التوبة : ٢٤] ، فكيف إذا كان حُباً من غير نكاح ، ولا شك أن النكاح الحلال في هذه الحالة ، هو أفضل وسائل العلاج لقول النبي ﷺ : « **لَمْ نَرَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلَ النِّكَاحِ** »[3] ، لكن لابد من تقويم المشاعر ، وتصحيح أحوال القلوب ، حتى لا تتعطل بسبب هذا الحب عن أعظم ما خُلِقَتْ من أجله ، وأعظم ما تتنعم به ، وهو حب الله ﷻ ، والمؤمن الحق متوازن في مشاعره ، ليس جافاً غليظ القلب لا يعرف الود والرحمة ، ولا هائماً سكران قد فَرَّغَ فؤاده لمحبوبٍ مخلوق ، لكنه متوازن الأحاسيس يحقق قول الله ﷻ : ﴿ **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ**

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣ ، ٦٦١٢) ، ومسلم (٢٦٥٧) ، وأبو داود (٥١٥٢) ، وأحمد (٧٦٦٢) .

(٢) رواه البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) ، والترمذي (٢٦٢٤) ، والنسائي (٤٩٨٧) ، وابن ماجة (٤٠٣٣) ، وأحمد (١١٥٩١) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة (١٨٤٧) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٠) .

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم : ٢١] ، ويملأ قلبَه حبُّ إلهه ومولاه الحق - سبحانه وبحمده - ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، فلا يغلب على قلبه حب لا يستغني عنه لحظة ولا طرفة عين ، إلا حب ربه وإلهه ومعبوده ﷻ ، ولا يقع في الحب المحرم الذي يؤدي إلى ترك الواجب أو فعل الحرام ، وقد يصل هذا الحب المحرم أحياناً إلى الكفر ، والعياذ بالله ، إذا أدى به إلى أن يبيع دينه وإيمانه من أجله ، فهذا عبدُ الهوى ، فمن أحب مخلوقاً بحيث لو أمره بالكفر لكفر ، كان حبه شركياً مُخْرِجَاً له عن الملة ، ولو كان بحيث لو أمره بالمعصية لعصى ، كان حباً محرماً ، وإن كان لأهله وزوجته - أو زوجها - من غير أن يشغله أو يغلب على قلبه ، أو يُبعده عن حب ربه وطاعته ، كان حباً مباحاً ، وربما صار عبادة بالنية الصالحة من طلب العفة والإعفاف للغير ، وغير ذلك من النيات الصالحة .

والمقصود **أن** النسوة في المجتمع المصري القديم ، قد تحدثن كثيراً في مجالس الغِيبة والنميمة **والفسوق** والعصيان - فيما يشبه ما تصنعه مجلات الفن والفنانات وملتقياتهم في زماننا - **تحدثن** عن حب امرأة العزيز لفتاها يوسف ، ومراودتها له عن نفسه ، ووصفن **حبها بأنه** قد بلغ شغاف القلب ، وقالوا ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ ، والشغاف : هو الغلاف الذي على القلب ، ويقصد بهذا اللفظ شدة المحبة المتخللة للقلب ، وجزمت النسوة بأنها في ضلال مبين ، وما ذاك عندهن لأن هذا الحب مذموم عندهن ، بل كلهن يبحثن عنه ويطلبنه ، ولكن المشكلة لديهن في التفاوت الاجتماعي ، فهي تراود ﴿ فَتَنٰهَا﴾ عبدها ، فلو كانت المراودة لرجل (كبير في القوم) لكان أمراً عادياً مقبولاً عند هذه النوعية ، فالضلال الواضح عندهن أنها تراود فتاها ، الذي لا يتناسب مع الوضع الاجتماعي له أن تقع منها هذه المراودة ، والذي يظهر أن كلام النسوة إنما كان كيداً ومكراً ، يُردن التوصل به إلى رؤية هذا الفتى العبراني فائق الجمال ، كما قال ابن إسحاق - رحمه الله - : (بَلَغَهُنَّ حسنُ يوسف ﷺ ، فأحببن أن يَرَيْنَه ، فَقُلْنَ ذلك

ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته) أ.هـ . [1]

فهُنَّ يُظْهِرن تضليل امرأة العزيز في حبها ليوسف ﷺ ، للتفاوت الاجتماعي ، ويُضْمرن تمني رؤية يوسف ﷺ ، لأن حاجة الجسد في الحقيقة ، لا تعرف هذه الفروق الطبقية والفواصل الاجتماعية ، وليس عندهن من نور الإيمان وبصيرة التقوى ، ما يحجز عن تمني الحرام ولا فِعله ، بدليل أنهن كلهن صار لهن كيد بيوسف ﷺ بعد رؤيته ، بل ومراودة صريحة ، كما قال تعالى عن الملك في آخر الأمر : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، فهو صريح في اشتراكهن في المراودة ، وقال يوسف ﷺ : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ ، فلم يعد كيد امرأة العزيز وحدها بل ﴿ كَيْدَهُنَّ ﴾ ، ولم يعد المطلوب أن يميل إلى امرأة العزيز وحدها ، بل أن (يصبو إليهن) جميعاً ، فَدَلَّ ذلك على أن الغرض عندهن كان الوصول إلى التمتع بالصورة ، وتحصيل حاجة الجسد الدنيئة المنحطة ، ولو في الحرام ، والعياذ بالله .

سمعت امرأة العزيز بمكرهن بها ، وعَلِمَتْ حقيقة رغبتهن ، وعلمت – قبل ذلك – أنهن مثلها في قلة الصبر على مثل هذا الجمال الباهر ، لأنها تعلم طبيعة نساء طبقتها وطريقة تفكيرهن ، فأعدت لهن مجلساً فيه الأرائك والمَخَادُّ والوسائد ، وأعدت فيه أنواع الفواكه التي تُقطع بالسكاكين ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، تريد أن توقع بهن إذا رأين يوسف ﷺ ، لشدة الفناء في حب الصور عندهن ، ثم قالت ليوسف : ﴿ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ ، فمِن وَقْعِ المفاجأة بالجمال المبهر – وهُن بلا وقاية إيمانية ولا حصانة من تقوى الله ﷻ – جعلن ينظرن إلى من أوتي شطر الحسن ﷺ ، ويُكررن النظر حتى حصل لهن سكر تام ، وذهاب الإِحساس بالنفس بالكلية ، فجعلن يُقطعن أيديهن كأنهن يُقطعن الفاكهة التي أُعدت لهن ، دَهَشاً من رؤية يوسف ﷺ ، قال زيد ابن

---

(١) ويؤيد هذا المعنى قول النبي ﷺ لنسائه في شأن إمامة أبي بكر للناس في مرض موته ﷺ ، حين قالت عائشة : إن أبا بكر رجل أسيف – أي كثير البكاء – فقال ﷺ : « إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِ بِالنَّاسِ » أي : تُشبهن صواحب يوسف في إظهار شيء وإضمار غيره ، إذ أضمرت عائشة كراهة أن يبغض الناس أباها إذا قام مقام النبي ﷺ ، وأظهرت أنها تحرص على سماع الناس القراءة ، حديث متفق عليه .

أسلم : (إنها قالت لهن بعد ما أكلن ، وطابت أنفسهن ، ثم وضعت بين أيديهن أُتْرُجّاً ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، قالت : هل لكن في النظر إلى يوسف ؟ ، قلن : نعم ، فبعثت إليه تأمره أن يخرج عليهن ، فلما رأينه جعلن يُقطعن أيديهن ، ثم أمرته أن يرجع لِيَرَيْنَه مُقْبِلاً ومُدْبِراً ، فرجع وهن يحززن في أيديهن ، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن ، فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا ، فكيف أُلام أنا ؟!) أ . هـ . نقلاً عن ابن كثير – رحمه الله – .

وفي ما فعلت النسوة دليلٌ على مدى ما تصنعه الشهوة بعقل الإنسان وقلبه وإحساسه ، فكما غاب عن امرأة العزيز حِسها ، بمقدمات دخول زوجها ، وغاب عنها إدراكها ، بما ينبغي أن يكون فيه مقامها حتى شقت قميص يوسف ﷺ ، كذلك غاب عن النسوة إدراكهن بالألم ابتداءً ، من شدة الانبهار بجمال يوسف ﷺ ، فيحصل للإنسان نوع من السُكْر كما قال تعالى عن قوم لوط ﷺ : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] ، فإذا كان يمكن أن تصل الشهوة المحرمة بالإنسان إلى هذا الحال ، فبالأولى يمكن أن يصل الحب الحقيقي الذي فُطِرَ القلب عليه ، بل خُلِقَ له أصلاً وجُعِلَ محلاً له – أعني حب الله سبحانه والشوق إليه – يمكن أن يؤدي إلى زوال شعور الإنسان بألم البدن عند الانشغال في العبادة والذكر ، كما كان النبي ﷺ يقوم حتى تَرِمُ قدماه وتتفطر قدماه ، ويقول : « **أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا** »[1] ، وكان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يصلي وأتاه حجر من حجارة المنجنيق المحماة ، التي كان يلقيها الحجاج عليه أثناء الحصار بمكة ، فأحرق بعض ثوبه فلم ينفتل من صلاته ولم يلتفت ، ولما أراد الأطباء قطع رجل عروة بن الزبير رضي الله عنه ، وأرادوا سقيه دواء يزول به عقله أَبَىَ ، وقال : دعوني أصلي ، فإذا دخلتُ في الصلاة ، فاقطعوها ، ففعلوا .

فهذا وأمثاله لا تستبعده ، فليس ببعيدٍ انشغال الإنسان بأمر يشغله عن غيره بلا

(١) رواه البخاري (١١٣٠) ، ومسلم (٢٨١٩) ، والترمذي (٤١٢) ، والنسائي (١٦٤٤) ، وابن ماجة (١٤١٩) ، وأحمد (١٧٧٣٣) المسند .

شك ، وتتفاوت درجات الانشغال تفاوتاً عظيماً ، وليس المقصود من هذا مدح مقام الفناء الذي يُدندن حوله كثير من الصوفية ، لأن الممدوح من ذلك فناء مخصوص ، وهو الذهول عن كل ما يشغل عن الله ﷻ، والفناء عن إرادة ما سوى الله وما يحبه ويرضاه .

وأما الفناء عن الشعور بوجود النفس والعالم وأفعال الخلق وغير ذلك ، فأين في الكتاب والسنة مدح ذلك ؟! وأقصى ما يقال في ذلك : أن صاحبه معذور لقوة الوارد وضعف المورود عليه ، وليس هذا الفناء بمقام محمود ، أو منزل من منازل الصراط المستقيم ، بل هو حال ناقص قد يعرض للبعض ، فيعذر فيه أو لا يعذر ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾أي : عظّمنه ، أي : أعظمن شأنه ووقع في قلوبهن هيبةٌ له وإجلال ، والله – سبحانه – يُكرم عباده الصالحين بما شاء ، فيلقى في قلوب الخلق تعظيمهم ومحبتهم وتقديرهم ، حتى لو آذوهم ، لما يريد سبحانه من حفظ أوليائه ، وإقامة الحجة بهم على خلقه ، وقولهن : ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾قال مجاهد وغيره : (معاذ الله) ، وهذه الكلمة تستعمل بمعنى التسبيح والتنزيه لله ﷻعن النقص والسوء ، ولا شك أن ذكر الله بالتنزيه ، وذكر المَلَك الكريم من النسوة ، دليلٌ على انتشار العقائد الإيمانية في وسط المجتمع المصري في ذلك الوقت ، وإن كان لا يلزم أن أكثر الناس قبلوها ، لكن الذي يظهر – والله أعلم – أن ذلك أثر من آثار وجود يوسف عليه السلامبينهم ، وحالهم إجمالاً وُصِف في القرآن بأوصاف أقل سوءاً من أوصاف فرعون ومَلَئِهِ ، من ذلك ما ذكرنا من قبل من ذكر الاستغفار ، وهنا التنزيه لله ﷻ، وذكر الملائكة بالوصف الكريم ، ثم ذكر النفس الأمارة بالسوء ، وذكر الرب بالمغفرة والرحمة في قول امرأة العزيز : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وذكر المَلِك بوصف المَلِك لا الفرعون ، فإن (فرعون) هو وصفٌ لكل ملكَ مِصر كافراً ، فقد يكون في هذه إشارة إلى ما قال مجاهد : أن الملك الكبير كان مسلماً ، وهذا ليس بمستبعد مع تعظيمه ليوسف عليه السلاموطاعته لأمره ، وقد ذهب بعض الأفاضل لأجل هذا أن يقول : (إن هؤلاء ليسوا من المصريين القدماء الفراعنة ، بل

إنهم من الهكسوس الذين ذُكر في التاريخ أنهم احتلوا مصر مدة من الزمن) . وهذا ليس بظاهر ، بل الظاهر أنهم أهل مصر القدماء المعروفون ، لقول الله – تعالى – عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولاً ﴾ [غافر : ٣٤] ، وهذه الآية دليلٌ على عدم استجابتهم – في الجملة – لدعوة يوسف ﷺ ولا يمنع أن يكون بعضهم ، بل وحتى بعض الملوك قد أسلم ، فإن العبرة بالأعم والأغلب ، فهؤلاء كانوا في شك مما جاءهم به يوسف ﷺ من البينات ، ورغم أن النسوة قد نزهن الله – سبحانه – ، إلا أن ذلك لا يمنع من استمرار الكيد والمكر لِنَيْل الفاحشة ، فلا تغتر لمجرد صدور كلمات طيبة من البعض ، أو وجود ذكر الله – سبحانه – ، أو بعض المعرفة بالأسماء والصفات وبعض أمور الدين ، فالالتزام أمر وراء ذلك ، وإنما هو عِلْمٌ وعمل وسلوك ، وكم ترى في زماننا من فاجرٍ أثيم ، يمسك المسبحة ويدندن ببعض كلمات الذكر ، وهو على عُتُوِّهِ وفجوره ، بل ربما سمعنا في زماننا عن حج الراقصة الفلانية ، ونفقة الفنانة الفلانية للفقراء ، وحضور الظالم العاتي الفلاني مجالس الذكر ، وسماعه كلمات الوعظ ، ومواظبة المجرم المعتدي الفلاني على صوم الإثنين والخميس أو صلاة الضحى ، وهم في ذلك كله مواظبون مستمرون على فسادهم ، فهو من جنس ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ التي بدأ النسوة بها كلامهن ، في كل مرة ورد في القرآن ذكر كلامهن ، هنا وعند سؤال الملك لهن عند مراودتهن ليوسف ﷺ ، وقبول عذر امرأة العزيز غير المقبول عند الله – سبحانه – ، وإنما هو مقبول عند الجاهلين ، وهذا وأضعافه من الانفصال بين معاني الإيمان والمعرفة والذكر ، وبين حقائق العمل والسلوك ، هذا الانفصال المدمر المحبط لأنواع كثيرة من الخير ، هذا الانفصال الذي لو تقرر في النفوس – كما يزعمون « هذه نقرة ، وهذه نقرة » – ربما أدى إلى استحلال المعاصي وإباء امتثال الشريعة – والعياذ بالله – بزعم أن الشرع له مجاله ، والحياة لها مجالها ، فيزول الإيمان بالكلية ، ويحصل الكفر والعياذ بالله ، فعند القوم (ليس كل ما يُحَرَّم يُجَرَّم) ، وهذه زندقة ونفاق

أكبر لا يبقى معه أصل الدين ، وقد لا يصل الأمر إلى الاستحلال ، لكن يبقى الإصرار والتكرار ، وهو وإن لم يحبط أصل الإيمان ، إلا أن صاحبه على خطر عظيم ، ويكفي فيه أنه لا صغيرة مع الإصرار ، كما قال ابن عباس رضي الله عنه ، فلا يَغْتَرَّنَّ أحد ببعض مظاهر الطاعة والذكر ، وإن كانت خيراً في نفسها بلا شك ، وأفضل من عدمها ، لكنها ليست علامة على النجاة ، ولا كافية في تحصيل النجاة على أي حال .

وقول النسوة : ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا ﴾ ، مبالغة منهن في وصف جمال يوسف عليه السلام ، وأنه لا يحصل في البشر ، وإنما يُتَصور - في ظنهن - في الملائكة الكرام ، لأن الإنسان وإن كان لا يرى الملائكة ، إلا إنه يعلم كرمهم وحُسن خلقتهم ، فهو يتصور صورتهم في أحسن صورة ، تفوق ما يُعلم عن جمال البشر ، وقرأ بعضهم ﴿ ما هذا بِشِراً ﴾ أي : بمشترًى شراء ، وهذا بعيد لمخالفته رسم المصحف .

هنا اعترفت امرأة العزيز ، وجهرت بفضيحتها أمام قريناتها فقالت : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ ، وقد يتعجب المرء من هذه الجرأة وقلة الحياء ، أن تقول أمام يوسف عليه السلام وأمام النسوة مؤكدة ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، ولربما استحيت المرأة العفيفة أن تراود زوجها ، فضلاً عن أن تقول أمام غيرها وخصوصاً النساء أنها تراود الرجل عن نفسه ، فكيف بمراودة في الحرام ؟!

كيف يضيع الحياء إلى هذا الحد ؟! لكنها البيئة الدنيئة التي لا تعرف إلا الشهوات ، وتقدسها وتقدمها وتعظمها ، فأهل الفساد مع بعضهم يجهرون بمنكراتهم ، وهذه معصية إضافية على معصية الفساد نفسه ، كما قال تعالى عن لوط عليه السلام في إنكاره على قومه : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل : ٥٤] ، وقال : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] ، فالفاحشة عظيمة ، وأعظم منها أنهم يأتونها في ناديهم ومجتمعهم ، أمام بعضهم وهم يبصرون ،

مثل أهل الفواحش في زماننا ، فهم لم يكتفوا بفعلهم الفواحش ، حتى صوروا أنفسهم في أفلام السينما والتليفزيون والفيديو ، وعلى صفحات الجرائد لكي يراهم الناس ، ليس فقط في نواديهم بالعشرات ، بل يراهم العالم كله بالملايين ، أي انتكاس في الفطرة يمكن أن يصل إليه الإنسان باتباع الشهوة ؟! بل إن الأمر قد يزداد ويصل إلى المفاخرة بالإثم وفعل الفاحشة ، وهذا أغلظ في العقوبة ، وقد قال النبي ﷺ « **كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ ، وَإِنَّ مِنْ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، فَيَقُولَ : يَا فُلَانُ ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ** » (١) ، فكيف بالمفاخرين ؟ وإن كان لزاماً علينا أن نفرق هنا أيضاً بين هذا الافتخار ، وبين الاستحلال ، فإن البعض جعل مجرد فعل الفواحش - تباهياً بذلك في مجالس الفسوق - كفراً ناقلاً عن الملة بزعم أنه استحلال ، وليس كذلك ، فهو نوع غليظ من المجاهرة والاستخفاف بالمحرمات ، وإنما الاستحلال اعتقاد حِلِّ المعصية ، أو إباء قبول الشرع والانقياد له ، أما ذكر المعاصي تباهياً ، فهي معصية إضافية تقترب بصاحبها من خطر الاستحلال ، ويُخشى عليه من الوقوع في الكفر ، فإن المعاصي بريد الكفر ، فكيف بالمجاهرة ؟! وكيف بالمفاخرة ؟! ولا أعلم أحداً من أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، جعل ذكر العصاة لمعاصيهم أمام بعضهم على سبيل التباهي بها استحلالاً ناقلاً عن الملة ، والله أعلم .

وتأمل في عاقبة قول امرأة العزيز - مجاهرة بفجورها هنا أمام النسوة ، ثم في ذلها وهوانها في اعترافها بفضيحتها أمام الملك ومَلَئِهِ والنسوة أيضاً بعد سنوات - وهي تقول : ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ ، والله إنه لذل عظيم أن تضطر المرأة أن تقول بحضرة الرجال والنساء والملأ : إنها راودت الرجل عن نفسه ، وإنها تسببت في سجنه ظلماً وعدواناً ، لكنها عاقبة المعصية وشؤمها ، وعدل الله - سبحانه - في خلقه .

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .

وانظر في عز يوسف عليه السلام كيف كان : ﴿ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ ... في هذا المقام ، جريمَةً يُتَوَعَدُ عليها بالسجن والصَغَار ، ثم صار بعد سنوات سبباً للنصر والتمكين ؟! فالعز كل العز في طاعة الله ﷻ ، والذل كل الذل في معصية الله ﷻ ، أبى اللهُ إلا أن يُذِلَ مَن عصاه ، فَهُمْ والله وإن هَمْلَجَتْ بهم البِغال ، وطَقْطَقَتْ بهم البراذين ، أو قُلْ في زماننا : هُمْ والله وإن سارَت بهم المواكب ، وتعالَتْ لهم الهتافات ، وارْتَفَعَت لهم بالمديح والثناءِ الأصواتُ ، إنَّ ذلَّ المعصية لفي رقابهم ، كما قال الحسن البصري – رحمه الله – ، قال الله – تعالى – : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

انظر كيف بارَ مَكْرُ امرأةِ العزيز ، أرادت سجن يوسف عليه السلام ، فكان خطوة إلى السِعة والتمكين التي لا سِعة بعدها ، وأرادت أن يكون من الصاغرين ، فأذلها الله هي ، وجعلها من الصاغرين أعظم الصَغار ، وإذا رأيت هذا فتذكر دائماً – إذا رغبت في معصية الله ، وترْكِ طاعته – تذكر : ﴿ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ ، فإن طلب العصمة إنما يكون من الله ﷻ ، والاعتصام يكون به ، فهو مُقَلِّبُ القلوب والأبصار ومُصَرِّفها ، فاستعصِمْ بالله ﷻ يُنْجِكَ الله من كيد العبيد .

وما أقبح قول امرأة العزيز : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ !! إنه والله غير مقبول في أي فطرة سليمة ، أو شرع مُتبع ، كيف تكون المعاشرة بأمر ؟! ومِمَن ؟! من المرأة ؟ كيف تكون الرجولة إذن ! فضلاً عن الديانة والتقوى ؟! لو تصورنا استجابة مستجيب لهذا الداعي المُحَرم ، كيف تكون صورته وحاله ؟! يُصبح كالتيس أو الثور المُعَدُ للضراب ، بل والله أحقر وأذل من ذلك ، خاصة أن النسوة الأخريات في الانتظار ، حاش لله أن يستجيب يوسف عليه السلام ، بل مَن هو أدنى من يوسف عليه السلام من عباد الله الصالحين لمثل هذا الداعي ، كما قال النبي ﷺ : « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : الإِمَامُ العَادِلُ ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ ،**

وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمُ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ »[1].

قال ابن كثير – رحمه الله – : (قال بعضهم لما رأين جماله الظاهر ، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تَخْفَى عنهن ، وهي العفة مع هذا الجمال) أ . هـ . وهذا الكلام ضعيف جداً ، فإن هذه النوعية من النساء لا تُعجبهن هذه العفة ، ولا يستحسنّ هذه الصفة ، فهي عندهنّ تخلف ورجعية ، وتزمت وتشدد وتطرف ، فأنى يكون ذلك إخباراً عن الصفات الحسنة الباطنة ؟ بل هو عند القوم جريمة لابد لها من عقاب ، إذا لم تقع منها توبة ورجوع ، ولذا قالت تتوعده : ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾.

قال ابن كثير – رحمه الله – : (فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن ، و ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾أي : من الفاحشة ، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾أي : إن وَكَلْتَني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك ، أنت المُستعان وعليك التُكلان فلا تَكِلْنِي إلى نفسي ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، وذلك أن يوسف عليه السلام عَصَمَه الله عِصمةً عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال ، أنه مع شبابه وجماله وكماله ، تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر ، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك ، خوفاً من الله عز وجل ورجاءً لثوابه) أ . هـ .

وظاهر جداً من الآيات أن النسوة شاركن امرأة العزيز في المراودة ، كما نص على

---

(1) سبق تخريجه ص (٦٨) .

ذلك القرآن في قول الملك للنسوة : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، فهن مراودات مع امرأة العزيز كل واحدة تريد لها دوراً ، والعياذ بالله ، وكذا في قول يوسف عليه السلام : ﴿ يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ ، فهي ليست واحدة فقط تدعو إلى الفحشاء بل جملة النسوة يدعونه ، وكذا في قوله : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ ﴾ فهن كلهن يَكِدْن ، وكذا في قوله : ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي : أميل إليهن ، إذن كلهن كن يَطلبن ويُرِدْنَ يوسف أن يميل إليهن ، ضغط هائل ومحنة شديدة وبلاء عظيم واجهه يوسف عليه السلام بالاعتصام بالله عز وجل والتقوى والصبر ، فكانت العاقبة خير عاقبة ، من التثبيت والتوفيق والإعانة والحفظ ورفع الدرجات ، ثم التمكين في الأرض بفضل الله سبحانه .

قال القرطبي[1] – رحمه الله – : (أُكْرِهَ يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن ، وأقام خمسة أعوام وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريف قَدْرِهِ ، ولو أُكْرِهَ رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعاً ، فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والصحيح أنه إن كان فادحاً فإنه يُسقط عنه إثم الزنى وحدَّه ، وقد قال بعض علمائنا – يعني المالكية – إنه لا يسقط عنه الحد ، وهو ضعيف ، فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين ، ولا يصرفه بين بلاءين ، فإنه من أعظم الحرج في الدين ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]) أ . هـ .

وهذا الذي ذكره القرطبي – رحمه الله – من الخلاف في كون الضرب الفادح إكراهاً على الزنى ، ينبغي أن يُقَيَّد بما إذا كانت المرأة هي المكرِهة الطالبة للفاحشة أو كانت غير معصومة ، أما إذا كانت مُكرَهَة يريدون انتهاك حرمتها بفعل الفاحشة بها من قِبَلِ المكرَه ، فلا ينبغي أن يُختلف في ذلك ، فلربما كان انتهاك العرض أشدَّ من القتل عندها ، وقد قال القرطبي[2] – رحمه الله – : (أجمع العلماء على أن من أُكرِه على قتل غيره ، أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ، ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره ، ويصبر على

(١) القرطبي (٤/٣٤١٦) .
(٢) القرطبي (٥/٣٧٩٩) .

البلاء الذي نزل به ، ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة) أ . هـ .

وهذا الإجماع الذي ذكره في أنه لا يصح الإكراه في انتهاك حرمة البدن بقتل أو جلد أو غيره ، يشمل الزنى واللواط فإنه أغلظ من الجلد بلا شك ، بل ربما - كما ذكرنا - كان أشد على النفوس من القتل ، والجلد يتعلق به حق المجلود ، والزنى يتعلق به حق المزني بها وأهلها من زوج وأب وولد وغيرهم ، وكذا في اللواط ، فلا ينبغي أن يكون في ذلك اختلاف ، والله أعلم . وقال القرطبي أيضاً - رحمه الله - : (واختلف في الزنى ، فقال مطرف وأصبغ وابن الحكم وابن الماجشون : لا يفعل أحد ذلك ، وإن قُتِلَ لم يفعله ، فإن فَعَلَه فهو آثم ويلزمه الحد ، وبه قال أبو ثور والحسن ، قال ابن العربي : الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ، ولا حد عليه خلافاً لمن ألزمه ذلك) أ . هـ .

وهذا الذي صححه ابن العربي هو الصحيح بالقيد الذي ذكرنا من كون المرأة غير معصومة أو هي التي تكرهه ، وذلك لعموم أدلة الإكراه ولقول الله تعالى : ﴿ **وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النور : ٣٣] ، والمرأة والرجل في حكم الزنى سواء خاصة في الإكراه غير الملجيء [1] ، لأنه هو المتصور في حق الرجل ، أما المرأة فيتصور في حقها الإكراه الملجيء باغتصابها رغماً عنها ، وهذا يسقط التكليف بالكلية ، ولا توصف بالزنى لأنها لم تفعل شيئاً ، ويتصور الإكراه غير الملجيء بالضرب والتعذيب ، وهو لا يُسقط التكليف بالكلية لكن يُسقط التحريم والإثم والحد على الصحيح ، وهذا النوع من الإكراه هو سبب نزول الآية ، فإنها نزلت في إكراه عبد الله بن أُبي بن سلول جاريتين

---

(١) الإكراه غير الملجيء المقصود به : الإكراه الذي يبقى معه للمكلف قدرة وإرادة ، وهو يفعل الفعل بإرادته لكنه أراد الفعل تخلصاً من ألم الضرب أو التعذيب أو الحبس ، أو دفعاً لخطر القتل ونحوه .
وأما الملجيء فهو : الذي لا يبقى معه أي قدرة للمكلف بل يصير كالآلة في يد المكرِه ، كمن قُيِّدَ ثم أُلقي على غيره فقتله ، أو قُيِّدَتْ المرأة واغتُصبت وهي عاجزة عن الدفع ، أما إذا عُذبت على أن تسلم نفسها ففعلت ، فهذا غير الملجيء .

له على البغاء بالضرب والتعذيب [1] ، فإذا غفر الله لهن الزنى لهذا الإكراه فالرجل مثل المرأة فيه ، والذي يختلف فيه الرجل عن المرأة هو أن الإكراه الملجيء غير متصور في حق الرجل لأنه لابد أن ينتشر ، ولا ينتشر – أي لا ينتصب ذكره – إلا بالشهوة والإرادة ، ومن هنا قال من قال من العلماء لا يُكْرَه الرجل على الزنى .

قال القرطبي – رحمه الله – : (قال ابن خويزمنداد في أحكامه : اختلف أصحابنا متى أُكْرِه الرجل على الزنى ، فقال بعضهم : عليه الحد لأنه إنما يفعل ذلك باختياره ، وقال بعضهم : لا حد عليه ، قال : وهو الصحيح ، وقال أبو حنيفة : إن أكرهه غير السلطان حُدَّ ، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يُحَدَّ ، ولكن أستحسن أن لا يُحَدَّ ، وخالفه صاحباه فقالا : لا حدَّ عليه في الوجهين – أي سواء أكان السلطان هو المكرِه أم غيره – ولم يراعوا الانتشار ، وقالوا : متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر ، قال ابن المنذر : لا حد عليه ولا فرق بين السلطان في ذلك وغير السلطان) أ . هـ .

والمقصود أن استجابة من يُكرَه على الزنى بالسجن غير مقبول اتفاقا ، وإن كان الخلاف في ما إذا كان الإكراه بالقتل أو التعذيب ، وقد بيّنا ذلك والراجح فيه إن شاء الله تعالى .

وأما قول امرأة العزيز : ﴿ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴾ ، فهو خلل في موازين العزة والصغار ، وما أعظم الخلل لدى عُبَّاد الشهوات والمترفين ، ذلك أن السجن في هذه الحالة هو العز والشرف والكرامة ، والاستجابة لمطلبها الفاجر هو الذل والصغار والهوان والضياع والجهل والحسرات ، ولذا كان الجواب من يوسف عليه السلام واضحاً بلا مساومة ولا تردد : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ ، وتأمل قوله : ﴿ أَحَبُّ ﴾ ، فالسجن في طاعة الله

---

(١) رواه مسلم (٣٠٩٢) .

يكون محبوباً ، والحرية في معصية الله ﷻ تكون مكروهة ، وهي كذلك بلا شك عند كل ذي عقل ولب ، فإن السجن وإن كان حبساً للبدن عن الانطلاق ، إلا إنه إذا كان في سبيل الله كان سبباً لانطلاق الروح من أسر العادات والتقاليد والعلاقات الأرضية كلها ، ليرتبط الإنسان بربه – سبحانه – بعلاقة العبودية على ما يحب المرء أو يكره ، في السراء والضراء في العسر واليسر ، والحرية في المعصية تكون للبدن ، لكن الروح والقلب يكون أسيراً محبوساً في ذل اتباع الهوى ، فالمأسور من أسره هواه ، والمحبوس من حُبس قلبه عن ربه ، فأي الحريتين يختار العاقل ؟ أكثر الخلق من الجاهلين يختارون حرية البدن وحبس الروح ، فلا يسعدون بتلك الحرية ، بل يجدون مِن أنواع الشقاء والنكد ما لا يدرون ما وجهه ولا من أين يأتيهم ، وأهل العلم والإيمان يختارون حرية الروح ولو بحبس البدن الذي سرعان ما يزول أثره ، فالإنسان إذا تعود على نمط معين من الحياة مهما كان قاسياً ، سهُل عليه تحمله ، وسرعان ما تزول حقيقة هذا الحبس أيضاً بأسباب من عند الله ﷻ ، وأعظمها التوفيق للدعاء والتضرع إلى الله – سبحانه – ، فيجمع الله ﷻ لعبده المؤمن كل خير، ويرجع الجاهلون بالصفقة الخاسرة ، نسأل الله أن يفك أسر المأسورين من المسلمين في كل مكان .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يذكر الله ﷻ منته على يوسف ﷺ باستجابة دعائه ، وصرف كيد النسوة الفاجرات وعلى رأسهن امرأة العزيز عنه ، وبيَّنَ سبحانه أن ذلك مُقْتَضَى أسمائه وصفاته ، فهو السميع لدعاء عباده وكلامهم ، العليم بما في قلوبهم وجميع أحوالهم ، وهو ﷻ القريب المجيب يجيب دعاء الداعي إذا دعاه ، وهو الحفي بعباده المؤمنين ، عَوَّدهم الإجابة وأنه لا يُضَيعهم ، بل يختصهم بفضله ، والله ذو الفضل العظيم ، ويجعل مع العسر يسرين ، ثم يجعل بعده يسراً آخر ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥-٦] ، فهذان يسران مع العسر ، وقال ﷻ : ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] ، فهذا يسر بعد العسر ، فأي رحمة أعظم من رحمة أرحم

الراحمين بعباده المؤمنين ؟

كان دخول السجن استجابة دعوة لأنه تضمن صرف الكيد بالمعصية ، كان فيما يبدو للناس صَغاراً ، لكنه في الحقيقة كان عزاً وسبيلاً إلى العز ظاهراً ، كان فيما يبدو للناس ضِيقاً ، فجعله الله سبيلاً إلى السعة ، ومقدمة للتمكين الأتم ، والملك الأعظم ، والتحرر من أسر الرِق بعد التحرر من أسر الهوى والشهوة ، الذي رمى بامرأة العزيز في الذل والهوان ، والحمد لله على قسمته العادلة ونعمته السابغة وفضله العظيم .



قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾

في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ بيان ما

في هذا المجتمع الظالم المعتدي والطبقة الحاكمة الجائرة ، تلك التي تعرف الظالم وتكافئه ، وتعرف المظلوم وتعاقبه ، تظهر لها أدلة براءة البريء وتوقن بأدلة - بل باعتراف - جُرم المُجْرم ، ثم يكون الحكم الجائر هو نفوذ داعي الشهوة وامتثال أوامر النساء ، والمحافظة على ظاهر وجاهة الوجهاء ، ولو على حساب أعراض المظلومين ، قرروا سجن يوسف عليه السلام إيهاماً للعامة أنه هو الذي راود امرأة العزيز ، وأنهم سجنوه لذلك ، ولئلا يشيع ما كان منها في حقه ويبرأ عرضه ، فتفتضح كما قال ذلك السدي - رحمه الله - ، وظنوا أن المصلحة في ذلك ، ولا شك أن التي أوهمتهم بذلك امرأة العزيز لتنتصر لنفسها على إهانة يوسف عليه السلام لها بعدم الاستجابة لطلبها ، وما أقبح هذا الظن ، بل كان مفسدةً محضةً في حقهم جميعاً ، العزيز والمرأة والنسوة ، فالعاقبة - لمن تأمل العواقب - كانت زوال ملك العزيز ووزارته ، وانتقال ذلك إلى يوسف عليه السلام، بل صار يوسف عليه السلام إلى عز أعظم من عز العزيز ، لأن المِلكَ الأكبر كانت طاعته ليوسف عليه السلام وتسليمه أمره وظنه به أعظم بكثير مما كان للعزيز ، والمرأة افتضحت هي والنسوة أعظم فضيحة ، فأي مفسدة أشد من هذا ، فالحمد لله الذي جعل صلاح الدنيا والآخرة في طاعته ورضاه ، وجعل فساد الدنيا والآخرة في معصيته وسخطه .

والسجن من العقوبات القديمة ، وهو عريق في مصر خصوصًا ، فأنت تجد قوم نوح عليه السلام هددوه بالرجم ، وقوم لوط عليه السلام هددوه بالإخراج ، وقوم إبراهيم عليه السلام أرادوا إحراقه ، ولم نسمع بأمة قبل المصريين القدماء تهدد وتعاقب بالسجن ، فسجنوا يوسف عليه السلام ، وقال فرعون لموسى عليه السلام : ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] ، والسجن الطويل عقوبة فظيعة ؛ لذا لم يرد لها ذكر في الحدود الشرعية في الإسلام ، وإنما كان في فترة مؤقتة عقوبة للزواني ، ولم يكن حبساً في سجن بل في البيوت ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٥] ، ونُسِخَ ذلك بالجلد والرجم ، كما قال النبي ﷺ : « خُذُوا

عَنِّي ، خُذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَـهُنَّ سَبِيلًا ، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ »[1] رواه مسلم ، ولم يرد في الإسلام حبس طويل « وإِنَّمَا حَبَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا فِي تُهْمَةٍ ثُمَّ خَلَّى عَنْهُ »[2] ، والظاهر أنها مدة وجيزة كالليالي المعدودة ، واتخذ عمر رضي الله عنه سجناً بمكة ، لكن لم يُعرف عنه قط حبسٌ لمدة طويلة كالسنوات المؤبدة ومدى الحياة ، تلك العقوبات الجائرة التي اخترعها الغرب وجعلها عمدة تشريعاته العقابية الكافرة الظالمة ، ويزعم أنها مراعاةٌ لحقوق الإنسان ، وهي الجائرة على حقوق الإنسان التي شرعها الله ﷻ له ، وهذا السجن غير الشرعي لا يزيد الأمر إلا سوءًا بالنسبة لأهل الإجرام ، ولا يغير سلوكهم بل يزدادون تَفَنُّنًا في الإجرام في داخل السجون ، فتزداد المشاكل وتتعقد الأمور ، ولو أنهم كانوا يفقهون لعلموا أن حدود الشرع هي العقاب والعلاج والشفاء لأمراض الأفراد والمجتمعات .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يُقَدِّرُ الله البلاء ويقدر معه أسباب الفرج ، فالإنسان في دخوله السجن لا يختار مَنْ يدخل معه ، بل كل واحد له قصة في دخوله تختلف عن قصة صاحبه ، لكنْ يقع الاقتران في توقيت الدخول ، فَقَدَّرَ الله – سبحانه – أن يدخل السجنَ مع يوسف عليه السلام مَن يكون سبباً – في يوم من الأيام – في خروجه مِن السجن ووصول خبره للملك حتى يطلبه ويبحث أمره ، ثم يأمر بالإتيان به ويسمع منه ويُعجب به ، ثم يُوَلِّيه خزائن الأرض ، فسبحان من يدبر الأمر بعلمه وحكمته ، وسبحانه يَسَّر ليوسف عليه السلام سبب الفرج والخروج ، يوم الضيق والدخول للسجن ، فقدر دخول فتيين السجن مع يوسف

(١) رواه مسلم (١٦٩٠) ، والترمذي (١٤٣٤) ، وأبو داود (٤٤١٥) ، وابن ماجة (٢٥٥٠) ، وأحمد (١٥٤٨٠) ، والدارمي (٢٣٢٧) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي (١٤١٧) ، والنسائي (٤٨٧٥) ، وأبو داود (٣٦٣٠) ، وأحمد (٥/ ٢) .

عليه السلام ، وأن يرى كل واحد منهما رؤيا يَبحث عن تأويلها ، أحدهم - فيما ذكر قتادة - : ساقي الملك ، والآخر : خبازه ، قال السدي : (كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سَمّهِ في طعامه وشرابه ، وكان يوسف عليه السلام قد اشتُهر في السجن بالجود والأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن السمْت ، وكثرة العبادة - صلوات الله عليه وسلامه - ، ومعرفة التعبير ، والإحسان إلى أهل السجن ، وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم ، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حباً شديداً ، وقالا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً) أ . هـ . نقلاً عن ابن كثير - رحمه الله - .

ويشهد لما ذكره السُدي - رحمه الله - قوله تعالى عن الفتيين : ﴿ **إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ فكل مَن يرى يوسف عليه السلام يلحظ إحسانه وجوده وكرمه وحسن خُلُقِه ، كما قال له إخوته وهم لا يعرفونه : ﴿ **قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ ، فهكذا ينبغي أن يكون المؤمن والداعية خصوصاً حيثما حَلَّ وفي أي وَضْعٍ كان ، فقد رأى الفتيان يوسف عليه السلام من المحسنين وهو معهما مسجون ، ورآه إخوته من المحسنين وهو العزيز في ملكه وسلطانه ، فهو يسع الناس بخُلقه الحسن وسمته وعطفه وشفقته قبل أن يسعهم بعطائه ، بل ولربما كان الجود والإحسان بالكلمة الطيبة أعظم أثراً من الجود بالمال ، ولربما كان عطاء المال مع شُحِ النفس بالخير والشفقة والنصح أو مع المَنِّ والأذى ... يتمنى الآخذ معه رد العطية، ولو كان مكانها كلمة طيبة لكان خيراً له ، فلا تظنن أنك لو كنت فقيراً فلن تستطيع أن تكون محسناً ، بل الجود بالخُلق والإحسان بالمعاملة أعمق أثراً في نفوس الخَلْقِ من عطاء المال والجاه .

ولقد كان يوسف عليه السلام الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم في المحل الأعلى في الكرم والجود في سجنه وفي ملكه ، وعلى الإنسان أن يعلم واجب الوقت ويعمل به ، فقد دخل يوسف عليه السلام السجن فلم يستسلم لِهَم ولا لِحَزَنٍ ولا كثرة فِكْرٍ وحديثٍ في الظلم الذي وقع عليه ، وإنما انشغل بالعبادة ، وهي الإحسان فيما بينه وبين

الله ﷻ ، وانشغل بحُسن معاملة رفقائه في السجن ، والصدق والأمانة وعيادة المرضى والقيام بمواساتهم والتخفيف عنهم وتعبير مناماتهم - وما أكثرها في السجون - وهذا هو الإحسان فيما بينه وبين الناس ، وللعبادة أثر عظيم في تحصيل الإحسان للناس وحبهم وتآلفهم ، فإن الإحسان للخَلق هو ثمرة الإحسان بعبادة الله ﷻ ، لأن القلب يحصل له غنى - لا يُشبهه غنى - بعبودية الله ﷻ ، فيفيض على مَن حوله من آثار هذا الغنى بالله ﷻ ، في كف الأذى عنهم ، وتحمل أذاهم ، والسماحة معهم ، حتى إنهم لو قَصَّروا في حقٍ من حقوقه سامح ولم يستوف حقه جوداً وكرماً وحباً للعطاء ، وكل مَن تقرب إلى الله ﷻ حصل له بمقدار قُربه نصيب من ذلك بحسبه ، وهذا الإحسان بنوعيه أعظم أسباب نجاح الدعوة إلى الله ، والداعي إلى الله ينبغي أن يكون حريصاً على تحصيل الإحسان لتصل دعوته إلى القلوب ، وتحصل محبته في نفوس الخلق ، وذلك أدعى إلى قبول قوله ، فالدعوة بالسلوك مُقَدَّمَةٌ على الدعوة بالكلام ، ولا يمكن أن تنجح دعوة داعٍ لا يحسن عبادة ربه ﷻ ، فكيف يُقْبِلُ الناس على مَن ليس في وجهه نور السجود ، فإن للعبادة نوراً في الوجه ومحبة في قلوب الخلق [1] ، وكذلك كيف يُقْبِلُ الناس على من لا يحسن معاملتهم ويكرمهم ويُشفق عليهم ، حتى لو حَسُن كلامه ، وبَلَغَت خُطبَتُه ، وقوي علمه ، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقد يُهمل كثيرٌ من الدعاة أحد هذين الأمرين في دعوته ، أو كليهما - أعني الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى الخلق - ، فلا تثمر الدعوة ثمرتها في القلوب إذا أهمل أحد هذين الأمرين ، حتى لو كَثُرَ السامعون وأُعْجِبَ بالكلامِ المُعْجَبُون ، إن ثمرة الدعوة إلى الله ﷻ إنما تكون بحسب حال قلب الداعي وامتلائه بحب الله وعبوديته

(١) قال ابن عباس : (إن للحسنة نوراً في القلب ، وضياءً في الوجه ، وقوةً في البدن ، وزيادةً في الرزق ، ومحبةً في قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً في الوجه ، وظلمةً في القلب ، ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضةً في قلوب الخلق) .

والغنى به ، قبل أن تكون بقوة المنطق وبلاغة الألفاظ ، وكان يوسف عليه السلام في ذلك الأسوة الحسنة ، مستغلاً أثر الإحسان إلى الناس بأَسْرِ نفوسهم وحب قلوبهم ... في دعوتهم إلى التوحيد ودين الله عز وجل .

رأى أحد الفتيين – وهو الساقي على ما ذكروا – أنه يعصر عنباً ، وهكذا هي في قراءة ابن مسعود ، ورأى الثاني وهو الخبّاز أنه يحمل فوق رأسه خُبزاً تأكل الطير منه ، وما ذكر عن ابن مسعود أنهما إنما تحالما ليُجَرِّبا على يوسف عليه السلام ليس عليه دليل ، وهو خلاف ظاهر القرآن ، والأكثرون على خلافه ، والرؤى في السجن لها شأن عجيب يعرفه من جرب هذا وشهد وسمع تجربة الآخرين ، فالسجن تجربة فريدة ، وانتقال للروح والبدن ، ومرحلة خاصة في حياة الإنسان ، ومِن رحمة الله بخلقه – مؤمنهم وكافرهم – أنه يؤنس وحشة قلوبهم في السجن بما يرون من رؤى ، كأن الأرواح تقفز بها خارج الجدران الضيقة وتتجاوز حدود المكان إلى أفق الحياة الأوسع ، وكما ذكرنا أن الحرية حريتان والحبس حبسان ، حرية للروح والبدن ، وحبس للروح والبدن ، فلو قَدَرَ الناس على حبس البدن ، فلا يقدرون على حبس الروح ، ومع الإيمان والصدق يكون للرؤى شأن آخر ، مع أن الرؤيا قد يراها كافر ، وتكون صادقة ، لكن مع الإيمان يختلف الشأن ، وفي آخر الزمان لا تكاد تخطئ رؤيا المؤمن الصادق ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ ، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ ، وَمَا كَانَ مِنَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَكْذِبُ** »[1] ، وهذا من الرحمة الخاصة بعباد الله المؤمنين ، وهو سبحانه أرحم الراحمين .

قوله تعالى : ﴿ **قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ**

---

(١) رواه البخاري (٧٠١٧) ، ومسلم (٢٢٦٣) ، والترمذي (٢٢٧٠) ، وأبو داود (٥٠١٩) ، وابن ماجة (٣٩١٧) ، وأحمد (٧٥٨٦) .

مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

فيه أن الداعي إلى الله ﷻ يستغل حاجة الناس إليه في دنياهم ... لدعوتهم إلى الله سبحانه – مِن غير مَنٍ ولا أذى – ، ولكن بكمال الشفقة والبحث عن مصلحة دينهم قبل مصلحة دنياهم ، ويجعل الدنيا مدخلاً للدين ، ويذكر ما علَّمه الله ﷻ إياه ، وما أَقْدَرَه عليه من قضاء حاجات الناس ، مع نسبة الفضل لله ﷻ والنعمة له ﷻ ، وأن هذا الفضل وهذه النعمة إنما هي بسبب فضل أعظم ونعمة أتم هي نعمة اتباع الدين الحق وترك الأديان الباطلة ، فإن هذا الأسلوب مِن أعظم ما يُنَبه القلوب الغافلة ويوقظ الفطرة المستكنة التي سترتها ضلالات الشرك وغطتها غشاوات التقليد الأعمى ، وينبغي أن يُراعَى التقديم والتأخير في هذا المقام ، أعني هل يُقَدِّمُ دعوتهم على قضاء حاجتهم ، أم يُقَدِّمُ قضاء حاجتهم ثم يدعوهم بعد ذلك ، أم يُشارطهم أصلاً فلا يسعى في قضاء حاجتهم إلا إذا استجابوا للحق ، فينبغي أن يُراعِي أحوال الناس ونوعيتهم وشدة حاجتهم والمصلحة والمفسدة في ذلك ، فقد قَدَّمَ يوسف عليه السلام مع صاحبيه في السجن دعوتهم قبل قضاء حاجتهم بتأويلَ الرؤيا ، وأما مع الملك فقدم تأويل الرؤيا مجاناً بل وزادهم ما ينبغي عمله وبشارة إضافية ليست في الرؤيا بالفرج بعد الشدة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وغلام أصحاب الأخدود في قصة أصحاب الأخدود يُشَارِطَ الناس ، ومنهم جليس الملك الأعمى ، فقال له : إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله – تعالى – ، فإن شئت آمنتَ بالله ﷻ ، فدعوتُ الله لك فشفاك ، فآمن بالله ﷻ فشفاه الله – تعالى – ، وهذا والله هو المناسب مع كل منهم ، فإن الملوك والكبراء لو شارطهم الداعية مع عدم شعورهم بشدة الحاجة لربما كان سبباً في رفضهم الدعوة وإظهار العناد وعدم الحاجة

إلى المصلحة الدينية والدنيوية ، بخلاف حاجة المريض المتألم ، الشديد الحاجة مثل من عمي بعد بصره ، فإنه لن يُظْهِر مثل هذا العناد فيناسبه المشارطة ، وأما مثل حاجة سجين إلى تأويل رؤيا ، فهو متشوق متطلع إلى معرفة مآله ووقت خروجه من السجن ، فناسبه أن يُدعى أولاً وهو متشوق ثم تُقْضَى حاجته دون مشارطة .

فالذي فعله يوسف عليه السلام فِقْهٌ عظيم ينبغي على الداعي إلى الله أن يقتدي به فيه ، ويجعل ما أقامه الله عز وجل فيه من مصالح الناس في دنياهم سبباً لإرشادهم لصلاح دينهم وأخراهم ، ولا يقتصر في الدعوة على رسوم معينة وصور خاصة كدرسٍ أو خُطبةٍ أو محاضرةٍ ، بل إن دعوة الناس أثناء قضاء حوائجهم ربما كان أكبر أثراً في نفوسهم من سماع خطبة أو محاضرة فإن الإنسان أسير الإحسان ، وتأمل كيف كان مَنُّ رسولِ الله ﷺ على ثمامة بن أثال – وهو سيد بني حنيفة – من غير فداء ولا حتى مشارطة سبباً في هدايته ، وفي ثلاثة أيام تحول التحول الهائل ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : « **بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ،فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ، فَقَالَ : عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ ، فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ، قَالَ : مَا قُلْتُ لَكَ ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ ، فَقَالَ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ، فَقَالَ : عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ ، فَقَالَ : أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، يَا مُحَمَّدُ وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى ؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ ، قَالَ لَهُ قَائِلٌ : صَبَوْتَ ، قَالَ : لَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلَا وَاللهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ**

حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ »[1] ، هكذا يصنع الإحسان ، وإن الداعي إلى الله ﷻ ليكتسب بكونه في موضع حاجة الناس وبمخالطته لهم في حياتهم ... ما لا يمكن تحصيله بوسائل الدعوة المباشرة .

ولا مانع في هذا المقام أن يذكر الداعي – مع الاجتهاد في تخليص نيته لله سبحانه – ما خصّه الله من فضل وما أنعم عليه من الصفات علماً وعملاً ، لِيُرَغِّب الناس فيه وفي دعوته ، ليس لحظ النفس والوجاهة في قلوب الخلق ، بل حباً لانقيادهم للحق ، وحرصاً على إقبالهم على العلم ، ورغبةً في استجابتهم للدعوة ، كما قال يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ أي : في المنام كما قال مجاهد والسدي ، ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ ، فذكر ما خَصّه الله ﷻ من علم تأويل الحديث ، وكذا قال للمَلِك : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، ومن هذا الباب – أعني ذِكر ما خصّه الله به من الفضل والإنعام والصفات الطيبة – قول عائشة – رضي الله عنها – لمن سألها عن بعض شأن رسول الله ﷺ : « عَلَى الخَبِيرِ سَقَطْتَ »[2] ، وقول ابن مسعود ﷺ : (وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا مِنْ كِتَابِ الله سُورَةٌ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ حَيْثُ نَزَلَتْ ، وَمَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا هُوَ أَعْلَمُ بِكِتَابِ الله مِنِّي تَبْلُغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ)[3] ، ونحو هذا مما ليس من باب تزكية النفس المذمومة ، بل من باب الدلالة على الخير والحرص على انتفاع الناس بما عنده ، ومن هذا الباب جاز لأصحاب المِهَن والصناعات أن يذكروا للناس ويكتبوا على أبوابهم الأنواع التي يُتقنون صنعها ، ويمدحوا صناعتهم وخبرتهم ، وكذا ذكر الشهادات التي حصلوا عليها ، ولكن كما ذكرنا لابد من بذل الجهد في تخليص النية فإنه مقام تَزِلُّ فيه الأقدام ، والفرق بين الحق المأذون فيه والمأمور به ، وبين الباطل المنهي عنه من الفخر والخيلاء والعُجب أدق من الشعرة وأحد من السيف ، والله المستعان ، وهو

(١) رواه البخاري (٤٣٧٢) ، ومسلم (١٧٦٤) .

(٢) رواه مسلم (٣٤٩) ، موقوفاً على عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه البخاري (٤٧١٥) ، ومسلم (٢٤٦٣) .

أعلم بها في القلوب والضمائر ، ونسأله ﷻ أن يجعل أعمالنا كلها صالحة ، وأن يجعلها لوجهه خالصة ولا يجعل لأحد فيها شيئاً .

وقول يوسف عليه السلام : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ أي : هذا بتعليم الله ﷻ إياي لم أكتسبه من قِبَلِ نفسي ، ففيه نسبة النعمة إلى مُسْبِغِها على العبد ، وهذا أثر من آثار التربية الإيمانية التي تلقاها في صِغره ، حيث علمه أبوه أن النعمة من الله - سبحانه - كما قال له : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ ، وتأمل كيف ذكر ربه - سبحانه - باسم الربوبية المضاف إلى ضمير المتكلم ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ لأنها نعمة خاصة وتعليم خاص وإصلاح خاص بِمَنِّه وكرمه - سبحانه - ، ثم علل هذه النعمة الخاصة والتعليم بأنه تَرَكَ ﴿ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ ، وهذا التعليل ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ ﴾ يدل السامع على أن هذه النعمة والفضل له سبب من اكتساب العبد ، وهو أيضاً من فضل الله ﷻ ، وفيه فائدة أخرى هي أن البراءة من الشرك وأهله واتباع الحق وأهله سبب لتعليم الله ﷻ لعبده ما لا يعلمه ، وهي دعوة واضحة مع تلطف لكي يتركوا الملة الباطلة التي هم عليها وقَوْمُهم من عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهذا التلطف في البداية يمنع نُفْرَةَ النفوس لأول وهلة ، فهو يريد هدم الباطل في قلوبهم ، ولو قال لهم : أنتم على ملة باطلة ، لا تؤمنون بالله وباليوم الآخر ، لربما كان سبباً لنفرتهم ، فأخبرهم عن نفسه ، فقال : ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ ، وسوف يُصرح لهم بعد لحظة بأنهم يعبدون الآلهة الباطلة ، ولكن بدأ بهذا الأسلوب الرائع اللطيف الذي لا تنفر منه النفوس ، وفي نفس الوقت يكون مبيناً واضحاً في إبطال الباطل دون مجاملة ولا مداهنة ، ومثل هذا الأسلوب تلحظه في مؤمن آل ياسين حيث قال لقومه : ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ٢٢-٢٤] .

فهذا بلا شك أهون عليهم وأخف من أن يقول : أنتم في ضلال مبين ، فالداعي

إلى الله حين يذكر مسائل الإيمان بما في ذلك الكفر بالطاغوت على لسان نفسه وفي وصف حاله وما يجد من النعم بسبب ذلك ، فإنه بذلك يدخل إلى النفوس من أقصر طريق وألين أسلوب مع نصاعة الحق ووضوح البيان .

ولابد أن نهتم في دعوتنا بأسس الإيمان وهي الإيمان بالله واليوم الآخر ، فهما أعظم القضايا التي رُكِّزَ في فطرة البشر البحث عنها وقبول الحق فيها ، وفيها الإجابة عن الأسئلة التي تواجه كل إنسان من نفسه : مَن خلقنا ؟ ولماذا خلقنا ؟ وإلى أين المصير ؟ فالإيمان بالله ﷻ يجيب عن السؤالين الأوَّلَيْنِ ، فالله الخالق وهو المعبود ، هو خلقنا لنعبده ، والإيمان باليوم الآخر يجيب عن السؤال الثالث ، فالمصير إلى الله والموت آتٍ لا محالة وبعده البعث والنشور والثواب والعقاب ، فالدنيا بأسرها يوم والآخرة اليوم الآخر ، وهذه المسائل يشترك في البحث عنها الملوك والمماليك ، والأغنياء والفقراء ، والكبراء والحقراء ، فلابد أن تبدأ الدعوة بها والتحذير من كل مِلة ليس فيها الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتأمل في قوله : ﴿ مِلَّةَ قَوْمٍ ﴾ منكرة ولم يقل : ملة قومكم في أول الأمر من جنس قول النبي ﷺ حين يحذر مِن بعض الأخلاق أو بعض الأمور المنهي عنها : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ »[1] مع وضوح المقصد ، ولكنها مراعاة للنفوس الجاهلة التي تُعاند دفاعاً عن قومها وتقليداً لأشياخها .

ثم بعد بيان الإيمان بالله واليوم الآخر ، شرع في بيان النبوة ومتابعته لملة الأنبياء آبائه ، فهو قد ترك الباطل وتَبعَ الحق ، هَدَمَ الجاهلية وسلك سبيل المرسلين ، فقال : ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ، قال ابن كثير – رحمه الله – : (يقول هجرتُ طريق الكفر والشرك ، وسلكتُ طريق هؤلاء المرسلين – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين ، فإن الله ﷻ يهدي قلبه ويُعَلِّمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٤) ، ومسلم (١٤٠١) ، وأبو داود (٩١٣) ، النسائي (٩٤٧) ، وابن ماجة (١٤٠) ، وأحمد (١١٠٠١) ، والترمذي (٢١٢٤) .

إماماً يُقْتَدى به في الخير وداعياً إلى سبيل الرشاد) ، وفي هذا بيان أنه لا يتحقق اتباع مِلة الحق إلا بترك مِلة الباطل ، وتجد في قوله : ﴿ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ ﴾ اعتزازاً بالآباء الكرماء الأشراف الذين أنعم الله بهم عليه وعلى الناس ، وهذا بلا فخر بل مع نسبة الفضل إلى الله ﷻ وشكره على نعمته ، كما قال مع ذلك : ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فالتوحيد والنبوات أعظم نعمة وفضل يُنْعِمُ الله به على الخلق ، فالله ﷻ حين فرض علينا عبادته وحرم علينا الشرك به أنعم علينا أعظم نعمة : حررنا من العبادة للعبيد ، وأعتقنا من التزام الرِق لمن له شِكلٌ ونديد ، وحين وفقنا للعمل بهذا الذي افترض علينا من توحيده وعدم الشرك به ، فقد أتم علينا النعمة التي كان ابتداؤها منه بلا سبب منا ، وعصمنا من السجود لغيره ، وقد خَذَلَ أمثالنا في الأبدان والأسماع والأبصار والأفئدة الذين ما أغنت عنهم أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ، فعبدوا الشياطين من دون الله ﷻ ، وسولت لهم نفوسهم وعقولهم عبادة الأشجار والأحجار المنحوتة التي هم نحتوها ، أو الأشخاص من البشر والجن والملائكة بل ما هو أدنى وأدنى ، من عبادة العجول والأبقار والجعارين والحيات والفئران والحشرات والصُلبان ، وكل ما يخطر بالبال وما لا يخطر ، وهُمْ في ذلك تامَّةٌ عقولُهم في معاشهم ودنياهم وتدبير مصالح أولادهم وأموالهم ، ربما صنعوا الصواريخ والقنابل الذرية ، وهم يركعون للبقرة ولها يسجدون ، وربما جَيَّشوا الجيوش وجندوا الجنود وملكوا الأرضين وصعدوا في الفضاء وهم يعبدون صليباً اعتقدوا موت الإله عليه ، وبصق الناس عليه ، ودُقَّتْ المسامير في يديه ، وهو يصرخ بصوت عظيم : إلهي إلهي لِـمَ تركتني ، فلا يجد من يُجيبه حتى يُسلم الروح ! عجباً والله لهذه العقول ! وتباً لهذه الأفكار .

إذا تأمل الإنسان عقائد العَالَم ، علم فضل الله ﷻ عليه بالتوحيد ونبذ الشرك ، وكان أحرص شيء على شكر هذه النعمة بالثبات عليها والدعوة إليها ومحاولة إخراج

الناس من ظلمات الجاهلية ، وكان من أحرص الناس على بذل الجهد لإعلاء كلمة الله ونُصرة دينه ، ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ، لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل ودعوتهم إلى التوحيد ، بل بَدَّلُوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .

وفي قوله عليه السلام : ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ بيان أن المشرك لا يؤمن بالله حتى لو أقر بوجوده – سبحانه – أو ببعض صفاته ﷻ ، ذلك أنه قال عن القوم الكافرين أولاً : إنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ثم قال : ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ، فالشرك ينافي أصل الإيمان ، سواء أكان الشرك في الربوبية بأن يعتقد أن مع الله أو من دون الله خالقاً أو رازقاً أو مُدَبِّراً أو مالكاً أو سيداً آمراً ناهياً مُشَرِّعًا للناس ، أم كان في الألوهية بصرف العبادة من ركوع أو سجود أو دعاء أو استعاذة أو استغاثة أو ذبح أو نذرٍ أو حبِ عبادةٍ أو خوفِ عبادةٍ أو حلف أو غير ذلك ، أو كان الشرك في الأسماء والصفات بأن يعتقد للمخلوقين صفة الخالق ﷻ كالسمع المحيط والعلم بالغيب والقدرة التامة ، أو ينفي صفات الرب ﷻ أويشبهه بالجمادات أو المعدومات ، فكل أنوع الشرك تنافي الإيمان بالله ﷻ ، إذ إن كثيراً من الناس يظن أن الإيمان بالله هو اعتقاد وجود الله حتى لو عَبَدَ غيرَه وأشرك به ، وهذا في الحقيقة قول غلاة أهل البدع والضلال من الجهمية والمرجئة ، وهو من أفسد الاعتقاد .

وتأمل تأكيد نفي الشرك بقوله : ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ فشيء : نكرة في سياق النفي فَيَعُم كل الأشياء التي تُعْبَدُ مِن دون الله ﷻ من حجر وشجر وقبر ووثن وإنس وجن ومَلَك وشمس وقمر وكوكب وشياطين وغير ذلك ، وأكد هذا بـ ﴿ مِن ﴾ حتى لا يتطرق إلى الجملة احتمال التخصيص بأي نوع من أنواع التخصيص لأي شيء في الوجود سوى الله – سبحانه وتعالى – .

وفي ذكر يوسف عليه السلام لأجداده – عليه وعليهم الصلاة والسلام – ، بلفظ الآباء

لطيفة جميلة وهي الشعور بالقرب منهم ، فشعور الإنسان بأبيه حباً وتعلقاً أكبر بكثير من شعوره بأجداده ، خصوصاً إذا تباعد الزمن ، فلربما لا يكون لأجداده الأبعدين تعلق على الإطلاق إلا مجرد حمل الاسم ودعوة صالحة ، ونَدَرَ في الناس من يرعى حق القرابة البعيدة ، إلا إذا كان في الجد من الصفات الحسنة والمنازل العالية ما يظل الحفيد بسببه ذاكراً لجده ، أما إذا ذكره بلفظ الأب ، فكأنّ الفارق الزمني قد طُوِيَ وشعر بالقرب الشديد والحب والمتابعة عن قرب ، ومثل هذا المعنى تجده في قول الله تعالى للمؤمنين : ﴿ **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الحج : ٧٨] ، فهو حَثٌّ على متابعة الإسلام لأنه دين إبراهيم وهو أبو المؤمنين الذي يحبونه أعظم الحب فكيف يخالفون ملته .

وتأمل كيف كان تعلقُ أبي طالب بأبيه عبد المطلب وتركُه للإسلام وإباؤه أن يقول : لا إله إلا الله حين دعاه إليها النبي ﷺ في مرض موته ، وإنما ترك ذلك لقول أبي جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ مع علمه بصدق رسول الله ﷺ وأن دينه هو أحسن الدين ، ولكنه قال : (يا ابن أخي ملة الأشياخ) [(١)] ، فإذا استشعر الإنسان الأُبوة كان أحرص شيء على الاتباع ، فإذا كانوا على الحق كان ذلك أعظم وأعظم في الاتباع ، وتجد قريباً من هذا المعنى قول الناس يوم القيامة في أمر الشفاعة : « **اذْهَبُوا إِلَى أَبِيكُمْ آدَمَ** » ، وقول آدم عليه السلام : « **اذْهَبُوا إِلَى أَبِيكُمْ بَعْدَ أَبِيكُمْ اِذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ** » [(٢)] ، ففرق كبير بين أن نقول : جدنا الأعلى البعيد آدم أو نوح – عليهما السلام – ، وبين أن نقول : أبونا آدم وأبونا نوح – عليهما السلام – ، فشرفٌ لنا كبير أن يكونوا آباءنا ، وقول النبي ﷺ عن الحسن : « **إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ** » [(٣)] ، وقوله ﷺ : « **وُلِدَ**

---

(١) قصة عدم إسلام أبي طالب ، راجع البخاري (١٣٦٠-٤٦٧٥-٤٧٧٢) ، ومسلم (٢٤) ، والنسائي (٢٠٣٥) ، وأبا داود (٢٤١٢) بلفظ « **هو على ملة عبد المطلب** » وأما لفظ « **يا ابن أخي ملة الأشياخ** » ذكرها الطبري (٩٣/ ٢٠) ، وذكرها الحافظ في فتح الباري عن مجاهد ، وكذا ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٠١) .

(٢) حديث ذهاب أهل الموقف إلى الأنبياء ، رواه البخاري (٣٣٤٠) ، ومسلم (١٩٥) ، والترمذي (٢٤٣٤) بلفظ « **أبوكم آدم** – أو – **فيأتون آدم** » وكذلك « **ولكن اذهبوا إلى نوح** » ، وأما اللفظ المذكور فرواه ابن حبان (٦٤٧٦) ، وأحمد (١٥) ، وأبو عوانة (٤٤٣) .

(٣) رواه البخاري (٢٧٠٤) ، والترمذي (٣٧٧٣) ، والنسائي (١٤١٠) ، وأبو داود (٤٦٦٢) .

لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ ، فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ »(١) ، تلمس فيه حباً وتقديراً يختلف كثيراً عما لو قال : حفيدي الحسن أو جدي إبراهيم ، وقول أبي هريرة رضي الله عنه عن هاجر : (تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ)(٢) بدل جدتكم ، والله أعلم .

وقول يوسف عليه السلام : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ ذكر الصحبة التي تقتضي قرباً وبراً وإحساناً ، وذكر السجن لأن صحبة السجن لها خصوصية في الاشتراك بالشعور بالألم والضيق مما يجلب شفقة وحرصاً على الخير وترقيقاً للقلوب ، وخصوصاً مع الإحسان ، فيوسف عليه السلام يتلطف في دعوتهم إلى توحيد الله عز وجل ونبذ الشرك الذي هُم عليه بكل طريق : ببيان الحُجج العقلية ، ومراعاة الأحوال القلبية ، واستعمال المؤثرات النفسية والمواقف الأخلاقية والسلوكية والعملية التي تفتح إلى القلب طرقاً مغلقة وأبواباً مؤصدة .

وتأمل حسن هذا الأسلوب في المقارنة بين الأرباب والآلهة الباطلة وبين الله عز وجل ، وذكر صفات النقص في الآلهة الباطلة :﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ وذكر صفات الكمال لله عز وجل :﴿ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ ، وذكر صفة الوحدانية وصفة القهر في هذا الموطن الذي لا يجد العبد فيه ملجأ إلا إلى الله الواحد ، ففي السجن تنقطع السُبل وتنعدم الأسباب ، وشعور الإنسان بقهر غيره له لا يُهَوِّنُه إلا استحضاره أن هذا الذي قهره وأذله بالحبس هو مقهور ذليلٌ لله عز وجل ، الذي مَلَكَ الموتَ والحياة ، والنفع والضر ، والإعزاز والإذلال ، فعند شعور السجين بقهر الله للملوك بالموت والمرض وغير ذلك من أنواع القهر ، يصغرون في عينه ويهون عليه ما يصنعون به ، ويجد في اللجوء إلى الله الواحد القهار خير ملجأ ومعاذ ، فما أحسن ذكر هذين الاسمين في هذا الموطن .

وبعد التلميح والتعريض ، انتقل يوسف عليه السلام في الدعوة إلى التصريح والتوضيح ، فقال :﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٥) .
(٢) رواه البخاري (٣٣٥٨) ، ومسلم (٢٣٧١) ، موقوفاً على أبي هريرة .

ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ ، فصار الخطاب لهم مباشرة حتى لا يظنوا أنه يقصد آخرين بقوله : ﴿ مِلَّةَ قَوْمٍ ﴾ بل أنتم وقومكم المقصودون ، أنتم تعبدون آلهة باطلة سميتموها آلهة بالجهل والتقليد الأعمى للآباء ، وليس عندكم في ذلك حجة ولا برهان ولا عقل ولا نقل ، فما أنزل الله من سلطان أي : حجة عقلية أو نقلية على عبادة غيره ، بل نصب سبحانه الأدلة العقلية والنقلية على وحدانيته وقهره واستحقاقه وحده الألوهية .

وذكر الآباء في هذا الموطن ﴿ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ هدم لأعظم شبهة عند المشركين وهي التقليد الأعمى للآباء ، وكثيراً ما يكون سببه ظنه أنه لابد عند الآباء من دليل ربما خفي على الأبناء ، فإذا صرح لهم بأن الآباء أيضاً ليس عندهم حُجة وليس إلا مجرد التسمية الباطلة ، كان ذلك كالصدمة التي تدعوهم إلى التفكير والمراجعة في هذه المسألة العظيمة ، ثم قرر عليه السلام القاعدة الكلية : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ وهو هنا يشمل الحكم الكوني القدري ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذي لا معقب لحكمه ﷻ ، ويشمل كذلك الحكم الشرعي الديني ، بل هذا أظهر في الدخول في العموم إن لم يكن هو المقصود أصلاً ، لقوله عقب ذلك : ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ فهذا حُكمه ﷻ الشرعي ، لم يُشَرِّعْ قط أن يُعْبَدَ غيره ، وأيضاً لأن القوم كانوا متبعين لأوامر ملوكهم وأحكامهم مقلدين لهم في مللهم الباطلة ، وما عُلِم قَومٌ استُخِفُّوا أو استَخَفَّتهم ملوكهم في تلوين عقائدهم وتعبيدهم لما تهواه الملوك مثل الفراعنة ، فتراهم يأمرهم أحدهم بعبادة الشمس ، وتارة يأمرهم آخر بعبادة العجول والحيات ، وآخرون بعبادة الأصنام والتماثيل ، ووجد فرعون نفسه أولى من العجول والثعابين فنادى فيهم : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص : ٣٨] ، وقال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] ، فناسب هذا أن يجهر يوسف عليه السلام بهذه القاعدة الكلية : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ ، فالذي له الأمر هو الله ﷻ وهو أَمَرَ ألا تعبدوا إلا إياه ، وهذه الآية دليلٌ واضح على وجوب إفراد الله ﷻ بالحكم والتشريع ، وأن هذا مقتضى عبادته ، دلت على ذلك آيات القرآن المتعددة التي تكرر وتقرر هذا المعنى ليستقر في النفوس ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ

﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢١] فمن اتبع غيره في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله فهو مشرك ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] [1] وغير ذلك من الآيات كثير .

وقول يوسف عليه السلام : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي : الذي أدعوكم إليه من ترك الملل الباطلة ونبذ الآلهة الباطلة وإفراد الله بالحكم وإخلاص العبادة لله ﷻ دون كل ما سواه هو الدين المستقيم الحق ، وقال : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي هو اسم إشارة للبعيد للبَوْنِ الشاسع والارتفاع الهائل لهذا الدين على ما هُم فيه من المِلَل والأديان الباطلة ، وقوله : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هذا انتباه عظيم الأهمية إلى شبهة خطيرة لابد من هدمها في النفوس ، وهي أن أكثر الناس ليسوا على هذا الدين ، والنفوس الجاهلة مائلة إلى اتباع الأكثرية ، فكان وصفها بعدم العلم منفراً للعاقل عن اتباعهم وتقليدهم ، فلا تزهدوا في القلة ولا تغتروا بالكثرة ، والحقُّ يعرف بالدليل لا بكثرة التابعين ، فالزمْ طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين ، وإياك وطُرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ، قال ابن كثير – رحمه الله – : (يقول لهما : ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ وهو الذي رآه يعصر خمراً ولكنه لم يُعَيِّنْه لئلا يحزن الآخر ، ولهذا أبهمه في قوله : ﴿ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ

(١) راجع فضل الغني الحميد : باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ، النوع الثالث من أنواع الشرك : الشرك في الحكم .

﴿ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ ، وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً ، ثم أعلمهما أن هذا قد فُرِغَ منه وهو واقعٌ لا محالة ، لأن : « الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ »)[1] أ . هـ .

انتظار البلاء بلاء قبل البلاء ، وتوقع المصائب ربما كان أشد على النفس من وقوعها ، وربما طالت مدة الانتظار فيكون عذاباً للمنتظر ، ولذا كان من كمال الشفقة – ما أمكن – أن لا يواجه بما ينتظره من بلاء ، خصوصاً إذا كان من ضعيف الإيمان لا يُحسن أن يحتسب في المصائب ويصبر عليها ، ولهذا قال يوسف عليه السلام لصاحبيه مجتمعين : ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ – دون تعيين – ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ ، وإن كان ظاهراً أنه الذي رأى في منامه أنه يعصر عنباً وهو الساقي ، ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ – دون تعيين أيضا – ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ ، وإن كان الظاهر أنه الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه وهو الخباز ، وهو الذي تظهر عليه التهمة بقتل الملك ، وأما إخبار يوسف عليه السلام لهما بأنه قُضِيَ الأمر الذي فيه يستفتيان فقد ذكر ابن كثير – رحمه الله – أن ذلك لأجل أن « الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ »[2] .

لكن ينبغي أن يقيد ذلك لأنه الأغلب ، فقد يُخطئ المعبِّر ، كما قال النبي ﷺ للصديق لما عَبَّرَ رؤيا بعض الصحابة : « أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا »[3] ، فلا يلزم إذن أن يقع التعبير الخطأ ، بل إذا عُبِّرَتْ الرؤيا تعبيراً صحيحاً وقعت إن شاء الله تعالى ، وأما تأويل الأنبياء فمعصوم ، ولذا قال يوسف عليه السلام قُضِيَ الأمر ، وليس لغير الأنبياء أن يجزم في تأويله بأنه قُضي الأمر فيه ، فإنه يُخطيء ويصيب ، وأما حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ مرفوعاً : « وَالرُّؤْيَا لِأَوَّلِ عَابِرٍ »[4] ، فهو حديث ضعيف .

(١) سبق تخريجه ص ٢٣ .
(٢) سبق تخريجه ص ٢٣ .
(٣) سبق تخريجه ص ٢٢ .
(٤) ضعيف : رواه ابن ماجة (٣٩١٥) ، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجة (٨٤٩) .

وقد ورد ما يدل على التغليظ فيمن تَحَلَّمَ بحُلم لم يره ، فقد روى البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – مرفوعاً : « **مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ** »[1] ، وعنه أيضاً روى الترمذي مرفوعاً : « **مَنْ تَحَلَّمَ كَاذِبًا ، كُلِّفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ ، وَلَنْ يَعْقِدَ بَيْنَهُمَا** »[2] ورواه أبو داود بلفظ : « **مَنْ تَحَلَّمَ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ شَعِيرَةً** »[3] ، وزاد ابن ماجة عليه : « **وَيُعَذَّبُ عَلَى ذَلِكَ** »[4] .



(١) رواه البخاري (٧٠٤٢) .
(٢) صحيح : رواه الترمذي (٢٢٨٣) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٣٩) .
(٣) صحيح : رواه أبو داود (٥٠٢٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٧٠) .
(٤) صحيح : رواه ابن ماجة (٣٩١٦) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (٣١١٥) .

الأخذ بالأسباب والتوكل

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

هذا دليلٌ على أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله ، والسعي في إزالة الظلم لا ينافي التسليم لقضاء الله ﷻ ، فإن التسليم الواجب هو التسليم لحكم الله ﷻ وقضائه الشرعي الديني ، أما القضاء والحكم القدري الكوني فإنه ثلاثة أنواع :

القسم الأول : الحكم الكوني الذي لا قدرة للإنسان فيه على أخذ الأسباب أو دفعها ، مثل كونه وُلِدَ بصفةٍ معينةٍ أو في زمن معين أو لأبوين معيَّنين ، ومثل كونه ذكراً أو أنثى ، ومثل موت بعض أحبابه وأقاربه ، ومثل مرضه مرضاً لا يعرف له دواء ولا يُرجى منه شفاء ، فهذا قَدَرٌ لابد فيه من التسليم المحض وعدم المنازعة وعدم الفرار منه ، إذ لا سبيل إلى ذلك ، وترك التسليم ووجود المنازعة إنما هو السخط والشك والاعتراض على الربوبية وجرأة الإقدام ووقاحة الاقتراح بأنه كان ينبغي غير ما كان ، والعياذ بالله .

القسم الثاني من الحكم الكوني : هو الحكم الكوني الذي جعل اللهُ ﷻ فيه للعباد على أخذ الأسباب أو دفعها قدرة وإرادة وكسباً ، وكونه ﷻ جعل لهم قدرة وإرادة تتعلق بالأسباب تكسباً لا ينافي أنه إنما يوجب الأمر حُكمُه الكوني ، فليست إرادة العباد موجبة ، وقدرتهم في الحقيقة أثر من آثار قدرة الله ﷻ ، فهو الذي شاء أن يشاؤوا وهو الذي أقدرهم ، فهذا النوع من الحكم الكوني القدري يُشْرَعُ فيه وجوباً واستحباباً أخذ الأسباب المباحة والمشروعة ، فمن ابتلاه الله ﷻ بقدر الجوع دفعه بقدَرٍ من الأكل ، ومن ابتلاه الله بقدر العطش فَرَّ منه إلى قدرٍ من الشرب ، ومن أصابه قدرٌ من المرض نازعه بقدرٍ من التداوي ، مِصداق ذلك قول النبي ﷺ لما سُئل عن الأدوية التي يُتَدَاوَى بها ،

فقيل : (يَا رَسُولَ اللهِ : أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا ، وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ ، وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا ، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا ؟) ، فقال ﷺ : « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ »[1] ، ومن ذلك قول عمر لأبي عبيدة لما قال له : (أَتَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ ؟) ، قال : (نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ)[2] ، ومن هذا ما فعله يوسف عليه السلام ، فحين أصابه قدَر من الظلم بالسجن ، شرع في دفعه بقدَر آخر هو طلب الشفاعة العادلة لدى الملك الذي أقدره الله على أن يرفع الظلم عنه ، ويتأكد أخذ الأسباب في هذا النوع من الحكم الكوني القدري إذا كان في الذي تفر إليه طاعةٌ لله ﷻ وعبوديةٌ محبوبةٌ له ﷻ ، وقد يكون واجباً أن يأخذ بالأسباب ، فمن ترك نفسه للجوع حتى هلك مع قدرته على الأكل كان آثماً ، ومن ترك أولاده بلا نفقة وهو قادر على الكسب بزعم التسليم بالقدر كان آثماً ، مِصْداقُ ذلك قول النبي ﷺ : « **كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ** »[3] .

أما القسم الثالث من الحكم الكوني : فهو الحكم على العبد بالمعصية والخذلان ، فهذا يجب عليه أن يفر منه وينازعه بقدَرٍ من الطاعة والتوبة والإنابة والتضرع إلى الله ﷻ أن يأخذ بناصيته إليه وأن يوفقه لما يحب ويرضى وأن لا يَكِلَه إلى نفسه طرفة عين ، وبهذا يُحقق العبد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] وفي هذا النوع بعد تحقيق التوبة والإنابة والإصلاح ما استطاع يكون القدر – بالنسبة إلى ما قد وقع في الماضي بالفعل ولا قدرة على تغيير هذا الماضي بل قدرته إنما هي في إزالة آثاره بالتوبة وقد فعل – يكون القدر في هذه الحالة عذراً للعبد وحجة يحتج بها ، كما قال النبي ﷺ : « **احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ مِنْ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ : أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى** »[4] .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٠٦٥) ، وحسنه الألباني في مشكلة الفقر (١١) .
(٢) رواه البخاري (٥٧٢٩) ، ومسلم (٢٢١٩) ، وأخرجه البيهقي (١٤٠٢٠) الكبرى .
(٣) رواه مسلم (٩٩٦) بنحوه ، وأبو داود (١٦٩٢) ، وأحمد (٦٤٥٩) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨١) .
(٤) رواه البخاري (٣٤٠٩) ، ومسلم (٢٦٥٢) ، والترمذي (٢١٣٤) ، وأبو داود (٤٧٠١) .

وكما قال كعب بن مالك رضي الله عنه بعد توبته وقبولها ، ونزول قبولها في القرآن ، قال عن قصته : (فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ ، فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي)[1] ، فهو باقٍ على ندمه على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ويتمنى أن لو كان لم يقع في الذنب ، وهذا من كمال الندم ، ولكنه يُسلي نفسه ويُعزيها بالقدَر ، كما أنه في النوع الثاني وهو الحكم الكوني الذي للعبد فيه قدرة على الأسباب يكون الاستسلام للقدر مأموراً به بعد استفراغ الوُسع في أخذ الأسباب ، وقد لا تثمر ثمرتها ولا تؤتي نتيجتها ، ففي قصة يوسف عليه السلام قد نسي الرجل الساقي أن يذكر أمر يوسف عليه السلام للملك ، فما كان من يوسف عليه السلام إلا التسليم والرضا بقضاء الله عز وجل ، فإن الأسباب كما ذكرنا ليست موجبة لنتائجها ، فلا يحزن العبد ولا يغتم ولا يهتم فقد جعل الله عز وجل الرَّوْحَ والفرح في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط ، فلابد من التسليم والتفويض والتوكل على الله سبحانه والثقة به تعالى .

وقد أطلنا الكلام على هذه المسألة المهمة لأن البعض قد فسر الآية الكريمة على أن يوسف عليه السلام يطلبه من الذي علم أنه ناج من صاحبيه في السجن أن يذكره عند ربه ، وأنه لو لم يفعل لما لبث في السجن ما لبث ، ويجعل ذلك حجة في ترك الأسباب زاعماً أنها منافية للتسليم والرضا بالقدر ، ومعلوم أن هدي الأنبياء جميعاً وسنتهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله عز وجل ، فإن جاء ما يُعجز العبد وما لا قدرة له عليه وغلبه أمر ،قال : قدر الله وما شاء فعل ، وسلم الأمر لله ورضي قضاءه ، والصواب في تفسير الآية أن الذي نسي ذكر ربه هو صاحب يوسف في السجن ساقي الملك وليس يوسف عليه السلام ، فإن الضمير يعود على أقرب مذكور ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ هذا الذي نسي ذكر ربه هو ساقي الملك ، ثم إن القرآن يدل على ذلك بقوله تعالى بعد ذكر رؤيا الملك : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي تذكر بعد مدة فتبين بوضوح أنه هو الذي نسي ثم تذكر ، أما الحديث المروي عن ابن عباس مرفوعاً : « لو لم يقل – يعني

(1) رواه مسلم (٢٧٦٩) ، وأحمد (١٥٣٦٣) في المسند .

يوسف – الكلمة التي قال ما لبث في السجن ما لبث ، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله » فهو ضعيف سنداً ومتناً ، قال ابن كثير – رحمه الله – : (هذا الحديث ضعيف جداً) أ . هـ .

وأما من جهة المعنى فلأن طلب الشفاعة لأخذ الحق ليس ابتغاءً للفرج من عند غير الله ، وإلا لما قال النبي ﷺ لأصحابه إذا أتاه صاحب حاجة : « **اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ** » [1]، فأخذ الأسباب ابتغاءٌ للفرج من عند الله ﷻ ، ولو وقع إنسان في بئر مثلاً وكان يستطيع أن ينادي مَن بالطريق بجوار البئر ليخرجه لزمه ذلك ، كما يلزمه إمساك الحبل لمن ألقاه إليه ، خلافاً للمنقول عن بعض المتقدمين مِن تُركِهِ النداءَ حتى أرسل الله ﷻ إليه من ألقى إليه الحبل ، فهل كان ترك النداء توكلاً ، والإمساك بالحبل نقصاً في التوكل ، فالمسألة واحدة في الأمرين ، كلاهما سبب .

إذن فطلب الشفاعة في الحق أمر مشروع لا ينافي كمال التوكل مع ثقة القلب بالله ﷻ وكمال توكله على الله ، وهذا هو الظن الواجب بيوسف عليه السلام ، ونسبة نسيان ذكر الله إليه مخالفة للعِصمة الثابتة في الأصل للأنبياء فلا تصح إلا بدليل صحيح ... ولا دليل ، بل ظاهر الأدلة على خلافه كما ذكرنا أن الناسي هو الرجل الناجي ساقي الملك ، وكان هذا من فعل الشيطان ، قال ابن كثير – رحمه الله – : (ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقي ناج ، قال له يوسف خفية عن الآخر – والله أعلم – لئلا يُشْعِرَه أنه المصلوب ، قال له : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ ، يقول : اذكر قصتي عند ربك وهو الملك ، فنسي ذلك الموصَى أن يُذَكِّر مولاه الملك بذلك ، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يخرج نبي الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ عائد على الناجي ، كما قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد ، ويقال إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام ، رواه ابن جرير عن ابن عباس

---

(١) رواه البخاري (١٤٣٢) ، ومسلم (٢٦٢٧) ، وأبو داود (٥١٣١) .

ومجاهد وعكرمة وغيرهم) أ . هـ .

ثم ذكر الحديث المتقدم ذكره ، وذكر تضعيفه كما سبق ، والذي صوبه ابن كثير - رحمه الله - هو الصواب كما دل عليه القرآن ، ثم إن حال الساقي هو الأولى بالنسيان من جهة مجتمع الخمر ومجالسها التي غرق فيها والتي تمتلىء بالشياطين فهي بيئة بعيدة عن ذكر الله ﷻ ، مكتظة بالمنكرات ، فمعلوم أن سقي الخمر يكون معه - خاصة عند الملوك - المعازف والقينات - أي : المغنيات - وأنواع الفتن المُلهية المطغية ، فأنَّى يذكر الفتى ربه ؟! وأنَّى له بالأولى أن يذكر قصة يوسف عليه السلام المظلوم في غياهب السجون ؟

أما السجن فهو - لأهل الإيمان - مكانٌ فَرَغُوا فيه لذكر الله وعبادته ، وانقطعت فيه علائق الأسباب بغير ربهم - سبحانه - ، فهو وحده الذي يرجونه ويُؤَملونه ويتضرعون إليه ويعبدونه ، يكاد الشيطان يتميز غيظاً عليهم لما يرى من رحمات الله ﷻ عليهم وأفضاله النازلة إليهم ، فأنَّى أن ينسيهم ذكر ربهم وليس لهم في سجنهم ملجأ ولا منجى إلا إليه ﷻ ولا أنيس لهم سواه ؟ لأن ما يقدر الشيطان على إصابتهم به من الأذى هو في أبدانهم بطول الحبس وألم البُعد ، لكن لا تسلط له على قلوبهم العامرة بذكر الله - سبحانه - ، فكيف بالكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم في ذِكر الله ﷻ في هذا الموطن ، وأي الشخصين أولى بأن ينسيه الشيطان : الخمَّار أم الشَّكَّار الذَّكَّار ؟ وأي البيئتين أولى بالشيطان : مجالس الفسوق والعصيان أم أماكن الخلوة بذكر الرحمن ؟! لا نشك أن نسيان الذكر أولى بالفتى ، وهو أولى به من يوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ قيل : سبعاً ، وقيل : خمساً ، وقيل غير ذلك ، والبِضع : من ثلاث إلى تسع ، والقرآن لم يبين لنا ، ورسول الله ﷺ لم يبين كم كانت المدة بالضبط ؟ ولا فائدة في التحديد أكثر مما ذُكر في القرآن ، وفي هذا أعظم تسلية للمظلومين في السجون ، فإن أكرم الناس بقي في السجن بضع سنين مع كرامته على الله

ﷻ ومنزلته عنده ، فلو كان السجن إهانة – دائماً – لما قدره الله على نبيه الكريم يوسف عليه السلام ، بل كان السجن شرفاً ليوسف عليه السلام ، وبه صار أسوةً لكل كريم ابتُلِيَ بالسجن ظلماً ليصبح السجن له كقشرة البيضة للفرخ بداخلها ، قد يحسب الجاهل أنها سجن له ، وإنما هي حماية ووقاية حتى يكتمل نموه ، فينقر القشرة نقرة أو نقرتين فإذا هو خلق جديد سميع بصير ، حيٌّ متحرك في فضاء الدنيا بعد أن كان صفاراً وبياضاً ، ولو كسرت القشرة قبل الموعد المقدر ، لكان أعظم الضرر على الفرخ وكان فيه هلاكه إذ لم يستكمل نموه ، فكذلك قلب المؤمن يحتاج إلى النماء – نماء حقائق الإيمان فيه – ، والتزكية التي بُعث من أجلها رسول الله ﷺ وهي تتضمن معنى النماء ومعنى الطهارة ، فالنفس تحتاج إلى طهارة وتنقية ربما لا تبلغها الأعمال ، فيكون البلاء لقلب المؤمن ونفسه سبباً للنماء والطهارة ، حتى إذا جاء الأجل الذي قدره العليم الخبير العزيز الحكيم ، خرج المؤمن بقلب جديد قد ولد من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ومن ضيق إرادة الشهوات واتباع العوائد وأسر التقاليد إلى سعة الإخلاص واتباع رضوان الله ، ومن ذل عبودية العباد إلى عز العبودية لرب العباد ، قد امتلأ حياةً وسمعاً وبصراً وحركةً في فضاء التوحيد .

ووالله لقد كان السجن شرفاً وعزاً ليوسف عليه السلام ، ازداد فيه إيماناً وعلماً وقرباً من ربه ﷻ ، وازداد زهداً في الدنيا واستهانة بها ، فقد دخل السجن وهو أحب إليه مما يدعونه إليه ، وكان في هذا قمة عالية ، وكان يسعى للخروج منه ، وبعد السنوات التي قضاها انتقل إلى قمة أعلى ، أشار إليها النبي ﷺ بتواضعه العظيم حيث يقول : « **وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ** »[1] ، أي : داعي الملك الذي بلغه طلبه ، فقال له يوسف عليه السلام : ﴿ **ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ ، فقد صار عنده الأمر أقرب ما كان ، السجن والمُلْك ليس الفرق بينهما كبيراً ، طالما كانت الطاعة وطلب أجر الآخرة ، وليس هذا بالأمر الهين أن يصل إليه الإنسان ، وأن تكون الدنيا بسعتها وضيقها عنده

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) ، وابن ماجة (٤٠٢٦) .

ليست أكبر الهم ومبلغ العلم ، لا ينافس في عزها ولا يجزع من ذلها ، صارت عنده كما هي عند الله – سبحانه – لا تساوي جناح بعوضة ، كما قال رسول الله ﷺ: « **لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ** » [1]، أو هي كجدي أسكَّ – أي صغير الأذنين – ميت ، كما مَرَّ النبي ﷺ بِالسُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ العَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ : « **أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ ؟** »، فَقَالُوا : مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟، قَالَ : «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ؟**» ، قَالُوا : وَالله لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ ؟ ، فَقَالَ : « **فَوَالله لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ** » [2].

صار يوسف عليه السلام لا يبالي كثيراً بالبقاء في سجنه لما نال فيه من أنواع القُرْب والحب والود والكرامة من ربه ﷻ، فصار عافيةً في حقه من جهات ، وإن كان بلاءً من جهة ، وكذلك المؤمن بثقته في جزاء المصيبة عند ربه الكريم الذي لا يُخلف وعده للصابرين ، وكذلك بانتظاره رَوْح الفرج الذي يجد به من لذة حسن الظن بالله ورجاء فضله ، وبشهوده نعم الله عليه حال نزول المصيبة ، وما أبقى له من المنن السالفة وما جدَّد من عطايا اليُسر ما يجعله فعلاً قد عظمت عنده العافية وهانت عليه المصيبة ، قد استغنى بالله ﷻ وبِقُرْبِهِ وأنواع عبادته عن دنياهم ، حتى استوى عنده قصر ملكهم وزنزانة حبسهم ، لولا ما في الخارج من أنواع الطاعات الأخرى التي أُعِدَّ لها وهُيِّئَ ، لَمَا طلب الخروج ، وهذا بلا شك حال كمال أكمل من الكمال الذي كان فيه قبل دخوله السجن .

ألا ترى إلى كمال رسول الله ﷺ وقد خيَّره ربه ﷻ أن يكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً ، كان الملك أمامه لو اختاره يَمْنُن أو يُمسك بغير حساب من ربه ﷻ، فاختار أن يكون عبداً قاسماً لا يفعل إلا ما يؤمر ، يضع حيث أمر ،

---

[1] سبق تخريجه ص (١٨) .
[2] رواه مسلم (٢٩٥٧) ، وأبو داود (١٨٦) ، وأحمد (١٤٥١٣) ، واللفظ له .

يعطي لله ويمنع لله ، لا لإرادة النفس ، اختار النبي ﷺ أن يكون عبداً يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويعتقل الشاة ، ويكون في مهنة أهله ، وليست هذه أفعال الملوك ، أترى ملكاً يلبس ثوباً مرقعاً ، فضلاً عن أن يكون هو الذي يرقع الثوب بنفسه ، ليس له من يرقعه ؟ وقد ورَّث النبي ﷺ أمته شيئاً من هذا الكمال ، فكان خلفاؤه على شبه هذا الوصف ، ليسوا ملوكاً ، بل الملك في أمته نقص ، كما قال ﷺ : « خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا »[1] ، وقال ﷺ : « تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ الله أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ الله أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ »[2] ، فالخلافة هي الكمال ، والملك نقص في هذه الأمة ، ولذا كان خلفاؤه كذلك يلبسون المرقع من الثياب ، ويخلع أحدهم – وهو عمر رضي الله عنه – خفيه ويضعهما على كتفيه ، ويخوض ببعيره المخاضة ، تبدو صلعته للشمس ، كل هذا وهو قادم لِتَسَلُّم مفاتيح بيت المقدس ، فيقول له أبو عبيدة رضي الله عنه : (ما يَسُرُّني أن القوم رأوك هكذا) ، فيقول له أمير المؤمنين رضي الله عنه : (لو غيرُك قالها أبا عبيدةَ ، لجعلتُه نَكالاً لأمة محمد ﷺ ، إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قومٍ ، فأَعَزَّنَا اللهُ بهذا الدينِ ، فمهما ابْتَغَينَا العِزَّةَ في غيرِهِ ، أَذَلَّنَا اللهُ)[3] .

هؤلاء الخلفاء ليس لأحدهم بوابٌ ولا حرس ولا حاشية ، ينام في المسجد كما ينامُ آحادُ الناس ، هل ترون هذا ممكناً في الملوك ؟!! والله لا يكون إلا في من هانت عليه الدنيا ، بما فيها من غنىً وفقر ، وعسر ويسر ، ونعومة عيش أو خشونته ، هذه قِمةٌ لا يصل إليها إلا الأفذاذ ، وصل إليها يوسف عليه السلام حين قال لرسول الملك الذي جاءه :

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٢٢٦) ، وأبو داود (٤٦٤٦) ، وابن حبان (٦٩٤٣) واللفظ لـه ، وصـححه الألبـاني في صـحيح الجامع (٣٢٥٧) .

(٢) صحيح : رواه أحمد (١٧٩٣٩) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥) .

(٣) صحيح : أخرجه الحاكم (٢٠٧) الإيمان ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٩٣) .

﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ وظل مُتَبَوئاً لها في مُلْكِه ، متواضعاً لله ﷻ مشاهداً فضله ونعمته ، مستحضراً كرمه ومنته ، وإنما وصل إلى هذه القمة بسنوات السجن ، التي كانت شرفاً وسبباً لمزيد من الشرف ، وكانت عافية وسبباً لمزيد من العافية ، وكانت عزاً وسبباً لمزيد من العز .

كان يوسف عليه السلام فيما يبدو لمن سجنوه مِن الصاغرين ، كما قالت امرأة العزيز ، وفي حقيقة الأمر كان ينتصر عليهم ، ويعز ويقهر باطلهم بإرادته وجه الله ﷻ وطاعته ، كان في ظنهم يَضيع عليه نعيم القصور الذي كان فيه ، ولكنه في الحقيقة كان يجتني نعيم القرب من الله – سبحانه – ، بما لا يجده في قصورهم وحياتهم بأسرها ، ومثلما كانت الحبال التي ألقاه بها إخوته في غيابة الجب في حقيقة الأمر أسباباً موصلة إلى علوه عليهم ، كانت سنوات السجن أسباباً إلى الكمال والزكاة والنماء والطهارة ، ثم النصر والتمكين والملك والعز ، على مَن أراد قهره وصغاره ، وكل هذا من صنع الله ﷻ بعبده المؤمن ، وكيده له سبحانه وحفظه وتوفيقه ، فهو ﷻ العليم الحكيم ، يكره مساءة عبده المؤمن ، وما يُقَدِّر له إلا ما فيه كمال سروره وراحته ، وصلاحه في دنياه وأُخراه ، نسأل الله ﷻ أن يُلْحِقنا بالصالحين .



رؤيا الملك وبداية الفرج

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الله سبحانه مقلب القلوب ، آخذٌ بنواصي العباد ، رب السماوات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ما من شيء إلا هو آخذٌ بناصيته ، انقطعت الأسباب الظاهرة بيوسف ﷺ ، ونُسي في السجن سنوات ، وانشغل الساقي بحياة الخمور ، وانشغل العزيز وامرأتُه والنسوة بتَرَفِهِم ، ونسوا الحين الذي أرادوا حبس يوسف ﷺ إليه ، وهكذا يُترك المظلومون في سجون الظلمة ، الذين لا يشعرون بآلام البشر ، ولا يُشْفِقُون على خلق الله ﷻ ، ولكن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، لا يَضِلُّ ولا يَنسَى ، هو الذي قدر على يوسف ﷺ دخول السجن لمصلحته ﷺ لا لمساءته ، لنفعه لا لضرره ، فحين جاء الأجل الذي قدره الله ﷻ ، ظهرت أسباب جديدة لم تكن تخطر بالبال ، ولا في قدرة أحد غيره ﷻ أن يأتي بها .

فهل ترى أحداً مِن الخلق يقدر على أن يُري نفسه أو غيره رؤيا ؟ بالقطع لا ، قَدَّرَ الله ﷻ أن يرى المَلِك - الذي هو فوق العزيز - رؤيا أفزعته وأقلقته ، وكم مِن رؤى يراها الملوك والناس ، ولا يعبأون بها ، ولا يبحثون عن تأويلها ، ولكن خالق الأسباب

ومُصَرِّفُ القلوب والأبصار ومدبر الأمر ، أرى المَلِكَ رؤيا ، وجعله يهتم بتأويلها وتفسير ما رأى فيها ، رأى : ﴿ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ عجاف أي : ضعيفات نحيفات ، ﴿ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ يابسات أي : جافات ، وسأل كبراء جلسائه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ تعبرون أي : تؤولون وتفسرون ، حاول الملأ كعادتهم صرف الملك عن التفكير والبحث في ما لا يُحْسِنُون ، فهذا شيء يُظْهِرُ جهلهم وعجزهم ، وهم دائماً على طبيعة ملأ الملوك وطريقتهم في أن كل ما يحتاج الملك إليه لديهم ، لكي لا يبحث عن غيرهم ، فسارَعوا إلى الفتوى بالجهل ، فقالوا : ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أي : أخلاط أحلام ، أحلام مختلطة بلا معنى ، هذا الجواب أآمن عليهم وأسلم ، لعل الملك ينسى هذا الحلم .

ولكن يبدو أن الملك لم يقنع بهذا الجواب ، فالرؤيا واضحة المعالم ، وليست بأخلاط ، والعدد فيها واضحٌ ولابد له من معنى ، والفعل من البقرات واضحٌ ولابد له من دلالة ، فكان الجواب الثاني منهم اضطراراً ، ومراعاةً لقناعة الملك ، فإنهم لا يستطيعون رَدَّ قناعة الملك ، إن ما يراه الملوك دائماً هو الصواب عند حاشيتهم ، طالما أصروا عليه ، فلابد أن يرجع كل الملأ عن رأيهم إلى رأي الملك ، فكان الجواب الثاني : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ ، عند ذلك تذكر الفتى الساقي الذي كان مع يوسف عليه السلام في السجن ، وقد نجاه الله – سبحانه – ببشارة يوسف عليه السلام له ، حين عَبَّرَ له رؤياه ، تذكر بعد أُمَّةٍ – أي : بعد مدة – أمرَ يوسف عليه السلام وقدرته على تعبير الرؤيا ، وصدقه العظيم الذي لمسه منه في أمره كله ، فقال : ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ ، تلمح في شخصية هذا الفتى ، أثر الخمر ومجالسها في سلوك الإنسان وأخلاقه ، هو شخصية وصولية ، تبحث عن اللذة والمصلحة الذاتية ، دون شعور بالآخرين يقول : ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم ﴾ ، يحاول أن ينسب إلى نفسه تأويل الرؤيا ، ليصل بذلك إلى منزلة عند الملك والحاشية ، كان العدل أن يقول : (أنا أعرف من يمكنه تأويل الرؤيا ، فأرسلوا إليه فأخرجوه من السجن ، وكرِّموه واسألوه) .

كان الإنصاف ساعتها أن يذكر للملك قصة يوسف عليه السلام المظلوم ، الذي دخل السجن لأجل عفته وطهارته ، لكنها الشخصية الانتهازية التي تحب أن تُحمد بما ليس فيها وبما لم تفعل ، يريد أن يعرف هو تأويل الرؤيا ويقصها على الملك دون أن يذكر حتى اسم يوسف عليه السلام ، إنه - في عُرفه وظنه - كنزٌ يمكن استغلاله قبل أن يصل إليه غيره ، ويفوز هو بالعطايا من الملك على تأويل الرؤيا ، ولذا حرص على أن يذهب إلى السجن ، ودون تفاصيل ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ ، إلى مَن ؟ لم يخبرهم حتى باسم يوسف عليه السلام ، أما هو فيكفيه كلمة طيبة ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ ، أما المروءة ، أما العدل ، أما الإنصاف ، أما رد الجميل لمن أحسن إليه ، أما السعي لنصرة المظلوم ، كل ذلك ذهب عن الرجل ، وذهب هو عنه ، ليس أهلاً له ، ولا هو أهل له ، الأعمال والأخلاق والأشخاص متناسبون ، فـ﴿ ٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور : ٢٦] من الأعمال والأقوال ، و﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾ [النور : ٢٦] ، أيضاً من الأعمال والأقوال .

أرسَلوا الرجلَ إلى السجن ، ذهب إلى يوسف عليه السلام الذي يوقن بِصِدِّيقِيَّتِه وإحسانه ، يظهر لؤمه وقبحه مرة ثانية ، لا يبادره باعتذار عن نسيانه إياه سنوات ، لا يبادره حتى بوعدٍ جديدٍ أن يَذْكُرَهُ عند الملك ، بل يقول له مباشرة : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ ، حتى لم يُخبره بأهمية الرؤيا ومَن رآها ، إنها رؤيا الملك ، يخشى الساقي لو علم يوسف عليه السلام بذلك لاشترط ، ولضاع عليه السبق الذي يتمناه لدى الملك ، مثل إنسانٍ عَلِمَ أن في يد فقيرٍ جوهرة غالية جداً ، يظن أنه لا يعرف قيمتها ، فيريد أن يأخذها منه بدون مقابل ، ودون أن يخبره بقيمتها العظيمة ، حتى ينفرد هو بالتمتع بها وبقيمتها ، الحقيقة أنه هو الفقير ويوسف عليه السلام كان الغني ، يقول الفتى : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ، هذه حاجته ، تعوَّد على أن يأخذ ولا يعطي ، يريد أن يرجع هو إلى الناس ، حتى لم يفكر أن يأخذ يوسف عليه السلام معه ، حاجته أن يرجع إلى

الناس ، وحاجة الناس إلى أن يعلموا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، لم يقل له : (حتى أرجع إلى الملك) ، بل إلى الناس ليقضي حاجتهم في المعرفة ، أين حاجة يوسف عليه السلام ؟! أين حق الصديق المظلوم ؟ أين حق الصُحبة ، وجزاء النِعمة ، ورد الجميل بالبشارة ؟ كل ذلك لا يهم ، نسيها الخمّار ، ولله الحمد أن نسيها ، ليظل يوسف عليه السلام أغنى بجميع المقاييس ، ليس لأحد عليه مِنَّة ، بل له المنة عليهم بعد الله عز وجل ، ليس لأحد عند يوسف عليه السلام من نعمة تُجْزَى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ، نعم والله سوف يرضى مِن أوسع الأبواب في الدنيا والآخرة .



تأويل رؤيا الملك

قال تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

لم يعاتبه يوسف ﷺ على ما قصر في حقه ، ونسي من مظلمته ، لم يقل له مَن رأى هذه الرؤيا ، وقد علم – بلا شك – من لهفة الرجل وشدة حرصه على معرفة التأويل ، ليرجع به ﴿ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أن هؤلاء الناس لهم شأن كبير ، لم يُشارطه على الخروج ، ولا حتى على الشفاعة عند الملك وذِكْر حاجته ، كرمٌ يليق بالكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، غِنًى عن الخلق يليق بمن أغناه الله عمن سواه ، رِفْعَةٌ تليق بمن رَفَعَهُ الله ﷻ درجات ، حِلمٌ يليق بحفيد – أو قُل : ابن – الخليل الحليم الأواه المنيب – عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام – .

ما أروع هذه الأخلاق !! يتعجب منها رسول الله ﷺ فيقول : « وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ ﷺ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ حِينَ سُئِلَ عَنِ البَقَرَاتِ العِجَافِ والسِمَانِ ، ولو كُنْتُ مَكَانَهُ مَا أَجَبْتُهُم حتى أَشْتَرِطَ أَنْ يُخْرِجُونِي ، وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ ، واللهُ يَغْفِرُ لَهُ حِينَ أَتَاهُ الرَسُولُ ، ولو كُنْتُ مَكَانَهُ لَبَادَرْتُهُم البَابَ ، ولَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَهُ العُذْرُ »[1] ، ولنصفه الأخير شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ في الصحيحين قال : قال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ ، وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ

(١) صحيح : رواه عبد الرزاق عن عكرمة مرفوعاً ، والطبري (١٢/ ٢٣٥) ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٤٥) .

يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ »[1] ، وقد قاله النبي ﷺ تواضعاً ، وإلا فهو سيد الناس ولا فخر ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

أجاب يوسف الفتى مباشرة : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ ، أي : فهذا تأويل البقرات السمان والسنبلات الخضر ، ثم زاده النصيحة لما يلزم عمله ، وهذا كرمٌ زائدٌ على مجرد التعبير ، فقال : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ ، أي : ليكون أبقى له وأبعد عن الفساد ، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ ، أي : إلا المقدار الذي تأكلونه خلال هذه السنوات ، ولكن ليكن أكلكم منه قليلاً ، ولا تغتروا بكثرة الخصب ، فتُسْرِفوا ، فلا يقوم لكم الأمر في السنوات الآتية ، وقال : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ ، وهذه هي البقرات العجاف والسنبلات اليابسات ، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ ، أي : تدخرون ، أي أن سنين الجدب سوف يؤكل فيها كل ما جمعتموه في سنين الخصب ، إلا قليلاً مما تدخرونه فإنه سوف يبقى ، فلن يصل الأمر إلى المجاعة ، فأرشدهم إلى الادخار ، وهذا أمرٌ زائدٌ على مجرد التعبير ، فهو كرمٌ جديدٌ ، ثم زادهم أمراً ليس له في الرؤيا ما يدل عليه ، والظاهر أن يوسف عليه السلام عرفه بالوحي ، فقال : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ ، فبشرهم بوجود الغيث .

قال ابن كثير - رحمه الله - : (هو المطر بعد السبع الشداد) ، ولا مانع من صحة هذا التفسير ، وإن كان المشهور أن النيل هو الذي قل إيراده حتى أصابهم الجدب ، ثم زاد بعد السنين السبع الشداد ، فحصل به الغوث ، فإنه لا تعارض بين فيضان النيل ، وبين أن الغوث هو المطر ، فإن النيل إنما يفيض بنزول المطر على منابعه ، كما أنه لا مانع أن يكون مع الفيضان مطرٌ ، فتزداد غلّة البلاد ، ويعصر الناس ما تعودوا على عصره من زيت ، أي : زيتون وبذور غير الزيتون تُعْصَرْ ، وكذا عصر العنب لاتخاذ السكر ، وروي

---

(١) سبق تخريجه ص (١٢٥) .

عن ابن عباس (يعصرون ، أي : يحلبون) ، فأدخل فيه حلب اللبن ، ولا شك أن كثرة اللبن من لوازم كثرة الخصب ، وكثرة الماء في الأنهار والأمطار ، والله أعلم .

ظهر كرم يوسف عليه السلام المضاعف فيما أَوّلَ به الرؤيا مجاناً ، وما نصح به الخلق ، رغم أن أكثرهم ليسوا مؤمنين ، ولكن الأنبياء والأولياء تملأ قلوبهم الشفقة على خلق الله ، والرحمة لهم ، وإرادة الخير بهم ، وهذه من أعظم أسباب حب الناس لهم ، وقبول دعوتهم ، وليست الدعوة بإبلاغٍ مجردٍ عن مشاعر الرحمة ، وإرادة الخير للناس ، بل المؤمنون خيرُ الناس للناس في دينهم ودنياهم .

رجع الفتى فَرِحَاً بالكنز الذي حصل عليه ، ويُحَدِّثُ نفسه أن يكون الجزاء له وحده ، ولكن الله المنان الكريم ، لا يضيع نبيه ووليه ، بل هو الذي أرى الملك الرؤيا ، وأهمه بها من أجل يوسف عليه السلام ، وهو سبحانه الذي يُقَدِّرُ سنين الرخاء والجدب ، ليعلم الناسُ فضل يوسف عليه السلام ، الملك أذكى مِن أن يقبل أن الفتى الخمّار هو الذي يُنَبِّئُ بتأويل الرؤيا مثل هذا التأويل ، ليس هذا من عقله ولا خُلقه ، ولا يناسبه هذا الجود والكرم ، وهو الشخصية الانتهازية الوصولية ، سأل الملك مَنْ أَوَّلَ هذه الرؤيا ، أُجيب بأنه يوسف عليه السلام ، فطلب الإتيان به .



ظهور البراءة

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

يختار العبد لنفسه أمراً ، ويختار له ربه ما هو أفضل وأحسن ، أراد يوسف عليه السلام أول ما دخل السجن أن يخرج منه بشفاعة ساقي الملك ، فاختار الله عز وجل له أن يخرج بطلبٍ من الملك له ، بل ويُعِزَّهُ أعظم من ذلك بأن يمتنع يوسف عليه السلام من الخروج حتى يعترفوا ببراءته وطهارته ، وفرقٌ كبير بين أن يخرج الإنسان من السجن ممنوناً عليه بشفاعةٍ ، وبين أن يخرج وهو الذي يَمُنُّ عليهم بإحسانه ، ويتجاوز عن إساءتهم وظلمهم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ ، أُعجب الملك بتأويل الرؤيا ، وألقى الله عز وجل في قلبه اليقين بصحة التأويل وصدقه ، وَعَرَفَ عِلْمَ يوسف عليه السلام وفضله وكرمه ، ورجاحة عقله فيما نصح به أهل البلد مع أنهم أساؤوا إليه وحبسوه ، ولا شك أن نفس أي إنسان تقف مبهورة أمام هذا التصرف الرائع ، بالإحسان إلى مَن أساء إليه ، والترفع عن الإساءة ، ويجد المرء في نفسه شعوراً بمدى غنى هذا المحسن ، غنىً مِن نوعٍ خاص يقف الملوك أمامه فقراء ، ويتمنى معه العيش في ظلال هذه النفس الغنية وبجوارها ، ويسعى إلى لقائها .

طلب الملك لقاء يوسف عليه السلام ، وأمر بإخراجه من السجن وحُقَّ له ذلك ، فنحن والله على بُعد الزمان نرجو لقاءه ، ونتمنى لو طوي الزمان لنأتي نحن إليه ، ونسأل اللهَ عز وجل أن يرزقنا مرافقته ومرافقة أنبيائه في الجنة

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ، امتنع يوسف عليه السلام من الخروج ، فليس السجن الآن يمثل ضيقاً وكرباً ، إن الرُّوح إذا ارتفعت بالقرب من الله عز وجل لم تَعُدْ أسوار الأرض وحواجزها تقف عقبةً أمام انطلاقها ، قال يوسف عليه السلام لرسول الملك بصيغة الأمر : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي : إلى سيدك ومَلكك ، ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ، عَرَّضَ يوسفُ عليه السلام بالملك بهذا الأسلوب الرفيع الذي لا يجرح ، فربُّك أيها الرسول لا يعلم شيئاً عن أمر النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أيديهن ، وهنَّ شاهدات على مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وبراءته، وربُّ يوسف عز وجل ﴿ بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ، ومعلومٌ أن الأمر بالسؤال للملك وهو لا يعلم شأن النسوة ، سوف يقتضي بحثاً عن إجابةٍ وتحقيقاً وتحرِّياً .

وقد تمَّ بالفعل واختصره القرآن ، وواضحٌ ذكاء الملك وفطنته ، فإنه ما واجه النسوة حتى أحاط بالأمر عِلماً فقال : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، فهو سؤال عالمٍ بالحال ، وليس سؤال مستفسرٍ مستفهم ، بل مقررٍ مؤكدٍ ، وقد تبين من قول يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ مع قول الملك : ﴿ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أن النسوة اشتركن جميعاً في المراودة والكيد ، هذا هو ظاهر القرآن في مواضع عِدة ، ههنا وفي قول يوسف عليه السلام : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ ، وإن كان ابن كثير - رحمه الله - قد جعله من باب التعريض بامرأة العزيز دون التصريح باتهامها ، فقال - رحمه الله - : (وقوله تعالى : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ إخبارٌ عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قَطَّعْن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطباً لهنَّ كلهن ، وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز ، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾

أي : شأنكن وخبركن ، ﴿ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ يعني : يوم الضيافة ، ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ ، قالت النسوة جواباً للملك : حاش لله أن يكون يوسف عليه السلام متهماً ، والله ما علمنا عليه من سوء ، فعند ذلك ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحدٍ : تقول : الآن تبين الحق وظهر وبرز ، ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي في قوله : ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾) أ . هـ .

والذي يظهر ما قدمناه من أن النسوة جميعاً اشتركن في الكيد والمراودة ، لأنه ظاهر القرآن ولا دليل لصرفه عن ظاهره ، ولأنه طبيعة هذه النوعية من النساء ، وكان من البداية مَكْرُهُنَّ ، كما قال ﷻ عن امرأة العزيز : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ ، ثم إن الملك في هذا المقام مقام المحقق الذي اكتشف خللاً في مملكته ، وتدبيراً يُدبّر في الخفاء لظلم الأبرياء وتبرئة المجرمين ، هذا المقام لا يقتضي إلا التصريح ، ولذا واجه النسوة جميعاً بالتُهمة الصريحة ، التي هي شديدة الألم على نفس أي امرأة ، فقال : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، فلم يُعَرِّضْ .

وتأمل كيف أن يوسف عليه السلام وهو في مقام الدفاع عن نفسه ، لم يذكر حقيقة جريمة النسوة وهي المراودة ، وإنما ذكر الشأن العجيب الذي بالبحث عن سببه وما تلته من أحداث ، سوف يدل على الجريمة ، فقال : ﴿ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ولم يقل : (اللاتي راودنني عن نفسي) ، وأشار إلى فِعلتهن بقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ، فهو يدفع الملك للبحث ومعرفة الحقيقة دون أن يُصَرِّح هو بها ، أدباً عالياً ورفعةً وحياءً ، وقد تولَّى الملكُ التصريحَ وفضح المجرم ، فهذا كله يناسبه أن يكون التصريح الذي وقع على ظاهره ، فليس المقام مقام تعريض والله أعلم .

عند ذلك اعترفت النسوة ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ أي : تنزيهاً لله وتسبيحاً له أن يكون يوسف عليه السلام مُتَّهَماً بسوءٍ ، ومعاذ الله أن نتهمه بما نعلم براءته منه ، ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ

مِن سُوٓءٍ ﴾ ، وانظر إلى هذه التبرئة المؤكدة : ﴿ مِن سُوٓءٍ ﴾ فهي تُفيد تأكيد عموم النفي من أي سوء ، وفي هذا دليل على أن القرائن القوية ينبغي اعتمادها لدفع المتهَم إلى الاعتراف ، وقد يحتج بها مَن يرى صحة اعتبار القرائن القوية - كالبينات في إثبات الحقوق - أو وجوبها ، كابن القيم - رحمه الله - ، فإنه يبالغ في إثبات ذلك ، والجمهور من المذاهب الأربعة على خلافه ، فلابد من البينات من شهادة العدول أو الاعتراف ، وشهادة النساء وحدهن ليست ببينة ، إنما هي قرينة ، فهو يدل على ما ذكرنا من دفع المتهَم للاعتراف ، وذلك باستعمال القرائن ومواجهته بها ، أما أن يعتمد عليها ابتداءً ، فلا دلالة فيه على ذلك والله أعلم .

وإن كانت التهمة هنا لا تُوجب حداً ، ولكنها جريمة أدت إلى سجن إنسان كريمٍ غاية الكرم ظلماً وعدواناً سنين طوالًا ، حتى لو لم يصل الأمر إلى فعل الفاحشة إلا إنه أدى إلى ظلمٍ شديدٍ لنبيٍ كريمٍ في بدنه وعرضه ، فلابد من تبرئته ببينة هي أوضح البينات ، وليس بأمرٍ مشكوكٍ فيه محتمل وهو شهادة النسوة ، ولا أوضح من الاعتراف ، ولهذا واجه الملك الجميع بتحرياته ومعلوماته التي صارت عنده مؤكدة تضطر النسوة ثم امرأة العزيز إلى الاعتراف الصريح وقد كان ؛ ﴿ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ .

ما أشد فضيحتها وهي تعترف أمام الملك وملئه - ومنهم زوجها بالطبع - أنها هي التي راودت يوسف عليه السلام عن نفسه ، إنه لأمرٌ تستحيي المرأة الحيية أن تقوله لزوجها حكايةً عمّا يجري بينهما في غرفة مغلقة ، فضلاً عن أن تقوله لغيره سِراً ، فضلاً عن أن يكون حكايةً تقولها لغير زوجها ، فضلاً عن أن يكون علناً ، وأي علن ؟ إنه أمام الملك وزوجها ورجال الدولة ، والله إنها لعقوبة كفى بها عقوبةً وذُلاً ، وهواناً وعاراً عليها وعلى النسوة معها ، تَفَكَّر معي في موقف العزيز وأزواج النسوة الذين سمعوا مثل هذه الكلمات ، وكيف أصابهم الخزي في هذا المقام ، وحُقَّ لهم أن يُخْزَوا وقد استجابوا وهم الرجال المُمَكَّنُون المطاعون لكيد النساء حتى نَفَّذُوا مكرهن ، فالذي أدخل يوسف عليه السلام

السجن الرجال ، وإن كان عن أمر النساء فلهم نصيب يستحقونه من الخزي والفضيحة أمام الملك وأمام الناس والملأ ، فهذه عاقبة الظلم واتباع الشهوات والاستجابة للأهواء المنحطة ، ثم يُقَدِّرُ اللهُ الحَكَمُ العَدْلُ زوال هذا التمكين وتلك الرياسة التي استغلوها في غير ما وُضِعَت في أعناقهم من أجله ، فإنما جُعِلَتْ في أعناقهم لإقامة الحق والعدل والأمر بالمعروف الذي أساسه توحيد الله ﷻ ، والنهي عن المنكر الذي أعظمه الشرك بالله ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج : ٤١] ، فجعلوها هم للإفساد في الأرض ونيل الشهوات المحرمة ، وأعظم ذلك عبادة غير الله – سبحانه – والشرك به ، ولذا كانت نهاية أمر العزيز وزوال مُلكه عِبرةً لكل من لا يؤدي الأمانة ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

قال تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : ظهر وبان ، وقد كان ظاهراً لها قبل ذلك ، ولكنها إنما تعمى القلوب أو تتعامى وتظن أن ظلمة الظلم تستمر إلى الأبد وأن شمس الحق لن تسطع ، وهيهات أن يكون أمر النور والظلام بأيدي الخلق ، فكما أن الليل والنهار ليس بأيديهم ، وأن الشمس والقمر ليسا بأيديهم ، فكذلك تسطع شمس الحق رغماً عنهم ، وتضمحل ظُلْمَة الظَلَمَة اضطراراً وقهراً عليهم ، ولا ينتفعون بالحق عند ذلك إلا أن يتوبوا إلى الله – سبحانه – ، إن مداولة أيام العز والذل والتمكين والاستضعاف والمُلك وزواله إنما هو بيد الله ﷻ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] ، يجعل سبحانه العبيدَ ملوكاً بطاعته ، والملوكَ عبيداً بمعصيته ، كما يُنْقَلُ هذا من كلام امرأة العزيز إذ وقفت على الطريق حتى مر يوسف عليه السلام فقالت ذلك والله أعلم ، وفي القرآن عن الإسرائيليات غُنْيَة ، فإن عز يوسف عليه السلام يسطع كالشمس من خلال هذه الآيات ، وذُلَّ مَن سجنوه وآذوه يظهر جلياً بغير خفاءٍ كذلك ، والمتأمل لذكر القرآن لهذه المواقف وسردها بالتفصيل يُدْرِكُ

سراً عظيماً من أسرار علاج القرآن للهم والحزن ، وكونه لأهل الإيمان ربيع قلوبهم ونور صدورهم وجلاء أحزانهم وذهاب همومهم وغمومهم ، وذلك أن الله – سبحانه – يذكر مواقف عز أوليائه وهزيمة أعدائه بتفصيل دقيق ، يُوقِفُكَ عند أجزائه ويُشْعِرُكَ بلذة الوقوف على تفاصيل النصر طويلاً ، يأخذ ذكر ذلك مساحة واسعة من الآيات في حين تأخذ مواقف الابتلاء مساحة أقل بكثير ، إلا ما كان من معاني الإيمان وفوائد الدعوة والتربية ، فتأمل مثلاً قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ ، تجد أن مدة لبث يوسف عليه السلام في السجن ذُكِرَتْ في خمس كلمات ، ثم تأمل أن أياماً معدودة لاح فيها عِزّه ونصره من لحظة أن قال الفتى : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ إلى قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ اثنتا عشرة آية تقف مع كلماتها التي يشع منها نور العِزَّة والتدبير والقدرة والتمكين ليوسف عليه السلام ، قد طُوِيَ زمن الابتلاء حتى صار صغيراً كأنه لحظة ، وطال ذِكْر ساعة الإعزاز حتى يسعد كل مؤمن بها ، ويستحضر كأنه حاضر هذه المجالس ، سامع هذه الأقوال ، شاهد هذه الأفعال ، فوالله إن ذلك ليُزيل همَّ المهموم ، ويُذهب كرب المكروب ، ويُحيي رجاء من يحاول الشيطانُ تقنيطه وإضلاله ، وتلحظ مثل هذا أيضاً في قصة موسى عليه السلام ، فسنون طوال من تذبيح أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم تُذْكَرُ في كلماتٍ ، ولحظاتُ النصر والإعزاز يوم النصر على السحرة وسجودهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٧-١٢٢] تُذْكَرُ في آياتٍ عِدة ، فلو أَعْطَيتَ كلَ كلمة وكل آية حقها من التدبر لَعِشْتَ مع موسى عليه السلام لحظات هذا النصر طويلة عزيزة كريمة ، ذَلَّ فيها الباطل وصَغُر ، وانتصر فيها الحق وظهر ، تَشفي صدور قوم مؤمنين ، وتُذهب غيظ قلوبهم ، وتطوي عنهم سنين الألم حتى تمر كأنها لحظة ، وكذلك في ذكر هلاك

فرعون ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الشعراء : ٥٢-٦٦] ، وكذا في سورة الأعراف ، وكذا نجد في قصص الأنبياء كثيراً ، تُذْكَرُ لحظات النصر باستفاضةٍ وسنوات البلاء بإجمالٍ ، لتتضح العاقبة وتصبر النفوس وتوقن بوعد الله ﷻ ، وأما ما كان من الفوائد الإيمانية والدعوية والجهادية فتجدها بالتفصيل ، فحوار يوسف عليه السلام مع صاحبيه في السجن ذُكِرَ بالتفصيل في ست آيات طويلة لما فيه من الفوائد العظيمة ، وهزيمة المسلمين في غزوة أحد ذُكرت تفاصيلها في سورة آل عمران لتصحيح مسار الطائفة المؤمنة في زمن رسول الله ﷺ ، ثم عَبْرَ التاريخ في كل المواقف المشابهة ، فعلى المرء أن يبذل جهده ليعيش مع الأحداث التي يقصها علينا القرآن كأنه حاضرها ليزداد إيماناً وعِلماً ، ويحيى قلبه بشهود آثار الأسماء والصفات ، ويستنير برؤية ملكوت السماوات والأرض ، وينجلي عنه حزن آلام الاستضعاف ومرارة الظلم وطول البلاء ، ويذهب عنه هم استبطاء الفرج والنصر ، والله المستعان يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وأما قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فظاهر سياق القرآن أنه من كلام امرأة العزيز إذ لم يفصله عن كلامها ، ولم يذكر (قال) أو نحوها ليدل على قطع كلامها ، فيكون المعنى أن امرأة العزيز ذكرت ذلك أمام الملك والملأ ليعلم زوجها أنها لم تخنه بفاحشة الزنى في غيبته ، وأنه إنما كان مراودة لم تزد على ذلك ، وأن المحظور الأكبر لم يقع ، ثم قررت : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ ، وقد

ذكر الله ﷻ كلامها مقرراً لذلك دون إنكار ، فهي قاعدة كلية في كل زمان ومكان وصالحة لكل واقعة ، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ ، فكل خائنٍ للأمانة التي جعلها الله ﷻ في عنقه سواء أكانت بينه وبين الله تعالى كالتكاليف الشرعية ، أم بينه وبين الناس كالولايات على أمور المسلمين العامة منها والخاصة وكالأمانات التي يستأمنه عليها الناس ، كل خائن لشيء من هذه الأمانات ومضيع لها فالله ﷻ لا يهديه ، ولا يتحقق له ما يريد وما يُخطط له ويمكر له ، بل يُضل سعيه ويُحبط عمله ، وفي هذا بشارة لأهل الإيمان في صراعهم مع أهل الباطل الذين يكيدون بهم ويخونون أماناتهم ، فسوف يضمحل كيدهم ويزهق باطلهم لأن الله ﷻ من صفته اللائقة به ﷻ أنه لا يهدي كيد الخائنين ، كما قال ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] وقال : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر : ٤٣] ، فله الحمد ﷻ كفى المؤمنين كيدَ الكافرين والظالمين والخائنين ، بأمرٍ من عنده إذ هو مقتضى صفته ﷻ ، فما بالنا نقلق إذن من كيدهم أو نجزع من مكرهم وقد تكفل الله لنا بهم ؟ ثم لما كان قول امرأة العزيز : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ متضمناً نوعاً من تبرئة النفس ، وذكر العذر مع أن المقام مقام اعتراف بالذنب والخطيئة ، بادرت باتهام نفسها فقالت : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وقد أجرى الله ﷻ على لسانها كلماتِ حقٍ ينبغي أن تظل نُصب عين كل واحدٍ منا وهو يراقب نفسه ويسعى إلى تهذيبها وتزكيتها ، فلابد من عدم تبرئة النفس ، إذْ تبرئتها وعدم التفتيش عن عيوبها من أعظم أسباب ضياعها ، وقد حذَّر الله – سبحانه – من تزكية النفس ومدحها فقال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٢] وبداية تزكية النفس ومدحها هو تبرئتها وعدم اتهامها ، فالعاقل يعامل نفسه كالشريك الخوان الذي لابد من دوام مراقبته ومحاسبته وإلا ذهب برأس المال والربح معاً ، وشهود أن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله ﷻ من أسباب زوال العُجب والكِبر عن الإنسان ، فالخير الذي فيه ليس من نفسه وإنما هو من الله ﷻ رحمةً منه – سبحانه –

بعبده أن أعانه على نفسه كثيرةِ الأمر بالسوء ولم يَكِلْهُ إليها ، وكان من دعاء النبي ﷺ : « **ولَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ** » (١) ، وكان في خطبته ﷺ يقول : « **وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا** » (٢) .

فالنفس الإنسانية ظالمة جاهلة أمارة بالسوء ، هذه حقيقتها إلا أن يرحمها الله عز وجل بالعدل والعلم ، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها فهو خير مَن زَكَّاهَا هو وليها ومولاها ، فإذا زَكَّاهَا جعلها مطمئنة مخبتة ساكنة إلى أمر الله – سبحانه – ، تؤدي الحقوق بسماحة وسهولة ويُسر وعدم منازعة للقلب الذي هو محل الإيمان والعلم ، بل يصل إلى أن يُصبح أداء الحقوق والعبادات لذة لها وراحة كما كان رسول الله ﷺ يقول عن الصلاة : « **يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا** » (٣) ، وكان يقول : « **حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُم : الطِّيبُ ، وَالنِّسَاءُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ** » (٤) ، فعند ذلك يجد الإنسان ألم المعصية ولذة الطاعة وحلاوة الإيمان ، فيعيش في نعيم قبل النعيم ، ويدخل جنة الدنيا التي مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وكل هذا إنما حصل بتزكية نفسه الذي أصله أن يشهدها على حقيقتها : ﴿ **لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ** ﴾ ، ونلحظ في قول امرأة العزيز : ﴿ **إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ التأثر الواضح بعقائد الإيمان التي دعا إليها يوسف عليه السلام وتعريفه الناس بربهم عز وجل ، ولا شك أن هذه المعرفة بأسماء الله وصفاته خاصةً الرب والغفور والرحيم من أسباب الخير العظيم للإنسان ومن علامات نجاته حتى مع ما سلف من التقصير ، وذلك إذا قام الإنسان بعبودية هذه الأسماء ، وهي تقتضي توبة صادقة لله عز وجل فإنه عز وجل لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ، وأما أن يكون الأمر مقتصراً على تحريك اللسان مع ترك الجوارح تنطلق في المحرمات ، وترك النفس على جهلها وظلمها

---

(١) حسن : رواه أبو داود (٥٠٩٠) ، وأحمد (٢٧٨٩٨) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٢٠ ، ٣٣٨٨) .

(٢) صحيح : رواه النسائي (١٤٠٤) ، وأبو داود (١٠٩٧) ، وابن ماجة (١٨٩٢) ، والترمذي (١١٠٥) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (١٥٣٦) .

(٣) صحيح : رواه أبو داود (٤٩٨٥) ، وأحمد (٢٢٥٧٨) المسند ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢) .

(٤) صحيح : رواه النسائي (٣٩٣٩) ، وأحمد (١١٨٨٤) المسند ، والبيهقي (١٣٢٣٢) واللفظ له ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤) .

والخراب يعشش فيها ، فإذا ذُكِّرَ بها لله عليه قال : (إن الله غفور رحيم) ، فهذا من الأماني والغرور ، وما أحسن ما قال الحسن - رحمه الله - : (الإيمان ما وَقَرَ في القلب وصدقه العمل ، وكم أناس خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم يقولون نحسن الظن بالله ، كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل) أ . هـ .

هذا الذي ذكرناه من أن هذا الكلام كله من كلام امرأة العزيز ، وهو ظاهر الآيات ، هو الذي رجحه ابن كثير - رحمه الله - ، وانتصر له شيخ الإسلام ابن تيمية في تصنيفٍ له ، وهو الذي حكاه الماوردي في تفسيره ، والقول الثاني : إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام من قوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي : ليعلم الملك أني لم أخنه في زوجته حين غيابه ، وأنه لما قال ذلك قال له جبريل عليه السلام : (ولا يوم هممت بها هممت به ؟) فقال : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبي الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدي وهو الذي لم يَحْكِ ابن جرير وابن أبي حاتم غيره .

قال ابن كثير منتصراً للقول الأول : (والقول الأول أقوى وأظهر ، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك) أ . هـ .

وهذا الذي قوَّاه هو الصحيح ، ويؤيده أن العزيز كان يعلم أن يوسف عليه السلام لم يخنه ، وكان يعلم براءته بنص الآيات ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ فكان يعلم أنها الخاطئة وأن يوسف عليه السلام أمين كريم ، وقد قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ، وقد سبق بيان أنها آيات براءته وصدقه وعِفته ونزاهته ، إذن فيوسف عليه السلام لا يحتاج إلى تبرئته عند العزيز ، ثم إن ذكر ما قاله جبريل ليوسف - عليهما السلام - : (ولا يوم هممت بها هممت به ؟)

هو من الإسرائيليات التي دل القرآن على عدم صحتها ، لأن الله عز وجل برأ يوسف عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، وحديث النفس الذي استعاذ الإنسان منه بالله وصرفه الله عز وجل عنه ، وهو أمر جبليّ فطريّ ، يثاب الإنسان على تركه لله عز وجل ، ولا يُلام عليه ، وأيُّ النفسين أولى بالذم وعدم التبرئة ؟! نفس يوسف عليه السلام الذي خاف الله عز وجل واتقاه وأخلص له فأخلصه الله له وصرف عنه السوء والفحشاء ، أم نفس امرأة العزيز التي فعلت وباشرت وكادت ؟! أيُّ النفسين أولى بأن تكون أمارة بالسوء أي : كثيرة الأمر به فهي مُبَالِغَةٌ في ذلك ؟! نفس يوسف الذي أول ما دُعِيَ إلى الفاحشة قال : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ ، واختار السجن على الإجابة لداعي الحرام ، أم نفس امرأة العزيز التي بالفعل تكرر منها الأمر بالسوء مرة بعد مرة ، ومقتضى هذا الأثر الإسرائيلي ما كان ينبغي أن تكون هناك تبرئة ليوسف عليه السلام من الخيانة ، فيكون المعنى أنه كان له نصيب من ذلك فإنه فيه كما ذكره ابن جرير بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : (لما جمع النسوة فسألهن : هل راودتن يوسف عليه السلام عن نفسه ؟ ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ قال يوسف : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ، فقال جبريل عليه السلام : (ولا يوم هممت بها هممت به ؟) فقال : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فمقتضى هذا الكلام أنه كان هناك نوع من الخيانة للرجل بِالهَمِّ الذي حدث ، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن في المواطن المختلفة ، فصاحب الشأن (العزيز) لم يتهم يوسف عليه السلام بالخيانة ، والمرأة أقرت بجريمتها وبراءته ، والنسوة قلن : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ ، ونزهن الله عز وجل في هذا المقام أن يكون قد اختار نبياً يقع منه خيانة من هذا النوع أو سوءاً بهذه الطريقة ، والملك أثبت براءته ، وإبليس قد أقر أنه لا يغوي عباد الله المخلصين ، ويوسف عليه السلام بشهادة القرآن منهم ، فماذا بعد ذلك البيان ؟ وماذا بعد شهادة الله له بأنه صرف عنه السوء والفحشاء ؟ فالذي نراه هو الصواب في هذا المقام ما

رجحه الأئمة ابن تيمية وابن كثير وغيرهما : أن الكلام كله في سياق واحد من كلام امرأة العزيز ، ليس شيء منه من كلام يوسف عليه السلام ، وقد ذكرنا وجه ذكر المرأة لرحمة الله ومغفرته ، ووصف نفسها بالأمارة بالسوء ، وأن هذا من الحق الذي أجراه الله عز وجل على لسانها ، وهو من آثار دعوة يوسف عليه السلام فيهم ، إذ كان لا يألو جهداً في الدعوة والبيان ، وإذا كان قد دعا وهو في السجن فكيف بدعوته خارجه ؟ وكيف بدعوته وهو مُمَكَّنٌ ؟ وقد شهد الله عز وجل له بذلك في قوله تعالى عن مؤمن آل فرعون لقومه : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ [غافر : ٣٤] ، فلا يُتعجب من كلام حقٍ تقوله امرأة العزيز في مثل هذا المقام ، والله أعلم .





الابتلاء بالملك

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾

أدرك الملك أن لديه رجلاً لا يوزن بالذهب ولا بالجواهر ، ولا يقوم مقامه آلاف الرجال ، لقد اكتشف كنزاً ثميناً ، بل أغلى من الكنز بكثير ، وعثر على جوهرةٍ غاليةٍ ، بل أغلى من ذلك بكثير ، كانت كلمته الثانية أبلغ بلا شك من الأولى ، كانت الثانية : ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ عن علمٍ ويقين ، بعد أن كانت كلمته الأولى : ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ محتملة للبحث والتنقيب والاستفصال ، وكانت الثانية بعد أن علم إحسانه وكرمه وجوده وصبره وحلمه ، رغم أنهم الذين سجنوه ظلماً وعدواناً على غير تهمة ولا جريمة ولا جناية ، بل على العفة والطهارة والأمانة ، ما أحسن ما يصنعه الله ﷻ لعبده المؤمن ! وما أجمل هذا الخروج ليوسف عليه السلام معززاً مُكَرَّمًا ، مرغوباً في لقائه ، معلومة براءته ، مذكوراً بكل جميل من جميع الألسن ، محسناً إلى الناس لا ممنوناً عليه في الخروج ! ووالله إنه لأكمل مرات ومرات مما لو خرج يوم قال لساقي الملك : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، وأكمل مما لو خرج يوم جاءه رسول الملك بعد تأويل الرؤيا ، ووالله إنه لعجبٌ يُتعجب منه ، من صبره وحلمه هذا الصبر والحلم العظيم ، وحسن العاقبة التي جعلها الله ﷻ لهذا الصبر والحلم ، ما أقلّ صبرنا ! وما أكثر استعجالنا ! وما أقل علمنا حين لا نفوض الأمور للكريم المنان ، الرحمن الرحيم الذي لا يضيع أجر المحسنين ! اللهم لك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت ، نستغفرك ونتوب إليك .

أمر الملك بإحضار يوسف عليه السلام إليه ليستخلصه لنفسه ، قال ابن كثير – رحمه

الله - : (أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتي) ، أراد الملك القرب من يوسف عليه السلام وأن يكون له ، وحُقَّ له ذلك ، فلما كلمه عرف المزيد والمزيد من كرمه وفضله وإحسانه ، ورأى ما هو عليه من خُلُقٍ وخَلْقٍ وكمالٍ مبهرٍ ، فقال له الملك : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي : إنك عندنا اليوم ذو مكانة عظيمة وأمانة ، ظهرت علامات التعظيم من الملك ليوسف عليه السلام ، وبدت أمارات الطاعة والمتابعة ، وعلم يوسف عليه السلام أن الرجل يُسَلِّم له في كل ما يطلبه منه فقال عليه السلام : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : حافظٌ لما يُستودع من أمانات ، عليمٌ بما يُصنع للناس في سني رخائهم وجدبهم ، وحذف الجواب الصريح للعلم به أنه قد أجيب ، فالملك لا يرد له طلباً ، وقد ضمن هذا قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ ، وههنا مسائل :

الأولى : حكم طلب الولاية .

الثانية : حكم العمل للكفار في شيء من ولايتهم .

والثالثة : حكم تزكية النفس في هذا المقام .

وكلها من أهم المسائل التي يكثر الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام عليها .

المسألة الأولى : حكم طلب الولاية والإمارة :

رَوَى البُخَارِيُ وَمُسْلِمُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ ، قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ : « **لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا** »[1] أي تركت إليها ، وَرَوَى مُسْلِمُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ : « **يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ**

(١) رواه البخاري (٦٧٢٢) ، ومسلم (١٦٥٢) ، والترمذي (١٥٢٩) .

وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ »[1] ، وروى – أي مسلم عن أبي ذر أيضاً – عنه ﷺ ، قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي ، قَالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ، ثُمَّ قَالَ : « **يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ القِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا** »[2] ، وَرَوَى البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَنِعْمَ المُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ** »[3] .

فهذه الأحاديث صريحة في النهي عن سؤال الولاية والإمارة ، وأن من سألها تُرِكَ ولم يُعَنْ ، فيكون ذلك سبباً في خزيه وندامته يوم القيامة ، وثبت أن النبي ﷺ قال : « **إِنَّا وَالله لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا العَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ** »[4] ، فالأصل في الإسلام أن لا يطلب الإنسان الولاية ، ولا يرشح نفسه لها ، وهكذا كانت خلافة الخلفاء الأربعة الراشدين ، فما طلب أحدٌ منهم الخلافة ، بل قال أبو بكر ﷺ يوم السقيفة : (قَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ)[5] ، يعني : عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح ، فقال له عمر ﷺ : (يرضاك رسول الله ﷺ لديننا ، ولا نرضاك لدنيانا) فبايعه عمر ﷺ ، وأما عمر ﷺ فاستخلفه أبو بكر ، وعثمان ﷺ بايعه عبدُ الرحمن بن عوف لما جعل علي وعثمان الأمر إليه ، وعلي ﷺ بايعه طلحة والزبير ورؤوس الصحابة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام ، فلم يطلب واحد منهم الإمامة .

وأما وجه الجمع بين هذه الأدلة ، وبين طلب يوسف عليه السلام الولاية فهو : أن الولاية إذا تعينت على شخص لعدم صلاحية غيره لها ، ولم يقدمه غيره لها ، فالحاجة داعية إلى طلبها ، فعند ذلك يجوز ، وربما وجب عليه طلبها ، إذا لم يكن هناك سبيل إلى تولية القوي الأمين إلا بذلك ، والمجتمع الإسلامي الأصل فيه أن العلم والعمل هو

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٦) ، والنسائي (٣٦٦٧) ، وأبو داود (٢٨٦٨) .
(٢) رواه مسلم (١٨٢٥) .
(٣) رواه البخاري (٧١٤٨) ، والنسائي (٤٢١١) .
(٤) رواه البخاري (٧١٤٩) ، ومسلم (١٧٣٣) واللفظ له .
(٥) رواه البخاري (٦٨٣٠) .

الذي يُبرز الكفاءات حتى يقدمها أهل الحل والعقد ، ويوسف عليه السلام لم يكن في هذا المجتمع المسلم ، ولا يوجد مَن يُقدمه ، ولذا طلب الولاية ، فلا ينبغي اعتماد هذا دليلاً على مشروعية نظام الترشيح والانتخاب الغربي في بلاد الإسلام ، وهذا النظام الذي يقوم على ذكر حسنات النفس وتزكيتها ، وعيب الآخرين ونقصهم ، ولا شك أن هذه الصورة ليست هي الصورة الصحيحة ، ولا عرفها المسلمون عبر عصورهم المختلفة ، فلا يجوز أن يقال إنها الشورى في الإسلام ، خصوصاً أن مرد الأمر عندهم إلى العامة والدهماء ممن لا يعرف صفات الولاة الواجبة ومن يستحقها ، وإنما يعتمدون على العصبيات والقرابات والمصالح والأموال ، فما أقبحها من صورة تضيع فيها الأمانات ، ويُوسد فيها الأمر إلى غير أهله ! أما لو اضطر بعض المسلمين إلى طلب الولاية بالشرط الذي ذكرنا من تَعَيُّنِها ووجود الحاجة إلى الطلب ، فلا يجعل هذا أصلاً شرعياً يستمر عليه ، أو يعتمده المسلمون كنظام لحياتهم ومجتمعهم ووظائفهم ، والله أعلم(١) .

---

(١) قال النووي – رحمه الله – في شرح صحيح مسلم : باب كراهة الإمارة من غير ضرورة ، في شرح حديث أبي ذر « **يَا أَبَا ذَرٍّ : إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا......** » الحديث : (هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات ، لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية ، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً لها ، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها فيخزيه الله ﷻ يوم القيامة ويفضحه ، ويندم على ما فرط ، وأما من كان أهلاً للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة كحديث : « سبعة يظلهم الله » والحديث المذكور هنا عقب هذا : « **إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا** » وغير ذلك ، وإجماع المسلمين منعقدٌ عليه ، ومع هذا فلكثرة الخطر فيها حذره ﷺ منها ، وكذا حذر العلماء ، وامتنع منها خلائق من السلف وصبروا على الأذى حين امتنعوا) أ . هـ .

وقال الشوكاني في نيل الأوطار (١٠/ ٢٤٤) في فوائد حديث عبد الله بن سمرة « **لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ....** » الحديث : (ويستفاد من هذا الحديث أن طلب ما يتعلق بالحكم مكروه ، فيدخل في الإمارة القضاء والحِسْبَة ونحو ذلك ، وأن من حرص على ذلك لا يُعان ، ويعارض ذلك في الظاهر حديث أبي هريرة المذكور في آخر الباب [يعني الحديث الذي رواه أبو داود مرفوعاً (٣٥٧٥) : « **مَنْ طَلَبَ قَضَاءَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَنَالَهُ ثُمَّ غَلَبَ عَدْلُهُ جَوْرَهُ فَلَهُ الْجَنَّةُ ، وَمَنْ غَلَبَ جَوْرُهُ عَدْلَهُ فَلَهُ النَّارُ** » ، قال الشوكاني لا مطعن في إسناده ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد حُمل على ما إذا لم يوجد غيره] ، قال الشوكاني : وقال الحافظ : ويُجمع بينهما أنه لا يلزم من كونه لا يعان بسبب طلبه ، أن لا يحصل منه العدل إذا ولى ، أو يحمل الطلب هنا على القصد وهناك على التولية ، وبالجملة فإذا كان الطلب مسلوب الإعانة تورط فيما دخل فيه وخسر الدنيا والآخرة ، فلا تحل تولية من كان كذلك ، وربما كان طالب الإمارة مريداً بها الظهور على الأعداء والتنكيل بهم فيكون في توليته مفسدة عظيمة ، قال ابن التين : محمول على الغالب وإلا فقد قال يوسف عليه السلام : ﴿ **ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ** ﴾ ، وقال سليمان عليه السلام : ﴿ **وَهَبْ لِي مُلْكًا** ﴾ ، قال : ويحتمل أن يكون في غير الأنبياء – عليهم السلام – . انتهى . قلت : ذلك لوثوق الأنبياء من أنفسهم بسبب العصمة من الذنوب ، وأيضاً لا يُعَارِضُ الثابتَ في شرعنا ما كان في شرع غيرنا ، فيمكن أن يكون الطلب في شرع يوسف عليه السلام سائغاً ، وأما سؤال سليمان فخارج عن محل النزاع ، إذ محله سؤال المخلوقين لا سؤال الخالق ، وسليمان عليه السلام إنما سأل الخالق .) أ . هـ .

قال ابن حجر - رحمه الله - في فتح الباري : (قال المهلب : الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها ، حتى سُفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج وعظم الفساد في الأرض ، قال : ويستثنى من ذلك من تعين عليه كأن يموت الوالي ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره ، وإذا لم يدخل في ذلك يحصل الفساد بضياع الأموال ، قلت : وهذا لا يخالف ما فرض في الحديث الذي قبله من الحصول بالطلب أو بغير الطلب ، بل في التعبير بالحرص إشارة إلى أن من قام بالأمر عند خشية الضياع يكون كمن أعطى بغير سؤال ، لفقد الحرص غالباً عمن هذا شأنه ، وقد يغتفر الحرص في حق من تعين عليه لكونه يصير واجباً عليه) أ . هـ .

المسألة الثانية وهي تولي الولايات للكفار :

فهل يجوز للمسلم أن يعمل للكفار والظلمة في الوظائف التي تستلزم ممارسة بعض الظلم وربما الكفر لمراعاة المصلحة ؟ فنقول : إن الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام على ذلك فيه نظر لعدة وجوه :

الأول : أن ذلك واقعة عين محتملة ، إذ يحتمل أن يكون الملك قد أسلم على يدي يوسف عليه السلام ، ذكره مجاهد ، يؤيده أن الله لم يصفه في كل المواضع بفرعون ، ومعلومٌ أن فرعون لقبٌ لكل من ملك مصر كافراً ، ويؤيده أيضاً أن الكلام بحضرته بالثناء على الله بأنه الرب الغفور الرحيم ، وذكر تنزيهه تعالى ، مثل قول النسوة : ﴿ حَـٰشَ لِلَّهِ ﴾ ، وقول امرأة العزيز : ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، كل هذا يؤيد القولَ بإسلامه .

وقارن بين كلام فرعون لموسى ، وعقائد الفراعنة المنقولة والمنحوتة على معابدهم ، تجد فرقاً كبيراً جداً بين هذا الملك وبين الفراعنة الكفار ، ويؤيده أيضاً أنه قال عن يوسف : ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ ، ثم قال له : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي : ذو مكانة ، ثم هو مطيعٌ له فيما يطلبه منه ، فاحتمال إسلامه احتمالٌ قويٌ ، وعلى أي حال : فوقائع الأحوال إذا تطرق إليها الاحتمال سقط بها الاستدلال ، لما يبقى فيها من

الإجمال ، وأما قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أي : حكمه وشرعه كما سيأتي ، فلا يلزم منه كفر الملك .

الوجه الثاني : أن شرع يوسف عليه السلام لم يكن شريعة عامة تلزم جميع الناس في زمنه ، وإنما هو ملتزم بها مع أبناء يعقوب ، وإنما كانت دعوته لأهل مصر إلى التوحيد والإيمان ، ولا دليل على وجود شريعة ملزمة لهم أُرسل بها يوسف عليه السلام إليهم ، وكانت لازمة لهم ، فرَدُّوها ولم يعملوا بها ، ولا يتم الاستدلال بجواز تولي الولايات للكفرة والظلمة ، وممارسة الظلم فضلاً عن الكفر إلا بإثبات ذلك ، وإثبات أن يوسف عليه السلام بعد ردهم للشريعة ظل يُطبق فيهم شِرعتهم الباطلة المخالفة لشرع الله ﷻ ، ولا سبيل إلى إثبات ذلك بوجهٍ من الوجوه .

الوجه الثالث : أن الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام في هذه المسألة مبنيٌ على أن : (شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد شرعُنا بخلافه) ، فلو سلمنا أن يوسف عليه السلام كان يباشر مخالفة الشرع والظلم – وحاشاه من ذلك عليه السلام ، ونحن بحمد الله لا نسلم بذلك ولا نقره – لَمَا كان فيه حجةٌ ، لأن شرعنا ورد بخلاف ذلك في مواطن مختلفة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة : ٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود : ١١٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : ٩] ، ومن ذلك قول النبي ﷺ : « **سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصلاةَ عَنْ وَقْتِهَا ، ويُقَرِّبُونَ شِرَارَ النَّاسِ ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ ، فَلا يَكُونَنَّ لَهُم عَرِّيفَاً وَلا شُرْطِيَّاً ولا خَازِنَاً ولا جَابِياً** »[1] ، فمنع من هذه الوظائف لما تشمل عليه من ظلم وعدوان ، ومباشرة للحرام ، وامتناع السلف من تولي القضاء وغيره من الولايات للظلمة ، كثيرٌ مشهورٌ مذكورٌ في فضائلهم ، فشرعنا ينهى عن الإعانة على الظلم فضلاً عن مباشرة شيء من ذلك .

---

(١) حسن : رواه ابن حبان (٥٤٨٦) ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٦٠) وأوله في صحيح مسلم : « كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها » .

الوجه الرابع : أن الشريعة التي بُعث بها محمد ﷺ شريعة عامة باقية للأحمر والأسود ، والكفار مخاطبون بفروعها على الصحيح من أقوال العلماء ، فلا يسع أحداً الخروج على شيء منها ، وهي شريعةٌ شاملةٌ لكل الأمور والمسائل ، فلا يوجد أمر في دين أو دنيا يخرج عن حكم من أحكامها ، بخلاف ما سبقها من شرائع الأنبياء السابقين ، فقد كان يسع البعض الذين لم يرسل إليهم النبي ، أن يخرج عليها ، ولم تكن شرائعهم شاملة لكل الأحكام ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ ﴾ [آل عمران : ٩٣] ، فليس هناك ما يدل على أن يوسف عليه السلام كان ملزماً أن يحكم في أهل مصر بشريعة يعقوب عليه السلام أو غيرها ، وليس هناك ما يدل على أن عمل يوسف عليه السلام على خزائن الأرض يتضمن مخالفة لشريعة يعقوب أو يوسف – عليهما الصلاة السلام – ، وليس هناك ما يدل على أن أهل مصر في ذلك الوقت كانوا مكلفين بفروع شريعةٍ إلهيةٍ ، زيادةً على ما أُمروا به من توحيد الله وعبادته ، والله أعلم .

لهذه الوجوه نرى عدم صحة الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام على هذه المسألة أصلاً ، ومثلها في عدم صحة الاستدلال قضية النجاشي ، أنه بقي في ملكه على مملكة الحبشة بعد إسلامه ، مع بقائهم على دينهم وشريعتهم ، وذلك لأنه ليس هناك ما يدل على بلوغ تفاصيل الشريعة للنجاشي خلال مدة حكمه ، فمعلوم أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، وأن أحكام الشريعة التفصيلية ، إنما نزلت في المدينة بعد الهجرة ، ولم يبلغ المسلمين في الحبشة ظهور النبي ﷺ ، فضلاً عن تفاصيل الشرائع ، إلا في السنة السابعة من الهجرة ، حين قدم جعفر رضي الله عنه ومن معه على رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر ، وأولى وأولى أن لا يصل إلى النجاشي تفاصيل الأحكام الشرعية ، حتى يلزمه العمل بها ، فإن العمل يجب مع التمكن من العلم والقدرة على العمل ، فإذا لم يتمكن من العلم ، أو كان عاجزاً عن العمل ، لم تجب عليه ، والله المستعان .

أما عن حكم المسألة : فلابد من التفصيل في نوع العمل الذي يتولاه ، فالوظائف التي تتضمن إقامة الكفر والباطل ، كالإمامة مع لزوم إقامة أنظمتهم الكفرية ، وكذا قيادة الجيوش ، بل ومجرد المشاركة فيها ، والمشاركة في الحروب التي غايتها إعلاء الكفر والشرك بالله ﷻ والإعانة على ذلك ، كل هذا من أعظم المحرمات ، بل هي من الموالاة التي حكم الله ﷻ على أصحابها بالكفر فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ٩٧] .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (﴿ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : بترك الهجرة ، وقال : هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني الكفار ، وهو قادر على الهجرة ، وليس متمكناً من إقامة الدين ، فهو ظالمٌ لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع ، وبنص هذه الآية .

وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ ، يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ ، أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [١]) [٢] أ . هـ .

وروى ابن جرير بسنده عن عكرمة في هذه الآية قال : (نزلت في قيس بن الفاكه ابن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبي العاصي ابن منبه بن الحجاج ، وعلى بن أمية بن خلف ، قال : لما خرج المشركون من قريش ، وأتباعهم لمنع أبي سفيان بن حرب ، وعير قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأن يطلبوا ما نيل منهم يوم نخلة ، خرجوا معهم بشباب كارهين ، كانوا قد أسلموا ، واجتمعوا ببدر على غير موعد ، فَقُتِلُوا ببدرٍ كفاراً ، ورجعوا عن الإسلام ، وهم هؤلاء

(١) رواه البخاري (٤٥٩٦) ، والنسائي (١١١٩) في الكبرى .
(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٥٤٣) .

الذين سمّيناهم) أ . هـ ، وعن السدي في الآية قال : (لما أُسر العباس وعقيل ونوفل ، قال رسول الله ﷺ : « اِفْدِ نَفْسَكَ ، وَابْنَ أَخِيكَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله أَلَمْ نُصَلِّ إِلَى قِبْلَتِكَ ؟ وَنَشْهَدْ شَهَادَتَكَ ؟ قَالَ : يَا عَبَّاسُ إِنَّكُمْ خَاصَمْتُم فَخُصِمْتُم ، ثُمَّ تَلَا عَلَيهِ هَذِهِ الآيَةَ : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾) [النساء : ٩٧] [1] .

فوضح بما ذكرنا حكم من زعم الإسلام ثم خرج في صفوف الكافرين مقاتلاً للمسلمين فحُكم المشركين يجري عليه في جميع الأحوال ، وهكذا عامل الرسول ﷺ والمسلمون من خرج في بدر ، ولو كانوا كارهين ، وإنما آثروا مرضاة آبائهم وأهليهم على الإسلام والإيمان بالرسول ﷺ ، ولا يصلح مثل هذا إكراهاً ليُعْذَرَ صاحبه ، والظاهر في سياق الآية وما ذكرنا من الآثار في سبب النزول : أن حكم الكفر ينطبق عليهم في الآخرة أيضاً ، لأن الله ﷻ قد حكم أن لهم جهنم وساءت مصيراً ، ولم يدل على خروجهم منها ، بل وفي بعض الروايات عن ابن عباس : فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ، وأُكرهوا ، فاستغفِروا لهم ، فنزلت : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء : ٩٧] ، فدل عدم الاستغفار لهم على كونهم ماتوا على الكفر بسبب هذه الموالاة الشركية لأهل الشرك ، ولو كانوا آباءهم أو أهليهم .

ويؤيد ذلك ما رواه ابن جرير عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى : ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء : ٨٨] ، قال : (ذلك أن قوماً كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام ، وكانوا يظاهرون المشركين ، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم ، فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد ﷺ فليس علينا منهم بأس ، وإن المؤمنين لما أُخْبِرُوا أنهم قد خرجوا من مكة ،

(١) رواه ابن جرير (٥/ ٢٣٥) مرسلاً .

قالت فئة من المؤمنين : اركبوا إلى الخبثاء فاقتلوهم ، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم ، وقالت فئة أخرى من المؤمنين : سبحان الله - أو كما قالوا - أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ، ويتركوا ديارهم ، نستحل دماءهم ، وأموالهم لذلك ؟! فكانوا فئتين والرسول ﷺ عندهم لا ينهى واحداً من الفرقتين عن شيء ، فنزلت : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ الآية [النساء : ٨٨]) [١] أ . هـ .

والشاهد منها قول المؤمنين : (فاقتلوهم ، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم) ، ونزلت الآيات بموافقة هذه الطائفة من المؤمنين ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٨٩] ، قال السدي : (إذا أظهروا كفرهم ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم) أ . هـ .

وهذا أقرب ما قيل في تفسير الآية موافقاً لسياقها ، كما قال ابن جرير - رحمه الله - بعد أن ذكر الاختلاف فيمن هم المقصودون بهذه الآية فقال : (وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : نزلت هذه الآية في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في قوم كانوا ارتدوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة ، وفي قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ ، أوضح دليل على أنهم كانوا من غير أهل المدينة) ا . هـ . [٢]

وأما تسميتهم منافقين مع التصريح بكفرهم ، فإما باعتبار حالهم السابق ، وإما باعتبار تكلمهم بالإسلام ، مع استمرارهم على ما يناقضه من موالاة الكفار بنصرتهم ، ومظاهرتهم على المسلمين ، والمنافق إذا أظهر كفره وجب قتله ، وإن ظل ينتسب إلى الإسلام .

---

(١) رواه ابن جرير (٥ / ١٩٣) ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢ / ١٩٠) إلى ابن أبي حاتم .
(٢) تفسير الطبري (٤/ ١٩٤) .

وهذا الأمر بقتل المنافقين – إذا أظهروا نفاقهم – معلق على المصلحة في قتلهم ، أو المفسدة ، فقد ترك رسول الله ﷺ قتل من علم نفاقه قطعاً منهم ، وهو الذي قال له : (اعدل) [1] ؛ لوجود مفسدة أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، في حين أمر بقتل الخوارج حين يخرجون [2] ؛ لظهور مفسدة تركهم حينئذ ، بسفك الدم الحرام ، وانتهاك الحرمات وانتفاء مفسدة قتلهم ، بانتشار الإسلام ، وتأسس قواعده ، وهذا ما فعله الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه [3] ، وقد أمر الله ﷻ بجهاد المنافقين مع الكافرين، فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم: ٩] ، ورجح ابن جرير قتالهم بالسيف إذا أظهروا نفاقهم ، ومثله قوله تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٠-٦١] ، قال قتادة : إذا هم أظهروا النفاق ، فبناء الأمر في قتال المنافقين على المصلحة والمفسدة في ذلك ، والله أعلم .

ولو كان هؤلاء المنافقون قد صرحوا بعدم انتسابهم للإسلام أو بالردة ، لما كان هناك معنى لاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فيهم حتى ينزل القرآن يبين صحة نفاق هؤلاء الذين اختلف المؤمنون في أمرهم ويحذر مَن دافَع عنهم من الدفاع عنهم .

قال ابن حزم – رحمه الله – : (من لحق بدار الكفر والحرب محارباً لمن يليه من المسلمين ، فهو بهذا الفعل مرتد ، له أحكام المرتد كلها من وجوب القتل عليه متى قُدِرَ عليه ، وإباحة ماله ، وانفساخ نكاحه ، وغير ذلك) .

وقال أيضاً : « وكذلك من سكن بأرض الهند ، والسند ، والصين ، والترك ،

---

(١) رواه البخاري (٣١٣٨) ، ومسلم (١٠٦٣) ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه بلفظ « **لقد شقيتُ إن لم أعدل** » .

(٢) رواه مسلم (١٠٦٤) ، وأبو داود (٤٦٦٧) ، وأحمد (٣/ ٢٣) ، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه بلفظ « **تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** » .

(٣) رواه البخاري (٦٩٢٢) ، وأبو داود (٤٣٥١) ، والترمذي (١٤٥٨) ، النسائي (٢/ ١٧٠) .

والسودان ، والروم ، من المسلمين ، فإن كان لا يقدر على الخروج من هنالك لثقل ظهره ، أو لقلة مال ، أو لضعف جسم ، أو لامتناع طريق ، فهو معذور ، فإن كان هناك محارباً للمسلمين ، معيناً للكفار بخدمة أو كتابة ، فهو كافر ، وإن كان إنَّما يقيم هنالك لدنيا يصيبها وهو كالذِّمِّي لهم ، وهو قادر على اللحاق بجمهرة المسلمين وأرضهم فما يبعد عن الكفر ، وما نرى له عذراً ، ونسأل الله العافية » .

وقال أيضاً : (وليس كذلك من سكن في طاعة أهل الكفر من الغالية [1] ، ومن جرى مجراهم ، كأهل مصر ، والقيروان ، وغيرهم ، فالإسلام هو الظاهر ، وولاتهم على ذلك ، لا يجاهرون بالبراءة من الإسلام ، بل إلى الإسلام ينتسبون ، وإن كانوا في حقيقة أمرهم كفاراً) ا . هـ .

وقال أيضاً : (وأما من سكن في بلدٍ تظهر فيه بعض الأهواء المُخرِجة إلى الكفر ، فهو ليس بكافر ، لأن اسم الإسلام هو الظاهر هنالك على كل حال من التوحيد ، والإقرار برسالة محمد ﷺ ، والبراءة من كل دين غير الإسلام ، وإقامة الصلاة ، وصيام رمضان ، وسائر الشرائع التي هي الإسلام والإيمان ، والحمد لله رب العالمين) [2] ا . هـ.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب – لما ذكر الأنواع التي يكفر بها الرجل – قال : (النوع الرابع : من سلم من هذا كله ، ولكن أهل بلده يصرون على عداوة التوحيد مع أهل بلده ، ويجاهد بماله ونفسه ، فهذا أيضاً كافر ، فإنه لو يأمرونه بتزوج امرأة أبيه ، ولا يمكنه ترك ذلك إلا بمخالفتهم فعل ، وموافقته لهم في الجهاد معهم بنفسه وماله ، مع أنهم يريدون بذلك قطع دين الله ورسوله أكبر من ذلك بكثير ، فهو أيضاً كافر ، وهو ممن قال الله فيهم : ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى

---

(١) يقصد غلاة الشيعة ، كالفاطميين الذين كانوا يحكمون مصر والقيروان وسائر أفريقيا ، بل والحرمين والشام كذلك ، وهذا النقل نريد أن نبين منه الفرق بين طاعة من يصرِّحون بالكفر ، وبين طاعة من ينتسبون إلى الإسلام ، وهم في حقيقة أمرهم كفار ، فأمر الطائفة الأخيرة يحتاج إلى نظر ، واجتهاد ، وليس معلوماً قطعاً من الدين كالأولين فموالاتهم وطاعتهم ، وإن كانت محرمة إلا أنها ليست كفراً ينقل عن الملة في كل حال ، مراعاة لهذا الفارق المهم ، ما لم يعلم كفرهم .

(٢) المحلى (١١/ ١٩٩-٢٠٠) .

ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ٩١])[١] أ . هـ .

ومما تقدم من الأدلة وأقوال العلماء ، تعرف حكم من يخرج في جيوش الكافرين المعلنين لكفرهم في قتال المسلمين لأجل إسلامهم ، كالشيوعيين الملحدين واليهود والنصارى والمشركين ، وما يجب على المسلمين أن يعاملوهم به ، وبالله التوفيق .

ولابد لنا من التنبيه هنا على أن النصرة الواجبة للمؤمنين ، إنما تجب في الدين ، كما أمر الله بها ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ [الأنفال : ٧٢] ، وأما إن كانت انتصاراً لعصبية أو قومية أو وطنية دون معرفة الحق من الباطل ، وإنما هي الطاعة العمياء لمن يرفع رايات الجاهلية ، فهذه التي قال فيها النبي ﷺ : « مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ ، يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبِيَّةٍ ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً ، فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ »[٢] ، وقال ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَدْرِي القَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ ، وَلَا يَدْرِي المَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ »[٣] .

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ » ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ ، قَالَ : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ »[٤] .

وكذا تولي القضاء الذي فيه الحكم بغير ما أنزل الله ، قال الشيخ أحمد شاكر - محدث الديار المصرية - رحمه الله - : (أقول : أفيجوز - مع هذا - في شرع الله أن يُحكَم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبَسٍ عن تشريعات أوروبا الوثنية الملحدة ؟! بل بتشريعٍ تدخله الأهواء ، والآراء الباطلة ، يغيِّرونه ويبدِّلونه كما يشاؤون ، لا يبالي واضعه أوافق

---

(١) الدفاع لابن عتيق ص (١٠-١٢) ، نقلاً عن الولاء والبراء ص (٢٧٤) .
(٢) رواه مسلم (١٨٤٨) ، والنسائي (٣٥٧٩) الكبرى ، وأحمد (٢/ ٢٩٦) .
(٣) رواه مسلم (٢٩٠٨) .
(٤) رواه البخاري (٣١) ، ومسلم (٤٨٨٨) ، وأبو داود (٤٢٦٨) ، والنسائي (٧/ ١١٤) ، وأحمد (٥/ ٤٣ ، ٥١) .

شِرعة الإسلام أم خالفها ؟! إن المسلمين لم يُبلَوا بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم - إلا في ذلك العهد - عهد التتار - وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام ، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له ، بل غلب الإسلامُ التتار ، ثم مزجهم فأدخلهم في شِرعته وزال أثر ما صنعوا بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم ، وأن هذا الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك ، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة ، ولم يتعلَّموه ولم يعلِّموه أبناءهم ، فما أسرع ما زال أثره .

أفرأيت هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير - في القرن الثامن - لذلك القانون الوضعي ، الذي صنعه عدو الإسلام « جنكيز خان » ؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر ، في القرن الرابع عشر ؟ إلا في فَرقٍ واحد ، أشرنا إليه آنفاً : أن ذلك كان في طبقةٍ خاصةٍ من الحكَّام ، أتى عليها الزمان سريعاً ، فاندمجت في الأمة الإسلامية ، وزال أثر ما صنعت ، ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالاً ، وأشد ظلماً وظلاماً منهم ؛ لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة ، والتي هي أشبه شيء بذلك « الياسق » الذي اصطنعه رجل كافر ، ظاهر الكفر ، هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام ، ثم يتعلمها أبناء المسلمين ، يفخرون بذلك آباءً وأبناءً ، ثم يجعلون مَرَدَّ أمرهم إلى معتنقي هذا « الياسق العصري » ! ويحقرون من يخالفهم في ذلك ، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم ، وشريعتهم « رجعياً وجامداً » ، إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة ، بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي ، يريدون تحويله إلى « ياسقهم الجديد » بالهوينا واللين تارة ، وبالمكر والخديعة تارة ، وبما ملكت أيديهم من السلطان تارة ، ويصرِّحون - ولا يستحيون - بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين !!!

أفيجوز إذن - مع هذا - لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد ، أعني التشريع الجديد !! أو يجوز أن يرسل أبناءه لتعلِّم هذا ، واعتناقه ، واعتقاده ، والعمل به ، عالماً كان الأب أو جاهلاً ؟ ! أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا

« الياسق العصري » وأن يعمل به ، ويعرض عن شريعته البينة .

ما أظن رجلاً مسلماً ، يعرف دينه ، ويؤمن به جملةً وتفصيلاً ، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله ﷺ ، كتاباً محكماً ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبأن طاعته وطاعة الرسول ﷺ الذي جاء به واجبة ، قطعية الوجوب في كل حال ، ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم – غير متردد ولا متأول – بأن ولاية القضاء في هذا الحال باطلة بطلاناً أصلياً ، لا يلحقه التصحيح ، ولا الإجازة .

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس ، هي كفرٌ بواح ، لا خفاء فيه ولا مدارة ، ولا عُذر لأحدٍ ممن ينتسب للإسلام – كائناً من كان – في العمل بها ، أو الخضوع لها ، أو إقرارها ، فليحذر امرؤ لنفسه ، وكل امرئٍ حسيب نفسه .

ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيَّابين ، وليبلِّغوا ما أُمروا بتبليغه غير موانين ، ولا مقصِّرين ، سيقول عني عبيد هذا « الياسق العصري » وناصروه إني جامد ، وإني رجعي ، وما إلى ذلك من الأقاويل ، ألا فليقولوا ما شاؤوا ، فما عبأت يوماً ما بما يقال عني ، ولكني قلت ما يجب أن أقول)[1] أ . هـ .

وقال الأستاذ محمود شاكر – رحمه الله – عند قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] : (اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة وبعد ، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدوا للكلام في زماننا هذا قد تلمَّس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله ، وفي القضاء في الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله التي أنزل في كتابه ، وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعةً في بلاد الإسلام ، فلمَّا وقف على هذين الخبرين – قول ابن عباس رضي الله عنهما : (كفر دون كفر) ، وأثر أبي مجلز – اتخذهما رأيا يرى به صواب القضاء في الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله ، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تُكفِّر الراضي بها ، والعامل عليها ، والناظر في

(١) عمدة التفسير (٤/ ١٧٣) .

هذين الخبرين لا محيص له من معرفة السائل والمسؤول ، فأبو مجلز (لاحق ابن حميد السدوسي) تابعي ثقة ، وكان يحب علياً ﷺ ، وكان قوم أبي مجلز – وهم بنو شيبان – من شيعة علي يوم الجمل وصفين ، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين ، واعتزلت الخوارج ، كان فيمن خرج على عليّ ﷺ طائفة من بني شيبان ، ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل . هؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس ، وهم نفر من الإباضية ، والإباضية من جماعة الخوارج الحرورية ، هم أصحاب عبد الله بن إباض التميمي ، وهم يقولون بمقالة سائر الخوارج في التحكيم ، وفي تكفير علي ﷺ إذ حكَّم الحكمَين ، وأن علياً لم يحكم بما أنزل الله في أمر التحكيم ، ثم إن عبد الله بن إباض قال : إن من خالف الخوارج كافر ، ليس بمشرك ، فخالف أصحابه ، وأقام الخوارج على أن أحكام المشركين تجري على من خالفهم ، ثم افترقت الإباضية بعد عبد الله بن إباض الإمام افتراقاً ، لا ندري معه – في أمر هذين الخبرين – من أي الفريقين كان هؤلاء السائلون ، بيد أن الإباضية كلها تقول : إن دُور مخالفيهم دُور توحيد إلا معسكر السلطان ، فإنه دار كفر عندهم ، ثم قالوا أيضاً : إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان ، وإن كل كبيرة فهي كفر نعمة ، لا كفر شرك ، وإن مرتكبي الكبائر في النار خالدون ، مخلدون فيها .

ومن البيّن : أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يُلزموه الحجة في تكفير الأمراء ، لأنهم في معسكر السلطان ، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه ، ولذلك قال لهم في الخبر الأول : (فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً) ، وقال لهم في الخبر الثاني : (إنهم يعملون بما يعملون ، ويعلمون أنه ذنب) ، وإذن لم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا ، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام ، ولا في إصدار قانون مُلزِم لأهل الإسلام ، وبالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ ، فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ، ورغبة عن دينه ، وإيثار لأحكام أهل الكفر على

حكم الله ﷻ ، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه .

والذي نحن فيه اليوم هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء ، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه ، وسنة نبيه ﷺ ، وتعطيل لكل ما في شريعة الله ، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزَّلة ، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا ، ولعِلَلٍ وأسبابٍ انقضت ؛ فسقطت الأحكام كلها بانقضائها ، فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بني عمرو بن سدوس ؟!!

ولو كان الأمر على ما ظنوا من خبر أبي مجلز - أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة - فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سَنَّ حاكم حُكماً ، وجعله شريعة مُلزِمة للقضاء بها ، هذه واحدة ، وأخرى : أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها ، فإنه : إما أن يكون حكم بها وهو جاهل ، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة ، وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية ، فهذا ذنب تناله التوبة ، وتلحقه المغفرة ، وإما أن يكون حكم به متأولاً حُكماً خالف به سائر العلماء ، فهذا حُكمه حُكم كل متأولٍ يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب وسنة رسول الله ﷺ ، وأما أن يكون قد كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر جاحداً لحكم من أحكام الشريعة ، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام ، فذلك لم يكن قط ، فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه ، فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابها وصرفهما لغير معناهما ؛ رغبة في نصرة سلطان ، أو احتيالاً على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله ، وفرضه على عباده ، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله أن يستتاب ، فإن أصر ، أو كابر ، أو جحد حكم الله ، ورضي بتبديل الأحكام ، فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين .

وكتبه محمود محمد شاكر)[1]ا. هـ .

فكل هذه الولايات مهما كان فيها من مصالح ، فلن تقاوم المفسدة الأعظم ، التي هي الكفر – والعياذ بالله – فإن الترجيح بين المصالح والمفاسد لابد أن يكون بميزان الشريعة ، وقد دلَّت الأدلة على أن هذه الأعمال من الكفر ، وهو أعظم المفاسد ، ولم يبحه الشرع إلا عند الإكراه ، وليس هناك إكراه في تولي الولايات التي تتضمن إقامة الكفر للكفار .

ولا يصح كذلك الإكراه على قتال المسلمين ، قال القرطبي – رحمه الله – : (أجمع العلماء على أن من أُكرِه على قتل غيره ، أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ، ولا انتهاك حرمته بِجَلْدٍ أو غيره ، ويصبر على البلاء الذي نزل به ، ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة)[2]أ . هـ .

ومن الوظائف المحرمة : تولي أخذ الربا وعطائه وحسابه وكتابته وإقامة النظام الاقتصادي عليه ، ومنه تولي إقامة أماكن الفساد والفجور وأدواته ووسائله والدعوة إليه والإعلام به من كتابات وفنون وغيرها ، ومنها تولي إقامة العصبية الجاهلية والحزبية القائمة على خلاف الدين ، وسياسة أمور الناس بخلاف الشرع ، ومنها جباية الأموال ظلماً وجمعها عدواناً بما لم يأذن فيه الشرع ، إلا إذا كان صاحب هذا الأمر ناوياً التخفيف عن المسلمين في أمر – لابد – واقعٌ بهم ، وكان قادراً على ذلك أيضاً ، فيكون في المسألة اجتهاد في الجواز والمنع ، والذي ينبغي الترجيح به مدى القدرة على التخفيف عن المسلمين ، ومدى الضرر الواقع على الشخص في مخالطته للظلمة ومباشرة الظلم ، أما إذا لم يكن ناوياً التخفيف عن المسلمين ، أو كان عاجزاً عن التخفيف عنهم ، لم يسع الخلاف في المنع من تولى هذه الولايات والوظائف .

---

(١)عمدة التفسير (٤ / ١٥٦) .

(٢)تفسير القرطبي (٥/ ٣٧٩٩) .

أما الوظائف والولايات التي لا تتضمن إقامة كفرٍ أو ظلمٍ أو معصية ، كالأنظمة الإدارية التي يُراد بها ضبط الأعمال وإقامة مصالح الناس المباحة والمشروعة ، لحفظ أموالهم وإقامة طُرُقِهم ومصانعهم ومستشفياتهم وزراعاتهم وصناعاتهم وتجاراتهم ، وتوزيع ما يحتاجون من غذاءٍ وكساءٍ ودواءٍ ، ونحو ذلك فتوليه للكفار من الإجارة المباحة ، وتوليه للمسلمين وإن كان القائم عليهم ظالماً أو منافقاً ، مع النية الصالحة في رعاية مصالح المسلمين على أفضل ما يمكن ، هو طاعةٌ لله وقربةٌ له ﷻ ، قال تعالى عن شعيب عليه السلام : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [هود : ٨٨] وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

قال الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - : (اعلم أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعي الذي يقتضي تحكيمه الكفر بخالق السماوات والأرض ، وبين النظام الذي لا يقتضي ذلك ، وإيضاح ذلك أن النظام قسمان : إداري ، وشرعي ، أما الإداري : الذي يُراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجهٍ غير مخالف للشرع فهذا لا مانع منه ، كتنظيم شئون الموظفين ، وتنظيم إدارة الأعمال على وجه لا يخالف الشرع [1] ، ولا يخرج من قواعد الشرع مع مراعاة المصالح العامة .

وأما النظام الشرعي : المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض فتحكيمه كفرٌ بخالق السماوات والأرض ، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصافٍ ، وأنهما يلزم استواؤهما في الميراث ، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم ، وأن الطلاق ظلم للمرأة ، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يَسُوغُ فعلها بالإنسان ، ونحو ذلك ، فتحكيم هذا النوع من النظام في أَنْفُسِ المجتمع ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وأنسابهم ، وعقولهم ، وأبدانهم ، كفر بخالق السماوات والأرض ، وتمردٌ

---

(١) مع مراعاة أنه ليس من الموالاة ، البيع والشراء والإجارة ، وعليه يتضح خطأ من زعم أن التوظف في الوظائف الحكومية الإدارية ، وأنواع الخدمات المباحة المشروعة في ضوء القواعد الشرعية لدى الحكومات الحاكمة بالقوانين الوضعية يُعَدُ شركاً ، أو موالاةً ، أو محرماً ، وإنما ذلك الشرك والكفر والظلم في التعاون والرضا بذلك ، بل إذا نوى خدمة المسلمين ، وكونه في حاجتهم ، فالله المسئول أن يتقبل منه عملاً صالحاً مثاباً عليه في الدنيا والآخرة .

على نظام السماء الذي وضعه خالق الخلائق لها ، وهو أعلم بمصالحهم ، سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مُشَرِّعٌ آخر علواً كبيراً)[1] ا . هـ .

ومن هنا يتبين لك أن ما لهج به كثير من المتأخرين ، بالاستدلال بقصة يوسف عليه السلام على تولي الولايات للكفرة والظلمة دون تفصيل ، فيه خطرٌ كبير وخللٌ جسيم ، لابد من الحذر منه ، فهو عليه السلام إنما تولى خزائن الأرض لحفظ أموال الناس وطعامهم وما يقوم بشأنهم في سنين الجدب ، هم وما حولهم من الأقطار التي لا تخلو من مسلمين ينتفعون بهذا الحفظ والتخطيط السليم ، فأين هذا من الإعانة على الإثم والعدوان ، والكفر والطغيان ، بزعم أن ذلك مما وردت الشرعية بجوازه في قصة يوسف عليه السلام ؟! حاش لله ، ثم حاش يوسف عليه السلام أن يكون مُعيناً على إثمٍ وعدوان ، أو كفرٍ أو ظلمٍ أو طغيانٍ ، والله أعلم .

المسألة الثالثة : في حكم تزكية النفس وذكر فضائلها :

قال الله تعالى : ﴿ **فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ** ﴾ [النجم : ٣٢] ، قال ابن كثير : (أي : تمدحوها وتشكروها وتَمُنُّوا بأعمالكم ، كما قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** ﴾ [النساء : ٤٩] ، ثم ذكر الحديث الذي رواه مُسْلِمُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ ، قَالَ : سَمَّيْتُ ابْنَتِي بَرَّةَ ، فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ : إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا الإِسْمِ ، وَسُمِّيتُ بَرَّةَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، الله أَعْلَمُ بِأَهْلِ البِرِّ مِنْكُمْ** » ، فَقَالُوا : بِمَ نُسَمِّيهَا ؟ ، قَالَ : « **سَمُّوهَا زَيْنَبَ** »[2]) ا. هـ . وَرَوَى مُسْلِمُ أَيضاً عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ :قَالَ رَسُولُ الله ﷺ « **إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ، حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ** »[3] ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (من قال : أنا عالمٌ فهو

(١) أضواء البيان (٤/ ٨٤) .
(٢) رواه مسلم (٢١٤٢) ، وأبو داود (٤٩٥٣) .
(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥) ، وأبو داود (٤٨٩٥) واللفظ له .

جاهل ، ومن قال : أنا في الجنة فهو في النار) .

فمقتضى هذه الأدلة وغيرها عدم جواز تزكية النفس ومدحها ، وهذا هو الأصل الذي يجب على المسلمين التمسك به ، فإن الإعجاب بالنفس من الأمراض المهلكة ، وهو داء إبليس الذي قال : ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ﴾ [الأعراف : ١٢] ، وداء صاحب الجنتين الذي قال لصاحبه : ﴿ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ [الكهف : ٣٤] ، فكان عاقبته أن أُحيط بثمره ، وأُبيدت جنتاه ، وهو داء فرعون الذي يقول عن موسى : ﴿ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : ٥٢] ، وكفى بعاقبة هؤلاء عظةً وعبرةً في التحذير من مدح النفس وتزكيتها .

ولا يُستثنى من ذلك إلا موضع الضرورة والحاجة ، التي لابد أن تقدر بقدرها فلا يزاد عليها ، وقد دل على الرخصة في موضع الحاجة والضرورة قول يوسف عليه السلام : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف : ٥٥] ، وذلك أن الملك كان لا يعرف فيه القدرة على الحفظ والضبط لبيت المال ، وطرق حفظ الغلال ونحو ذلك ، فاحتاج إلى البيان ، وكما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ [مريم : ٤٣] ، وذلك لترغيب أبيه وحثه على متابعة دين الحق ، وكقول النبي ﷺ : « إِنِّي لَأَعْلَمُكُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً »[1] ، وقوله ﷺ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ »[2] ، وذلك ليعلم الناس الاعتقاد الواجب فيه ﷺ وأنه أعلم الخلق بالله وأخشاهم له ، وليحذرهم من الغلو المذموم في العبادة ، بتحريم ما أحل الله ، أو إيجاب ما لم يوجبه ، وكقول عائشة – رضي الله عنها – عن نفسها : (عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ)[3] حين سئلت عن بعض شأن النبي ﷺ ، وقول ابن مسعود رضي الله عنه : (وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا

---

(١) رواه البخاري (٦١٠١) .

(٢) رواه البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) ، والترمذي (٢٤٣٤) ، وأحمد (٩٣٤٠) واللفظ له .

(٣) سبق تخريجه ص (١٠٩) .

أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ الله تَبْلُغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ) [1] ، ونحو ذلك للترغيب في طلب العلم وأخذه عنه .

وعلى أي حال ، فالأصل في هذا الباب ، الامتناع من مدح النفس وتزكيتها ، والحذر على النفس من ذلك ، وهؤلاء الأفاضل منهم الأنبياء المعصومون ، ومنهم الأولياء المتقون المشهود لهم بالفضل من النبي ﷺ ، فمن يشهد لمن يمدح نفسه ؟ ومن يضمن له حسن نيته وهي تتقلب على المرء في الساعة الواحدة مرات ؟ والسلامة لا يعدلها شيء ، والفرق بين الحق والباطل في هذا المقام ربما كان أدق من الشعرة وأحد من السيف ، وربما تخفى حظوظ النفس على صاحبها ويوهم نفسه بأنه يعمل المباح ، وحقيقة الأمر هو العُجب المحرم والغرور المذموم ، فما لأمثالنا وتزكية نفوسهم ومدحها وذكر فضائلها ؟ وما أكثر من تغره نفسه في الفضائل التي هي عارية عنها ، وإنما هي دعوى وتشبع بما لم يُعْطَ ، فإذا كان مدح الإنسان نفسه بما يتيقن من فضائلها ، الأصل فيه المنع ، والجواز على قدر الضرورة والحاجة مع شرط سلامة النية وحسن القصد و الإخلاص ، الذي هو أعز شيء ، والشرك في هذا المقام أخفى من دبيب النمل ، فكيف بما يُشك فيه أهو في النفس أم لا ؟ فكيف بما يعلم أنه دعوى ؟ وكيف بما يعلم أن النية فيه لغير الله ﷻ ؟ ، فنسأل الله العافية ، ونعوذ به من الكبر والعُجب والغرور .

وعندما ينظر المرء إلى المجتمعات المعاصرة ، والنظم التي اختارتها لنفسها في تولية الولايات ، وهي تزعم أنها في قمة الحضارة ، وأرقى ما وصلت إليه الإنسانية من الحرية والعدالة ، يرى كيف يزكون أنفسهم بما ليس فيهم لنيل حظ من حظوظ الدنيا ، ويغتابون غيرهم ويَنُمُّون لإفساد صورتهم عند الناس ليصرفوهم عن اختيارهم ، فتكون ما يسمونه بـ (المعارك الانتخابية) ، وقد تسفك فيها الدماء ، وقطعاً تنفق فيها الملايين من الأموال ، وتُشترى الذمم والولاءات ، عندما يرى المرء ذلك ، يعلم صدق

---

(١) سبق تخريجه ص (١٠٩) .

ما قال رسول الله ﷺ في أشراط الساعة : « **وَإِذَا رَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الصُّمَّ الْبُكْمَ مُلُوكَ الأَرْضِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا** » [1]، ويرى كيف يتسبب جهل الناس بالشرع ، ومخالفتهم لهديه ﷺ في تضييع الأمانة ، وأن يُوَسَّدَ الأمر إلى غير أهله ، فيكون ذلك سبباً في خراب الدنيا وقرب نهايتها ، كما قال رسول الله ﷺ : « **إِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ** » ، قِيلَ : كَيْفَ إِضَاعَتُهَا ؟ ، قَالَ : « **إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ** » [2]، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

يبقى في هذا الجزء من القصة فائدةٌ مهمة ، يتبين بها عظمة القصص القرآني ، وأنه من أحسن القصص ، فيما ذكر وفيما ترك ذكره ، فإنه يُربي النفوس بالذكر والترك معاً ، ليس فقط بالذكر بل بالترك كذلك ، هذه الفائدة تتعلق بمصير امرأة العزيز ، ما جرى لها بعد ذلك ؟ في القصص المنقول عن الإسرائيليات ، النهاية التي يبحث عنها من تعلقت نفسه بالشهوات ، والتي تشبه النهايات السعيدة في الأفلام والتمثيليات البشرية ، من أن البطل يتزوج البطلة كما يسمونها ، وينجب منها البنين والبنات في حياة سعيدة هنيئة .

قال ابن اسحق – رحمه الله – : (فذكر لي – والله أعلم – أن أطفير – أي زوج المرأة – هلك في تلك الليالي ، وأن الملك الريان بن الوليد زَوَّجَ يوسفَ عليه السلام امرأة أطفير ، راعيل ، وأنها حين دخلت عليه قال لها : أليس هذا خيراً مما كنت تريدين ؟ قال : فيزعمون أنها قالت : أيها الصديق لا تلمني ، فإني كنت امرأة كما تراني حسناء جميلة ناعمة في ملك ودنيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك على ما رأيت ، فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له رجلين إفرائيم ابن يوسف ، وميشا بن يوسف ، وولد لإفرائيم نون والد يوشع بن نون ، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام) أ . هـ .

---

(١) رواه مسلم (١٠) في حديث جبريل المشهور .
(٢) رواه البخاري (٥٩ ، ٦٤٩٦) ، وابن حبان (١٠٤) ، وأحمد (٨٧١٤) .

وهذه هي النهاية المريحة للنفوس التي مدار الحياة عندها على قضية الشهوة الجنسية ، وأنها هي المحرك الأساسي للدوافع والرغبات الإنسانية ، وإن كنا لا نجزم ببطلان هذه القصص ، بل يحتمل الأمر الصدق أو الكذب ، فهذه من الإسرائيليات التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب ، إلا إننا نجد القرآن أعرض عن ذكر هذه النهاية أو غيرها لامرأة العزيز ، بل سكت عنها واختفى ذكرها إلى نهاية القصة ، فقد كانت هذه المرأة كالمطية التي وصل بها يوسف ﷺ إلى ما وصل إليه ، كانت بلاء عليه مدة من الزمن ، ثم جعل الله البلاءَ سبباً للعافية ، وجعل محاولة الإذلال سبباً للعز ، وجعل السجن سبباً للملك بقدرته سبحانه ، واختفت امرأة العزيز من القصة تهويناً لشأنها ، وشأن هذه القضية أصلاً ، قضية نيل الشهوة ، قد يكون الأمر أنه تزوجها بالفعل ، وقد يكون أنها ذلت وصارت تقف صاغرة على ظهر الطريق ، كما تشير إليه رواية الفضيل بن عياض التي ذكرت ، أنها وقفت على ظهر الطريق حتى مر يوسف ﷺ ، فقالت : (الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته ، والملوك عبيداً بمعصيته) ، فهذه الرواية - وهي أيضاً إسرائيلية مما لا يصدق ولا يكذب - تشعر بأنه لم يتزوجها ، بل إن المرأة هانت وذلت فصارت من العبيد ، والله أعلم .

إن سكوت القرآن عن هذا الأمر ذو فائدة تربوية عظيمة ، فيما ينبغي أن يهتم به الإنسان ، إن مركز الدائرة في اهتمامات المؤمن ليست هذه القضية ، ولا غيرها من قضايا الدنيا ، إن مركز اهتمامه هو قضية العبودية والمعرفة بالله ﷻ ، ومحبته وتعظيمه وطاعته ، فلابد أن ننتبه إلى ما ذُكِرَ وما سُكت عنه في القرآن ، كما تجد مثلاً آخر في هذا المقام في قوله تعالى عن يوسف ﷺ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ، فقد آتاه الله جمالاً عظيماً هو الذي تعلقت به امرأة العزيز ، ولم يذكر الله ﷻ هذا الجمال والحسن فيما أنعم به عليه - وهو بلا شك نعمة - ، ولكن إنما ذكر الله - سبحانه - الحكم والعلم والإحسان لنعلم التفاوت في أنواع النعم ، وأن أعظمها الذي ينبغي أن يتعلق به قلب المؤمن ، ويلهج بطلبه ، ويلح في سؤاله ، هو ما

يقربه إلى الله ، وما يحصل له به رضاه ، وأن العطاء الدنيوي لا ينبغي أن يتعلق به القصد والطلب ، فإن حصل للعبد ، فلله الحمد والشكر ، وإن مُنِعَ منه العبد ، فقد أُعْطِيَ خيراً منه أضعافاً مضاعفة ، فهو صابر راضٍ بقسم الله ، يشهد من منن الله عليه في دينه وذكره وشكره وحسن عبادته ﷻ ما يغمر عنده الشعور بالحرمان أو النقص ، فلا يتطرق إليه السخط الذي يؤدي إلى الحسد والحقد ، وسلسلة الأمراض الإبليسية التي نهايتها الكفر والشرك والكبر ، والعياذ بالله .

فلابد أن نعتبر ما اعتبره الكتاب والسنة ، وأن نلغي ما ألغاه الكتاب والسنة ، بخلاف أهل البدع الذي يعتبرون ما ألغى الشرع ، ويلغون ما اعتبره ، فيضطرب الميزان ، ويحصل الخلل ، ونسأل الله التوفيق ، ونعوذ بالله من الخذلان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .



التمكين

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

في وسط أحداث القصة يأتي هذا النور الباهر العظيم ، الذي يربط العبد بأسماء الله وصفاته وأفعاله ، بتدبيره وملكه ، برحمته وفضله ، بعزته وقهره ، بمشيئته وكرمه ، فله الحمد كما يقول ، وخيراً مما نقول ، لا نحصي ثناءً عليه ، لا تظن أيها السامع للقضية ، بل والمشاهد لها الحاضر قلبه معها ، أن الأحداث تجريها أيدي البشر ، أو تصنعها أفكار الناس ، أو تُقَلِّبُ أمورها بتخطيط الخلق ومكرهم ، بل إن الأمور بيد الله ، وتدبيرها من عنده ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ فالله ﷻ الذي مَكَّنَ ليوسف عليه السلام ، هو الذي صنع له ، ومكر له ، وفرج عنه ، ونصره وأعزه ، وأبدله بعد السجن سعة الملك ، وبعد كَرْبِ اتهامِ الزور فرجَ البراءة ، وبعد ذلِ الرق عزَّ السلطان ، وبعد شدةِ الاستضعاف رخاءَ التمكين .

وتأمّل الاختصار الرائع في هذا الموطن ، حيث لم يذكر أن الملك قد أجابه إلى طلبه ، وولاه خزائن الأرض ، وصار يوسف عليه السلام وزيراً مكان العزيز ، بل وفي حقيقة الأمر صار هو الملك المطاع ، وصارت مكانته عند ملك مصر أعظم بكثير من منزلة وزيره العزيز ، ومعلوم أن هذا قد وقع وهو مفهوم من السياق ، لكن اختصره القرآن ليأخذك إلى المعاني الإيمانية الأهم من ذلك ، ألا وهو شهود أفعال الرب – سبحانه – ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ فالله مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويُعز من يشاء ويُذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

صار يوسف عليه السلام يتصرف في الأرض – أرض مصر – كيف يشاء ، ويتخذ منزلاً

حيث يشاء ، كل هذا برحمة أرحم الراحمين ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ ، إنها رحمة أصابه الله بها ، وليس هذا خاصاً به ، بل هو أمر عام ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ فكل من أراد الله ﷻ أن يصيبه برحمته ، فَعَلَ به ما شاء من ذلك ، فلا يستطيع أحد أن يمسك رحمته ﷻ ، فلتتعلق القلوب إذن بالرحمن الرحيم ، ولتشهد قضاءه وقدره ومشيئته وفضله ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فكما أن الله لم يضيِّعْ صبر يوسف عليه السلام على أذى إخوته ، وعلى السجن والفتنة بسبب امرأة العزيز ، وجازاه سبحانه أعظم الجزاء على إحسانه في عبادة ربه وإخلاصه ومراقبته ، وإحسانه إلى الخلق وكرمه وجوده ، فكذلك سبحانه لا يضيع أجر المحسنين ، بل يجزي كل محسن بإحسانه في الدنيا والآخرة ، فهذا أعظم ترغيب في الإحسان بين العبد وربه ، وبينه وبين الناس ، ولكن لابد أن تتعلق القلوب بالأجر الباقي الدائم ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ، فقد جزى الله يوسف عليه السلام على صبره وإحسانه مُلك مصر ، وادّخر له من الفضل في الآخرة أعظم وأجل من مُلك مصر ، بل ما يُعده الله لكل محسن عنده في الآخرة ، أعظم وأجل من ملك مصر ، كيف لا وأدنى أهل الجنة منزلة مَن يُعْطَى عشرة أمثال الدنيا ، فأجر الآخرة أكبر وأعظم وأجل من كل ملك في الدنيا ، وعلى العبد أن يسعى في تحصيل أجر الآخرة بالإيمان ، والتقوى ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ، إذن لابد أن لا يكون أمل النفوس هو التمكين في الأرض لأجل الراحة والملك ، بل أجر الآخرة هو الرجاء ، والسبيل إليه هو الإيمان والتقوى ، والتمكين في الأرض عند أهل الإيمان والتقوى إنما هو وسيلة لعبادة الله ﷻ كما قال ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] فهو وسيلة لمزيد من الإيمان والتقوى من المؤمنين ، ولنشر الإيمان والتقوى في الأرض ، لينال أهلها أنواع الخيرات في الدنيا والآخرة .

وعَطْفُ التقوى على الإيمان في الآية الكريمة : ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ من باب عطف الخاص على العام ، فإن الإيمان قول وعمل ، والتقوى جزء من حقيقته ،

فعطف التقوى على الإيمان لتأكيد أهمية العمل ، كما تكرر في القرآن كثيراً عَطْفُ العمل الصالح على الإيمان ، ليكون قد ذُكر مرتين ، مرة في العموم الذي هو الإيمان ، ومرة في الخصوص وهو اللفظ المنفرد ﴿عَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ، والله أعلم .

بهذا اكتملت هذه المرحلة من حياة يوسف عليه السلام ، وبدأت مرحلة جديدة وابتلاء جديد ، ولكنه في هذه المرة بالسراء لا بالضراء ، وبالرخاء لا بالشدة ، وبالملك لا بالرق ، وما أكثر من يعجز من البشر عن هذه الفتنة ، ولا يصبر عليها ، وينجرف في تيار الشهوات ، ولكن يوسف عليه السلام كان الأسوة الحسنة ، والقمة العالية الرفيعة ، والحجة البالغة من الله على من منَّ عليهم من خلقه بالملك والسعة والغنى ، فلا يسع أحداً منهم إلا الاقتداء بيوسف الصديق الكريم الحليم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم - .



مجيء الإخوة

قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

طريقة القرآن طريقة رائعة مبهرة في اختصار ما لا فائدة في الإطالة فيه ، مرت السنوات السبع المخصبة ، وباشر فيها يوسف عليه السلام الملك ، وقام بأعباء خزائن أرض مصر خير قيام ، وأعدَّ العدة للسنين المجدبة ، وبالفعل جاءت هذه السَّنونَ العجاف ، وعمَّ القحط بلاد مصر وما حولها ، حتى وصل إلى بلاد كنعان التي كان فيها يعقوب عليه السلام وأولاده ، وكان الحال في مصر بفضل الله على أهلها بيوسف عليه السلام خير حال ، حتى قام هذا القطر بالعالم بأسره في ذلك الزمان ، بما جعل الله في مصر من البركة أصلاً وفضلاً ، أصلاً بأنها أرض مباركة كثيرة الخير كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وفضلاً بحسن صنع يوسف عليه السلام .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (احتاط يوسف عليه السلام للناس في غَلَّاتهم ، وجَمَعَها أحسن جمع ، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وأهرام [١] متعددة هائلة ، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات ، يمتارون لأنفسهم وعيالهم ، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة ، وكان عليه السلام لا يُشبعُ نفسه ، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار ، حتى يكفي الناس بما في أيديهم مدة السنين السبع ، وكان رحمةً من الله عز وجل على أهل مصر) أ . هـ .

فليتأمل ملوك الأرض في هذه العبارة التي نقلها ابن كثير – رحمه الله – عن يوسف عليه السلام والملك وجنودهما في الاقتصاد في الطعام ، والبدء بأنفسهم رعايةً لحق الناس ، وحرصاً على مصلحتهم ، وليسوا كالصم البكم الذين ينفقون الملايين في أنواع

---

(١) يُلحظ فيه أن ابن كثير – رحمه الله – قد ظن أن الأهرام كانت مخازن للغلال كما صرح به في غير هذا الموطن ، و لا دليل على ذلك ، والمعروف من تاريخ الفراعنة أن هذه الأهرامات كانت قبور ملوكهم ، والله أعلم .

الرفاهية والشهوات وبناء القصور وأماكن اللعب واللهو ، وشعوبهم في القحط والجوع والمرض ، إن الإمام لابدَّ أن يكون قدوة للناس يبدأ بنفسه ، ولا يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، ولقد قال رسول الله ﷺ في خطبة يوم عرفة في حجة الوداع : « **أَلَا إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ ، وَأَوَّلُ دَم أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ ، وَكَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي سَعْدٍ ، فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ ، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُهُ رِبَانَا ، رِبَا العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ** »[1].

فبهذه الأسوة الحسنة من الأئمة – ومثلهم العلماء والدعاة – يسير المجتمع كله في سكينة وأمان ، وتحابّ وتعاون ، بلا صراع بين طبقاته ، وبلا حقد وحسد بين أبنائه ، ولا تمييز بين أفراده على أسس غير شرعية كـ (المحسوبية) و (الرشوة) ، والقرابة من ذوي السلطان ، والمصالح الدنيوية الحقيرة ، وغير ذلك مما هو من أسباب شقاء الأمم والشعوب ، وعدم قدرتها على تخطي مشاكلها وأزماتها ، يدرك ذلك جيداً من يعيش في مجتمع مفكك متقطع الأوصال ، مبتلى بقيادة ظالمة ، وإن كان الأمر في النهاية ثمرة مرة للظلم المشترك المتبادل بين الراعي والرعية فإن الله ﷻ بحُكْمِه العدل قد قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال ، وفي الثانية بالمتاع ، وفي الثالثة بكذا ، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تملك عليهم جميع ما يملكون ، ثم أُعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها ، الله أعلم بصحة ذلك ، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب) أ . هـ . ، نقول : بل هي بالرد أولى ، فإن الآيات صريحة في أنهم هم الذين زرعوا وحصدوا ، قال تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ ، فهو إذن زرعهم وأموالهم ، ويوسف عليه السلام تولى خزائن الأرض أميناً حافظاً ، وليس

(١) رواه مسلم (١٢١٨) ، وأبو داود (١٩٠٥) واللفظ له ، وابن ماجة (٣٠٧٤) .

تاجراً يبيع للناس أموالهم ، فنحن نَشَمُّ رائحة شُح اليهود في هذا الأثر الإسرائيلي ، وهل يليق هذا بأكرم الناس ؟ ثم كيف يبيعهم بأنفسهم وأولادهم ، والأصل أن بيع الحر لا يجوز ؟ فالله أعلم .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة ، إخوة يوسف عليه السلام عن أمر أبيهم لهم في ذلك ، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً ، وركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين ، شقيق يوسف عليه السلام ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف عليه السلام ، فلما دخلوا على يوسف عليه السلام ، وهو جالس في أُبَّهتِه ورياستِه وسيادتِه ، عرفهم حين نظر إليهم وهم له منكرون ، أي : لا يعرفونه ، لأنهم فارقوه وهو صغير حدث ، وباعوه للسيارة ، ولم يدروا أين يذهبون به ، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، فلهذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم) أ . هـ .

أقف مبهوراً أمام هذه الشخصية الرائعة ، وأجد حباً ضرورياً ليوسف عليه السلام في حلمه وصبره ، وعفوه وحسن خلقه ، لو كان غيره من أهل الدنيا وهو في ملكه وسلطانه ، ووجد أمامه مَن فرقوا بينه وبين أبيه صغيراً ، وألقوه في الجب مظلوماً ، وباعوه للسيارة رقيقاً ، لو أمر بهم أن يُقتلوا كما هَمُّوا أن يقتلوه ، لقتلوا في ساعتهم ، ولو أمر بهم أن يُسجنوا كما سجنوه في البئر ، لسُجنوا في لحظتهم ، ولو أمر بهم أن يُضربوا كما ضربوه لضربوا من فورهم ، ولو أمر بهم أن يباعوا كما باعوه ، لبِيعُوا في موقفهم ، لم يصنع يوسف عليه السلام شيئاً من ذلك ، وهم – بَعْدُ – لم يتوبوا ، وهم مستحقون للعقاب ، بل صَبَرَ وحَلُمَ ، وأحسنَ وأكرمَ ، وأوفى لهم الكيل ، وأمر بإنزالهم وإكرامهم خير إنزال ، وهذا هو اللائق بكرمه وحلمه وسعة صدره ، وانشراحه بالإيمان ، والحب والغنى بالله عز وجل ، وسلامة القلب من الغل والحقد وحب الانتصار للنفس والمخاصمة لها ، إن القدرة على مقابلة الإساءة بالإحسان ، بل مجرد إمساك النفس عن الانتقام ، لَهِيَ مِنَّةٌ عظيمة وعطية كبيرة من الله لعبده ، وحظ عظيم له ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِى

ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٤-٣٥] ، هنيئاً لمن لُقِّي وأُعْطِيَ وَوُهِبَ هذه الخصلة ، فأَعطى ووهبَ وسامحَ ، أنت أيها المسامح العافي عن الإساءة ، تأخذ حين تعطي ، وترتفع حين تتواضع ، ألا يكفيك أن تكون فيك خصلة من خصال الأنبياء ، من خصال أكرم الناس يوسف عليه السلام ؟ هل وطّنّا أنفسنا على أن نرى من آذانا وأساء إلينا ، ونحن في قدرة تامة على الانتقام ، فلا ننتقم ، بل نُحسن ونُكرم ؟ إن هذا لمن أعظم أسباب العزة والرفعة أضعافًا مضاعفة عمّا لو انتقم الإنسان لنفسه وانتصر لها ، وإن كان محقاً ، فكيف بمن ينتصر لنفسه بالباطل ؟ إن مآله قطعاً إلى الذل والخسران والعياذ بالله .



حديث يوسف عليه السلام مع إخوته

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

ظاهر السياق أن إخوة يوسف عليه السلام لم يستغربوا سؤاله عن أخيهم من أبيهم ، فدل هذا على أنه كان بسؤاله لهم ، قال ابن كثير - رحمه الله - : (ذكر السُّدِّي وغيره أنه شرع يخاطبهم فقال لهم كالمُنْكِر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ فقالوا : أيها العزيز ، إنا قدمنا للميرة (أي : للطعام) ، قال : فلعلكم عيون ؟ (أي : جواسيس) ، قالوا : معاذ الله ، قال : فمن أين أنتم ؟ ، قالوا : من بلاد كنعان ، وأبونا يعقوب عليه السلام نبي الله ، قال عليه السلام : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم ، كنا اثني عشر ، فذهب أصغرنا هلك في البرية ، وكان أحبنا إلى أبينا ، وبقي شقيقه ، فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم ، ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي : أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم ، قال : ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ ، يرغبهم في الرجوع إليه ، ثم رهبهم فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي : إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية ، فليس لكم عندي ميرة ، ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ أي : سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ، ولا نُبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه ، وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم ، وفي هذا نظر ، لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيراً ، وهذا لحرصه على رجوعهم ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ﴾ أي : غلمانه ﴿ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ ﴾ أي : التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً

عنها ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أي : في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بها ، قيل : خشي يوسف عليه السلام ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها ، وقيل : تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام ، وقيل : أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجاً وتورعاً ، لأنه يعلم ذلك منهم ، والله أعلم) أ . هـ .

وفي قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ظاهرٌ في أنه كان ليعقوب امرأتان ، وهو المنقول عن أهل الكتاب ، ففيه حجة على الزنادقة المتبعين لكفار أهل الكتاب ، القادحين في تعدد النساء ، المانعين منه في الحلال ، المبيحين له في الحرام ، كما تنص عليه قوانينهم في إباحة الزنى بالتراضي ، لا يستغنون عنه في حياتهم الفاجرة ، الغارقة في الفواحش كما هو معلوم ، والعجب أن هذه الشبهة التي يطعنون بها على نبي الإسلام محمد ﷺ وشرعيته ، ثابتة عندهم عن الأنبياء ثبوتاً لا خفاء فيه في كتبهم ، فلا نزاع أن إبراهيم عليه السلام كانت له سارة زوجته ، وهاجر أم ولده إسماعيل عليه السلام سُريته ، وعندهم أنه كان لداود عليه السلام تسعةٌ وتسعون امرأة ، وقصتهم الباطلة في تحايله لضم زوجة أحد قواده حتى قتله وتزوجها معلومة مشهورة ، وثابت في السنة أنه كان لسليمان عليه السلام مائة امرأة ، وهذا يعقوب عليه السلام له امرأتان – على الأقل والله أعلم – ، فدل ذلك على أن تعدد النساء سنة مستمرة في الأنبياء ، وشريعة ثابتة لم تتغير ، وَزَعْمُ النصارى أن المسيح مَنَعَ من ذلك زَعْمٌ باطل ، لأن النص عندهم أن المسيح قال : (ما جئت لأنقض الناموس ، بل لأكمله) ، وهم يعتقدون عدم جواز النسخ ، وعدم وقوعه ، فكيف بعد ذلك يطعنون على التعدد ، ويجعلونه اتباعا للشهوة ، ولا شك أن النظر بعين النقص والذم والازدراء إلى قضية التعدد ، هو من أعظم الجهل ، بل حقيقته الكفر والعياذ بالله ، إذ القرآن صريحٌ في جوازه ومشروعيته ، وفعل النبي ﷺ فيه متواتر ، وكذا أفعال أكثر أصحابه وأفضلهم – رضي الله عنهم – ، فالطعن فيه طعن في التشريع ، وقدح في أصل الإيمان والانقياد ، وإنما منع الشرع من تعدد الزوجات عند خوف عدم العدل ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء : ٣] ، والعدل المأمور

به هو في القسم والمبيت ، أما المحبة فلا تملك ، فلا يكلف بها ، وأما النفقة والكسوة والسكنى ، فلا يلزم فيها المساواة أيضاً ، وإنما الواجب كفاية كل واحدة ، وهو مما يتفاوت ويختلف باختلاف الأشخاص والبلاد والأزمنة وغير ذلك ، فلا يجوز لأحد أن يزعم عدم إمكان العدل ليصل بذلك إلى تعطيل الشرع ، اتباعاً لهواه في الحقيقة ، وكذلك لا يجوز تصوير العدل للناس على صفة ليست هي الواجبة ، يصل الأمر بالناس إلى أنها معجوز عنها ، فيعود الأمر إلى عدم الإمكان ، فالعدل المأمور به هو في طاقة المكلفين ، وهذه المسألة قد حصل فيها في بعض مجتمعات المسلمين ، من التنفير من التعدد ، ما هو أثر من آثار تقليد الغرب ، الذي لا يلتزم شريعة ، ولا يؤمن بدين الحق ، ولا يرضى باتباع الأنبياء ، حتى لو ثبت عندهم الأمر في كتبهم التي يعتبرونها مقدسة .

ولابد أن تتغير هذه النظرة ، ويُنْظر إلى التعدد كأمر شرعي مقبول ، كان عليه أكمل الخلق ﷺ ، وكثير من الأنبياء – صلوات الله عليهم – ، وأكثر الصحابة – رضي الله عنهم – ، وأما مسألة الغيرة التي تحصل للنساء ، والتنافس الذي يقع بين الأبناء من أمهات شتى ، كما وقع بين أبناء يعقوب عليه السلام ، فأمرٌ لابد من احتماله ، وعلاج آثاره اليسيرة لما في التعدد من المصالح والحكم ، وأيسرُ علاجِ الفصلُ بين الأبناء ، كما فعل إبراهيم عليه السلام بهاجر أم ولده ، واستقلالُ كل واحدة بمسكنها وحاجاتها وهذا هو الذي أوجبه شرع الإسلام ، كما أنه لابد للمسلمات المؤمنات من مقاومة أنفسهن الأمارة بالسوء ، التي تصل بالغيرة إلى حد يجعل الحياة الزوجية غماً ونكداً وكرباً ، عند حصول التعدد أو لمنع الرجل من الإقدام عليه ، وهو خطر كبير ، لأنه منع من أمرٍ أحله الله ﷻ وطيبه للرجال بشرطه ، وإغضاب المرأة زوجها في أمرٍ أحله الله له ، موجب لغضب ربها عليها ، كما دل عليه الحديث : « **إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا** » [1] ، ونسأل الله أن يهدي المسلمين والمسلمات لمحبة شرعه ، والرضا به ، والعمل به ، وإقامته في الأرض .

---

(١) رواه مسلم (١٧٣٦) .

وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ فيه فضيلة إيفاء الكيل ، وقد دلت السنة على استحباب الزيادة ، كما في حديث جابر أن النبي ﷺ قال للوازن الذي يوفيه حقه : « زِنْ وَأَرْجِحْ » [1]، وهذا كرم الأنبياء – عليهم السلام – ، وهو من أسباب تعلق قلوب العباد بهم ، فعلى الدعاة أن يقتدوا بهم في ذلك ، فإنه من أعظم أسباب استجابة الناس للحق ، كما قال الأعرابي الذي أعطاه النبي ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : (يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً ، لَا يَخْشَى الفَاقَةَ) [2]، فإنزال الناس المنازل الحسنة ، وحسن استقبالهم ، وإعطاؤهم ما يحتاجون هو من مكارم الأخلاق الفاضلة ، التي هي من أعظم أسباب نجاح الدعوة وقبولها ، وإذا كان ذلك قد وقع من يوسف عليه السلام مع من أساء إليه أعظم الإساءة ، فكيف بمن كانت معاملته بالإحسان دون الإساءة ؟!

وذكر **يوسف** عليه السلام لنفسه بصفات المدح التي هي حق في نفس الأمر ، إنما كان للحاجة في **ترغيبهم** في العودة إليه بأخيه ، ليتم ما أراد الله وكاد تعالى به ليوسف عليه السلام ، وقد جمع **يوسف** عليه السلام بين الترغيب والترهيب ، فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ ، وهو يعلم أنهم لا يستغنون عن عطائه ورِفده ، إذ ليس في البلاد كلها ما فيه ميرة وطعام إلا مصر بحمد الله وفضله .

وفي رد يوسف عليه السلام على إخوته بضاعتهم على اختلاف العلماء في سبب ذلك من : كونه خشي أن لا يجدوا بضاعة يعودون بها ، أو تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام ، دليل على الشفقة والرحمة التي جُبِلَ عليها يوسف ﷺ ، وأظهر الاحتمالات من الثلاثة التي ذكرها العلماء هو الأول ، إذ إنه صرح بأن السبب الدافع له على ذلك أنهم إذا عرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم كان ذلك سبباً في رجوعهم مرة ثانية : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، نعني أنه خشي أن لا يجدوا

(١) صحيح : رواه أبو داود (٣٣٣٦) ، والترمذي (١٣٠٥) ، وصححه الألباني .
(٢) رواه مسلم (٢٣١٢) ، وابن خزيمة (٢٣٧١) ، وأحمد (١٢٠٧٠) .

بضاعة يعودون بها لأن الإنسان إنما يرغب في معاملة من أحسن إليه ، ويشتاق إلى عودته إليه إذا بَعُدَ عنه ، رجاءً لمزيد من الإحسان ، أما أنه تذمم من أخذ عوض من أبيه وإخوته ، فعلى الرغم من وجهه الحسن إلا أنه ليس في القرآن ما يدل عليه .

والوجه الثالث : وهو أنه علم أنهم إذا وجدوا البضاعة فسيرجعون لردها لأنهم يتورعون ويتحرجون من ذلك ليس بظاهر أيضاً ، لأنه لو كان كذلك لظنوا وجود خطأ في وجود البضاعة في متاعهم ، وليس أنهم يعلمون أن الأمر مقصود متعمد كما دل عليه قوله تعالى عنهم : ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ ، فهم إذاً قد علموا أن البضاعة ردت إليهم قصداً ، وهم بذلك يُرَغِّبُون أباهم في إرسال أخيهم معهم لما وجدوا من إحسان العزيز إليهم برد البضاعة ، والله أعلم .



نكؤوا الجرح

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يتعجب الإنسان من طريقة إخوة يوسف عليه السلام في مواجهة أبيهم يعقوب عليه السلام ، كأنهم يريدون دائماً أن يغموه ، فهم في الحقيقة قد عادوا بكيل وافٍ وأُنْزِلُوا نُزُلًا كريماً ، وإذا بأول ما يواجهون به ويستقبلون به أباهم : ﴿ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ ﴾ يعنون : سيمنع في المرة القادمة إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين ، وعَبَّرُوا بالفعل الماضي للخبر عن المستقبل لتيقنهم بحصوله كأنه قد كان فعلاً ، وذلك ليتوصلوا إلى ما يريدون من سماح أبيهم لهم بإرسال بنيامين ، ولا يراعون دائماً مشاعر أبيهم ، ولا يحسنون التوصل إلى مقصودهم ، فهم بدؤوا بذكر ما يسوء قبل ما يسر ، مع أن ذكر ما يسر هو الذي يشرح الصدر ويحسن الظن ، ولذا نجد أن يعقوب عليه السلام ما قبل إرسال بنيامين إلا بعد أن علم ما يسر من رد البضاعة كما سيأتي – إن شاء الله تعالى – ، بل وكان رده على طلبهم في البداية هو التخوين وعدم الاستئمان ، هذا كله مما ينبئك عن شخصيات إخوة يوسف عليه السلام من سوء تقدير الأمور وترتيبها ، وعدم مراعاة أحاسيس الآخرين خاصةً أباهم ، ووجود فكرة مسيطرة على نفوسهم يندفعون لتحقيقها بسرعة وبإلحاح ودون تقديم مقدماتها ، فحُقَّ والله ليعقوب عليه السلام أن يفضل عليهم يوسف عليه السلام وأخاه ، ومن سوء تقديرهم أنهم استعملوا نفس العبارة بنفس الألفاظ التي استعملوها يوم أخذوا يوسف من أبيه وضيعوا الأمانة وخانوا العهد وكذبوا فيما وعدوا به أباهم :﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ نفس التأكيد بنفس الأسلوب ،فكأنهم نكؤوا الجرح الذي لم يندمل في قلب يعقوب على

ابنه الحبيب يوسف عليه السلام ، فتذكر يعقوب عليه السلام فوراً ما صنعوه بأخيهم ، فقال : ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ ، كم من الألم في قلب يعقوب عليه السلام من صنيعهم بأخيهم ، حتى لم يصْفُ لهم قلبه إلى اللحظة ، ولم ينسَ جريمتهم ، ولم يخلُ لهم وجه أبيهم كما سَوَّلَ لهم الشيطان حين فعلوا فعلتهم ، وهكذا الشيطان دائماً يخدع الإنسان فيقوده إلى شقائه بالوعد الكاذب ، ثم يتركه وحده يعاني من ذلك الشقاء ، مثل ما فعل بالأبوين فَرَاحَ الوعدُ بشجرة الخلد وملكٍ لا يبلى أدراجَ الرياح ، وبقي شقاء انكشاف السوءات وهتك الستر بينهما وبين ربهما ، وألم البعد والمعصية وضرر الغواية لولا اجتباء الله ﷻ وتوبته وهدايته ، وهنا ذهب الوعد الكاذب بخلو وجه أبيهم ومحبته لهم ، وبقي التخوين وعدم الاستئمان والتكذيب حتى لو صدقوا في حقيقة الأمر ، وبقي الأسف على يوسف عليه السلام وتضاعف حبه في القلب أضعافاً مضاعفة ، وتناقص قدر إخوته من قلب أبيهم وزاد تباعدهم عنه ، وزاد تقريبه لبنيامين لأنه أشبه بيوسف عليه السلام منهم فإذا كان ريحُ يوسفَ عليه السلام يُريحُ يعقوب عليه السلام ، فأَخُوه قطعاً أشدُّ إراحة له من ريح يوسف عليه السلام ، عوقب إخوة يوسف عليه السلام بنقيض قصدهم ، وهكذا كل من سلك إلى مقاصده طريق المعصية والمخالفة لأمر الله ، لا يحصل له مقصوده بل عكسه فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته – سبحانه وتعالى – .

ومع وجود الأسف والألم والحزن على ما فات ، يحتاج المؤمن إلى علاجٍ لهذا الألم وتدارك لهذا الحزن حتى لا يشقى به ، لابد من برد يطفئ به حر الأسف ، ولا أحسن ولا أجمل ولا أوسع ولا أفضل من التعلق بأسماء الله وصفاته ، فبه يحصل برد اليقين وحسن الظن وصدق التوكل والتفويض وانتظار الرحمة من أرحم الراحمين ، الذي هو أرحم بعبده من أمه وأبيه ونفسه التي بين جنبيه قال يعقوب عليه السلام : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ﴾ وقرئ ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا ﴾ ، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ، فحفظ الله ليوسف عليه السلام خير من حفظ يعقوب عليه السلام له ، نعم والله ، فحفظ الله له – بعيداً عن أبيه – كان أكمل وأعظم من حفظه له وهو يرعاه بنظره ويربيه بحنانه ، وتَصَوَّرْ لو بقي يوسف عليه السلام مع إخوته

مع هذا الكم الهائل من الحقد والحسد والكراهية ، كم من المكائد كان سيُدبَر له ؟ إن أفلت من واحدة لم يفلت من الأخرى ، إن بقاء الإنسان مع قوم يكرهونه ولو بغير حق هو من أعظم أسباب تشوش نفسه وتغير قلبه ، إن حاجة الإنسان إلى سلامة الصدر لمن حوله وممن حوله في طمأنينة قلبه واستقرار فؤاده حاجة عظيمة ، نجد هذا الأمر عظيماً في الشرع ، إذ يؤكِّد بكل أنواع الأدلة على أهمية الحب في الله وسلامة الصدر ، يكفيك قول النبي ﷺ : « **لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ** » (١) ، بل إن القرآن دل المؤمن على ما هو أعظم من ذلك ، دلّه على حب الملائكة له واهتمامهم به واستغفارهم له ودعائهم وصلاتهم من أجله ، بل دلّه على أن الكون حوله يحبه ويفرح به بموافقته له في تسبيح الله سبحانه ، وأنه بينه وبين السماء والأرض علاقة وحنين بسبب العبادة ، تبكي عليه السماء والأرض عند موته حزناً على فراقها لعبادته ، في حين لا تبكي على الكافر بل تستريح منه ، قال تعالى عن آل فرعون : ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ** ﴾ [الدخان : ٢٩] ، وقال النبي ﷺ : « **وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَيَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ** » (٢) ، وقال ﷺ : « **إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ** » (٣) ، كل هذا ليستريح المؤمن ويسعد ولا يشقى ، لأن الإنسان لا تكمل شخصيته ولا يستقيم حاله بغير الحب ، فلو كان يوسف قد بقي عند يعقوب - عليهما السلام - ، هل يكون حاله كما كان في قصر العزيز وسط مشاعر الأبوة والحنان ، والتي إن لم تصل إلى أبوة يعقوب عليه السلام وحنانه إلا إنها بلا منازعة ولا مخالفة من عشرة رجال يخالطونه ليلَ نهارَ ؟ ثم لمّا وقع من امرأة العزيز ما وقع ، ودبت الرغبة في الانتقام إلى قلبها لأنها في حقيقة الأمر تحب نفسها وشهوتها لا تحب يوسف عليه السلام ، إنها تريد حظها منه لا تريده هو ، فاختار الله ﷻ له

---

(١) رواه مسلم (٥٤) ، والترمذي (٢٥١٠) ، وأبو داود (٥١٩٣) ، وابن ماجة (٦٨) .
(٢) سبق تخريجه ص (٤٠) .
(٣) صحيح : رواه الترمذي (٢٦٨٥) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧) .

السجن ليبتعد عن هذا الجو الكئيب ، وكان في السجن مع من يراه بعين الإحسان والصديقية : ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ ، حاجة الإنسان إلى هذا ، أشد من حاجته إلى مسكن فسيح وفراش مريح وطعام لين .

إن الرق كان في حقيقة الأمر حِفظاً ليوسف عليه السلام ، وإن السجن كان – في باطنه – حفظاً ليوسف عليه السلام من عند خير الحافظين وأرحم الراحمين – سبحانه وبحمده – ، ما أعظم التفويض ! وما أجمل التوكل ! وما أجمل تعلق القلب بالله – سبحانه – فهو ﴿ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ يحفظ عبده المؤمن من حيث يظن الناس الضياع ، ويرحمه برحمة من عنده لا تشبهها رحمة من حيث يظن الناس العذاب ، اللهم لك الحمد كما تقول وخيرًا مما نقول ، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فاللهم احفظنا في ديننا وأنفسنا وأهلينا وذرياتنا ، احفظ المسلمين والمسلمات ، فأنت خيرٌ حافظاً وأنت أرحم الراحمين .

إن شهود هذه المعاني يجعل العبد يتعلق برحمة الله تعلقاً خاصاً ، يشهد به فضله ، ويطمع في المزيد من رحمته ويتوكل عليه وحده ، ويحفظه في نفسه وأهله ، وأولاده ودنياه وأخراه ، ويدبر أمره بما لا يحسن هو من التدبير ، وكأن هذه مقارنة بين حال إخوة يوسف عليه السلام وبين حال أبيهم يعقوب عليه السلام وهم يقولون : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ فينسبون الحفظ لأنفسهم وهم المضيعون العاجزون ، بل ويؤكدون قيامهم بالحفظ بأدوات التوكيد (إن) ، (لام التوكيد) ، وما انتبهوا أن يسألوا الله التوفيق في هذا ، أو أن يتوكلوا عليه في أمرٍ لا يملكونه ولا يقدرون عليه ، فهكذا حال الإنسان الجاهل القليل الذكر ، كلامهم من أول القصة خالٍ من الذكر والتوجه إلى الله عز وجل واستحضار أسماء الله وصفاته إلا حين بدأوا يندمون وقال قائلٌ منهم : ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ فكان هذا أول تعلق لهم بأسماء الله وصفاته رزقهم الله به لما شرعوا في التوبة .

أما قبل التوبة فلا تزال الغفلة ، ولا يزال البُعد ، ولا يزال نسبة الفضل والعمل للنفس مع التقصير والتضييع ، أما يعقوب عليه السلام فكلامه كله من أول القصة لا يخلو من ذكر الله والتعلق بأسمائه وصفاته فلما قالوا له : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ قال : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فهم في وادٍ وهو في واد ، وهم في شأن وهو في شأن آخر ، هم في الأرض وهو قلبه في السمو والعلو للقرب من الله – سبحانه – ، نسأل الله أن يرزقنا حبه وقربه وطاعته .



ميثاق من الله

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾

الإحسان يُشعر الإنسان بالأمان ، ويفتح من قلبه ما كان مغلقاً ، ويشرح من قلبه ما كان ضيقاً ، فتح أخوة يوسف عليه السلام متاعهم فوجدوا بضاعتهم رُدَّتْ إليهم ، فعرفوا أن هذا مزيد إحسان من عزيز مصر رغّبوا به أباهم في إرسال أخيهم معهم ، وهذا بخلاف ما واجهوا به أباهم أولاً ، فإنهم واجهوه بـ ﴿ مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ ، عند أول رجوعهم حتى قبل فتح المتاع ورؤية الكيل الوافي والخير الكثير ، وهذا تأكيد لما ذكرنا من نقص شخصيتهم وسوء تقديرهم ، ثم شرعوا بعد فتح المتاع وَوَجْدِهِم بضاعتهم في إقناع أبيهم بإرسال أخيهم فقالوا : ﴿ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾ ، قال قتادة : ما نبغي وراء هذا ، وهذا يدل على أنهم فهموا أن العزيز أراد الإحسان إليهم ، وليس أنهم تحرجوا وتورعوا أن يأخذوا البضاعة ، أو أن يأخذوا الطعام بلا ثمن ، وهذا الإحسان هو المفتاح الأول الذي غَيَّرَ موقف يعقوب عليه السلام ، وبدأ يُعيد النظر في أمر إرسال بنيامين معهم .

وقولهم : ﴿ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ أي : وقد أوفى لنا الكيل ، فهو شعور بالامتنان والفضل ، ثم ذكروا المفتاح الثاني : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي : نحضر لهم الميرة وهي الطعام ، وأنبياء الله أشفق خلق الله وأرحمهم بالخلق وخصوصاً الأهل ، فيعقوب

عليه السلام يعلم شدة الحال والحاجة في أعوام الجدب ، ثم ذكروا المفتاح الثالث : ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ تأكيد ما ذكروه قبل ذلك من حفظٍ : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ ، ثم ذكروا الأمر الرابع وهو : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۢ ذَٰلِكَ كَيْلٌۭ يَسِيرٌۭ ﴾ فإن التيسير على الخلق من صفات الأنبياء ، ولقد كان رسول الله ﷺ : « لا يُخَيَّرُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ »[1] ، وقال لمعاذ وأبي موسى - رضي الله عنهما - : « يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا »[2] ، وقال لأصحابه : « إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ »[3] .

فالأنبياء - وتبعٌ لهم الصالحون - يحبون التيسير والسعة والزيادة في الخير على الخلق ، فازدياد كيل بعير مما تتم به التوسعة على الأهل في أعوام الجدب والقحط ، وأحسن الأقوال في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌۭ يَسِيرٌۭ ﴾ ما ذكره الجلال السيوطي : (أي : يسير عليهم) ، أي : على عزيز مصر ، أي : لاتساع الأمر عندهم وكثرة الخير لديهم ، وأما ما ذكره ابن كثير - رحمه الله - في ذلك من أن المعنى : يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا ، فلا يظهر لي وجهه ، إذ لا يكون في الكلام ترغيب لإرسال أخيهم معهم ، بل يكون المعنى تهوين شأن هذا الكيل وليس بمناسب للسياق ، كيف وفي أعوام القحط يكون حمل البعير شيئاً عظيماً ؟! يدل عليه قوله تعالى عن فتيان يوسف عليه السلام : ﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍۢ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌۭ ﴾ ، فإذا كان صواع الملك الغالي الثمن مكافأة من يحضره حمل بعير ، دل ذلك على أن حمل البعير وكيل البعير شيء كبير ، وأيضاً ما ذكره عن مجاهد أن المقصود حمل حمار ليس بظاهر ، إذ لا دليل على ذلك ولا قرينة ، فالظاهر البعير المعروف .

ولما وجد يعقوب عليه السلام مظاهر إحسان عزيز مصر إلى أبنائه ، آنس الأمان وحصل له رجاء الخير من إرسال بنيامين معهم ، فقرر إرساله معهم ولكنه احتاط في حفظه ،

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠) ، ومسلم (٢٣٢٧) ، وأبو داود (٤٧٨٥) .
(٢) رواه البخاري (٣٥٦٠) ، ومسلم (٢٣٢٧) ، وأبو داود (٤٧٨٥) .
(٣) رواه البخاري (٣٠٣٨) ، ومسلم (١٧٣٣) ، وأحمد (١٩٢٤٣) .

وغلظ الأمر على بنيه بأخذ عهد وميثاق من الله ﷻ عليهم ، أي : يحلفون له ويعاهدون الله - سبحانه - أن يأتوا بأخيهم إلا أن يُحاط بهم ، أراد يعقوب عليه السلام أن يجعل عهدهم معه عهداً وموثقاً منهم لربهم - سبحانه - ، فالنقض في هذه الحالة ليس نقضاً مع أبيهم فقط ، بل نقضٌ مع ربهم ﷻ ، وهذا لا شك أعظم وأشد ، كما كان النبي ﷺ يقول لمن يبعثه غازياً : « **وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ ﷺ** »[1] .

وأراد يعقوب عليه السلام بذلك أن يستشعر أبناؤه هذه المسؤولية الخاصة أمام ربهم - سبحانه - ، تلك المسؤولية التي تُنبت صدق المراقبة ، فالعبد إذا استحضر أن عهده إنما هو مع الخلق ، فإنما يراقبهم هم ، فإذا غابوا عنه أو غاب عنهم سهل عليه النقض والمخالفة ، وأما إذا تكونت هذه المراقبة لله - سبحانه - وصار يعامل ربه ﷻ ، فأين يغيب عنه ؟ وبالفعل كان لهذا الموثق أكبر الأثر في أبناء يعقوب عليه السلام في بذل كل جهد منهم للرجوع ببنيامين .

قارن بين تفريطهم في يوسف عليه السلام ، وحرصهم على عودة بنيامين لأبيهم حتى عرضوا أن يُؤخذ أحدهم يدفع إلى العزيز بدلاً من بنيامين وفداءً له ، على الرغم من أن الحسد لم يَزُلْ بَعْدُ بالكلية من قلوبهم ، حيث قالوا : ﴿ **قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ** ﴾ ، ومع ذلك كان الموثق من الله هو السبب الأول في بذل كل جهد منهم وبقاء أحدهم في مصر وعدم عودته إلى بلده وأهله محاولةً لأخذ بنيامين ، وهذا يدل على أثر التربية على تعظيم العهد مع الله ﷻ والمعاملة معه - سبحانه - ، وهكذا كان السلف يعظمون العهد على الصغار ، كما في الأثر عن إبراهيم النخعي : (كانوا يضربوننا على العهد ونحن صغار) ، فينبغي للمربي أن ينتبه لهذا الأمر ويغرسه في قلب من يربيه ،

(١) رواه مسلم (١٧٣١) ، والترمذي (١٧١٦) ، وابن ماجة (٢٨٥٨) .

ولا يستعمله إلا في الأمور العظيمة حتى تظل له قيمته العظيمة في القلب .

وتأمّل في شفقة يعقوب عليه السلام على بنيه حين يقول لهم مستثنياً : ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ ، فهو يعلم أنه قد يأتيهم أمر يعجزون عنه ولا يستطيعون دفعه ، فلا يُحَمِّلُهم ما لا يطيقون ولا يأخذ عليهم عهداً مطلقاً بلا استثناء ، لو حصل ما يعجزهم لكانوا ناقضين له ، وهو لا يريد لهم نقض عهدهم مع الله ﷻ ، ويشفق عليهم كما كان رسول الله ﷺ يفعل في بيعته ، كَمَا فِي حَدِيثِ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ ، قَالَتْ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي نِسَاءٍ نُبَايِعُهُ ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا مَا فِي الْقُرْآنِ أَنْ ﴿ لَا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وقَالَ : « فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ » ، قُلْنَا : الله وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا ، قُلْنَا يَا رَسُولَ الله أَلَا تُصَافِحُنَا ، قَالَ : « إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ »[1] .

فهذه شفقة الأنبياء ورحمتهم بأتباعهم ، وهي أيضاً تؤدي إلى تعظيم عهد الله ﷻ وموثقه ، فإن شعور العبد بأن انتقاض موثقه مع الله ولو بغير إرادته أمر عظيم هو تعظيم لعهد الله ، فإذا استثنى عند العهد ما ليس في الاستطاعة والطاقة لم يكن ناقضاً للعهد ، فيظل الميثاق على منزلته وقيمته في نفسه ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ ، عاد يعقوب عليه السلام ليؤكد على تكوّن هذه العلاقة الخاصة مع ربهم – سبحانه – و﴿ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ ، فالله ﷻ هو الذي نتوكل عليه في الوفاء بهذا العهد والموثق ، وهو الذي نُشهده عليه ونستحضر مراقبته لنا في الوفاء به ، وكل هذا التأكيد على هذه المعاني لأن الإيمان إذا استقر في القلب كان هو المُحرك والمؤثر في السلوك ، وإذا ضعف أو زال كان نقض العهود وخيانة الأمانات وكذب الحديث والظلم والعدوان والحقد والحسد ، نعوذ بالله

---

(١) صحيح : رواه النسائي (٤١٨١) ، والترمذي (١٥٩٧) ، ومالك (١٨٤٢) الموطأ ، وأحمد (٢٦٤٦٩) واللفظ له ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥١٣) .

ونسأل الله أن يحبب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا ، وأن يكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان وأن يجعلنا من الراشدين .



توكُّل يعقوب عليه السلام

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

تغيرت طريقة الحديث بين يعقوب عليه السلام وبين بنيه ، فمن أول القصة إلى هذا الموضع في كل خطابات يعقوب عليه السلام لهم لم يذكر لهم مرة ﴿ يَٰبَنِي ﴾ إلا هذه المرة ، فهذه أول مرة ذُكرت في القرآن يخاطبهم يعقوب عليه السلام فيها بـ ﴿ يَٰبَنِي ﴾ ، هذا النداء الحبيب المحبب المذكر بالرابطة العظيمة والوشيجة الحبيبة والعلاقة الحانية ، لكن لماذا تغيرت الطريقة ولماذا في هذا الموضع بدأ يعقوب يخاطبهم بـ ﴿ يَٰبَنِي ﴾ ؟

نجد – والله أعلم – أن ذلك وُجد من يعقوب عليه السلام لما رأى منهم بداية العلاقة الخاصة مع ربهم – سبحانه – ، بالموثق وبالمراقبة وبالتوكل ، بدأت القلوب تتحرك نحو الذكر ونحو الشعور بأسماء الله وصفاته وآثارها ، فرقَّ قلب يعقوب ورقَّ لسانه عليه السلام ، وهكذا كلما ذكر الإنسان ربه وتعلق به واستحضرمراقبه والتوكل عليه وحده .... وفدت إليه قلوب المؤمنين بل والخلق كلهم بالود والحب ونطقت ألسنتهم بآثار هذه الوفادة ، بخلاف القلب البعيد عن الله وعن ذكر الله ومحبته ومعرفته تنفر منه القلوب ولا تنطق الألسنة إلا باللعن والشتم ، حتى لو نطقت بالمدح – رغبة أو رهبة أو مصلحة – فإنها لا تزال عند غياب المراقبة أو زوال الرهبة أو فوت الرغبة والمصلحة تنطق بأنواع

الخبث والكراهية التي يشقى الإنسان بسماعها ، فضلاً عن تخيل حقيقة ما في القلوب من البغض الذي عبرت عنه الألسنة ، مساكين مساكين من حياتهم صباحاً ومساءً في لعن وشتم لأنفسهم وأهليهم وأولادهم ورؤسائهم ومرؤوسيهم ومن حولهم ، أحاطوا أنفسهم بالمقت والبغضاء لما حرموا أنفسهم من ذكر الله واستحضار أسمائه وأفعاله ، فالله المستغاث المستعان ، وإليه المشتكى ، ولا حول ولا قوة إلا به .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (يقول تعالى عن يعقوب عليه السلام أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر ألا يدخلوا كلهم من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة ، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد : إنه خشي عليهم من العين ، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء ، فخشي أن يعينهم الناس بعيونهم ، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه ، وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في الآية في قوله : ﴿ **وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ** ﴾ قال : علم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب ، وقوله : ﴿ **وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ** ﴾ أي : إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله ولا قضاءه ، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿ **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا** ﴾ قالوا : هي دفع إصابة العين لهم : ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ** ﴾ قال قتادة والثوري : لذو علم بعمله وقال ابن جرير : لذو علم لتعليمنا إياه ﴿ **وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾) أ . هـ .

الله – سبحانه وتعالى – أعلم بحاجة يعقوب عليه السلام من أمره بنيه بالدخول من أبواب متفرقة ، فإن الله لم يبينها في كتابه ، ولم يبينها رسول الله ﷺ في سنته ، فلا تعرف إلا على سبيل الظن والاحتمال ، إن يعقوب عليه السلام كتم حاجته في نفسه ولم يخبر بها الناس ، وحمى الله هذه الخصوصية بينه وبين ربه فلم يكشفها للناس ، بل صار هذا مثلاً يضرب لما يكتمه الإنسان في نفسه من أغراض فيقال : ﴿ **حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ**

قَضَىٰهَا ﴾ يعنون : أن الواحد منهم يريد شيئاً لا يعرفه الناس ، فسبحان الله على ما في قلوب الأنبياء من العلم بالله والرغبة فيما عنده مما لا يعلمه الناس ، وما يفعله سبحانه بهم ، يقضي حوائجهم ويُخفي على الناس أسرارهم رعاية لحقهم وحفظاً لمنزلتهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - .

فإن كانت الحاجة في نفس يعقوب خوفه على أولاده من العين ، والعين حق كما تواتر ذلك عن النبي ﷺ ، فيكون فيها دليل على أخذ الأسباب في دفع العين بعدم إظهار النعم لمعروفٍ بالحسد والإصابة بالعين مع كمال التوكل على الله ، كما أمر بذلك يعقوب عليه السلام ، وإن كانت الحاجة ما ذكره النخعي من لقيا يوسف عليه السلام إخوته - إن قلنا به ، وليس بظاهر بل الأول أظهر ، وأحب إليّ أن نقف عند ما وقَّفَنَا الله ﷻ عنده ورسوله ﷺ - ففيه الاجتهاد في البحث وأخذ الأسباب وعدم اليأس من رحمة الله - سبحانه وتعالى - .

وعلى القولين ، فالأمر بالدخول من أبواب متفرقة كان أخذاً بالأسباب ، ولابد أن يكون معه كمال التوكل وشهود فقر العباد وغنى الرب - سبحانه - وقهره وعزته ، وأن أمره نافذ لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، ولا يغني أحدٌ عن أحد من أمر الله شيئاً ، ولهذا قال يعقوب عليه السلام عقب أمره لهم بالدخول من أبواب متفرقة : ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ، وتأمل تأكيد عموم النفي بـ ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ فهو يستشعر - رغم كمال شفقته على أولاده ورحمته بهم ونصحه لهم - أنه لا يغني عنهم ذرة فما فوقها بل ولا أدنى من ذلك ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ .

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ وهذا هو الحكم الكوني القدري ، ولا شك أن الحكم كله لله الشرعي والكوني ، فالحكم الشرعي هو ما يُشرع للناس ، فالحق هو ما شرعه دون ما سواه ، ولا يحل لأحد أن يعتقد أو يُجَوِّز أو يُلزم ويوجب غير حكمه سبحانه وإلا زال إيمانه بالله ﷻ رباً وإلهاً .

والحكم الكوني هو ما يأمر الله ﷻ بتكوينه فيكون ﴿ **إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [يس : ٨٣] ، وهو الذي لا يقع في الوجود غيره ، شاء الناس أم أبوا ، أحبوا أم كرهوا ، وهذا النوع من الحكم هو الذي يليق بهذا السياق ، لأن يعقوب عليه السلام أراد منع ضررٍ ما عن بنيه بما نصحهم من التفرق في الأبواب ، وهذا الضرر سواء أكان إصابتهم بالعين أم غير ذلك ليس أمراً مشروعاً ، بل هو أمر قدري كوني ، فالمناسب في هذا السياق أن يكون هو المقصود ، والله أعلم .

وقوله عليه السلام : ﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ ، ذكر توكله ، وأمرهم بالتوكل وأمر غيرهم من الخلق ؛ لتكون كلمته تلك منقولة إلى الخلق والناس من بعده ، فيأخذ ثواب من عمل بنصيحته ، وقد نقل الله كلمته للناس في القرآن العظيم الخالد ، وبقيت هذه الكلمة دالة على أن جميع الأنبياء يتوكلون على الله وحده ، ويأمرون غيرهم بالتوكل في الأمور الدينية والدنيوية ، فالتوكل من أعظم الطاعات ، بل هو من أركان الإيمان لو زال من القلب بالكلية لزال الإيمان بالكلية ، ولو نقص لنقص الإيمان وبكماله يكمل الإيمان ، وتأمل تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل ﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾ وهذا للاختصاص ، أي : أتوكل على الله وحده وليتوكل المتوكلون على الله وحده دون من سواه ، وهو أيضاً للاهتمام بتعظيم شأن إفراد الله بالتوكل ، والتوكل علم وعمل ، فهو أن يعلم العبد أن الله وحده هو النافع الضار المعطي المانع الذي يدبر الأمر ، أما العمل فهو أن يثق بربه غاية الوثوق ويحسن الظن به ويفوض الأمر إليه ويعتمد بقلبه عليه في جلب مصالح دينه ودنياه وآخرته ، وأعظم التوكل : التوكل على الله في تحقيق عبوديته في نفسه وفي غيره من الخلق وفي نصرة دينه ، وهذا توكل الأنبياء وخاصة الأولياء ، ونهاية هذا التوكل ، التوكل على الله في دخول الجنة ، كما قال النبي ﷺ : « **وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُم الجَنَّةَ عَمَلُهُ** » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ الله وَلَا أَنْتَ ، قَالَ : « **وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ** » [1] ، ويدخل في ضمن هذا التوكل في تحقيق العبودية له ،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٧) ، ومسلم (٢٨١٦) ، وابن ماجة (٤٢٠١) ، وأحمد (٦١٦٢) .

التوكل عليه في تحصيل أعمال القلوب وأحوالها والثبات على ذلك ، وكذا القيام بالأعمال الظاهرة ، كما قال الصحابة رضي الله عنهم :

والله لـولا اللهُ مـا اهتـدينا ولا تصـدَّقْنا ولا صَـلّيْنا
فـأنزلَنْ سـكينةً علينـا وثبِّـتِ الأقـدامَ إن لاقَيْنـا

وَأَمَرَ النَّبِيُ ﷺ مُعَاذاً أَنْ يَقُولَ دُبُرَ كُلِ صَلاةٍ : « **اللهمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ** » (1) ، فلا يُنال ما عند الله إلا بعبادته ولا تُنال عبادته إلا بالاستعانة به والتوكل عليه .

وقوله سبحانه وتعالى :﴿ **وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا** ﴾ أخبر الله أن قضاءه نفذ في أبناء يعقوب عليه السلام ، وقد أصابهم ما كتب الله عليهم من البلاء في مدخلهم ذلك من غمهم وهمهم في أخذ أخيهم منهم وما ترتب عليه من مواجهتهم أباهم بأسوء حال ، حتى فَضَّلَ كبيرهم ألا يعود إلى أبيه خوفاً من مقابلته بخبرِ فَقْدِ أخيهم بنيامين ومواجهة غضبه وأسفه وحزنه ، وقضى الله ﷻ حاجة يعقوب عليه السلام التي أكنَّها في نفسه وسترها الله عنا كذلك ، فما نحب أن نبحث عنها كما سبق .

وتأمل أن أبناء نبي من أنبياء الله حَرِص أبوهم على نفعهم وعدم ما يضرهم ، لكنه ما أغنى عنهم من الله شيئاً بما قدمت أيديهم من قبل ، فإن عاقبة الكذب وخيانة الأمانة والحسد وخلف الوعد لابد أن يصيبهم الله بها ولو بعد حين ، لابد أن يصيبهم من الغم والهم والانكسار والذل وإعراض أبيهم عنهم ، وهم الذين الذي فعلوا ما فعلوا ليخلو لهم وجهه فعوقبوا بنقيض قصدهم ، قضى الله حاجة يعقوب عليه السلام التي في نفسه وأصابهم هم ما كتب الله عليهم من البلاء ، فكلٌّ يُعامَل بما يستحقه حسب نيته وعمله ، لا يغني أحدٌ عن أحدٍ شيئاً .

---

(1) صحيح : رواه أبو داود (١٥٢٢) ، والنسائي (١٣٠٣) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩) .

ثم مدح الله ﷻ يعقوب عليه السلام مدحاً عظيماً ، وأثنى عليه من خير ثناء بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ ، وقول ابن جرير - رحمه الله - : وهو أن المعنى لذو علمٍ لتعليمنا إياه ، هو الظاهر وهو أن سبب علم يعقوب عليه السلام أن الله هو الذي علمه ، فالعلم الذي كان عنده من عند الله وبتعليمه ﷻ ، والقول الثاني قول قتادة والثوري : لذو علم بعمله ، أي : أن العلم الذي كلف به يعقوب عليه السلام قام به ولم يضيعه ولم يفرط فيه ، فهو قائم يعمل بما فرضه الله عليه من العلم لم يتوان فيه ولم يقصر ، ككثير من الناس ممن لا يعرف قدر العلم الشرعي ويفرط فيه ولا يعمل به فيضيعه ، فيكون سبباً لأن يحرم منه ويزول عنه وينساه ، والعياذ بالله .

قوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بيان لحال أكثر الناس في جهلهم بحقائق الإيمان من : شهود عزة الرب - سبحانه - وقهره وملكه ونفوذ أمره ، وأن لا معقب لحكمه ، ومن اختصاصه المؤمنين لمزيد فضله ، وقضاء حوائجهم وإجابة دعائهم ، وتعليمهم ما لا يعلمون ، ففيه تنفير وتحذير من الجهل وعدم الاغترار بالكثرة الجاهلة ، فنعوذ بالله من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع .



لقاء الأخوين بعد غياب السنين

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

جاء إخوة يوسف ﷺ معهم بنيامين ، ودخلوا عليه واختصر القرآن ما هو معلوم من إحسانه إليهم وإكرام ضيافتهم إلى موقف الحب والحنان ، إلى اللقاء المنتظر بين الأخوين المتحابين اللذين لم يلتقيا منذ سنوات طويلة ، وهما شركاء في المعاناة من حسد إخوتهم الآخرين .

وتأمل لفظ : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ ﴾ فالإيواء فيه معنى : الضم للمفارق ، والقرب للبعيد ، والأمان للخائف ، والحنان للمحروم منه ، والإيناس للغريب ، لنتوقف طويلاً في هذه اللحظة ويوسف ﷺ يبث لأخيه هذه البشرى التي لم تكن لتخطر بباله ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾ ، يوسف ﷺ الذي ضاع منه صغيراً ، رفيقه الحبيب الذي طالما افتقده ، لندرك قدر الحنان العظيم الذي بثه يوسف ﷺ في هذه الكلمة الجميلة ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾ التي تُذكر برابطة الرحم ووشيجة القربى وحب الإخوة الصادق .

استعمل أخي الكريم هذه الكلمة كثيراً مع إخوانك في النسب ، وفي الدين ستجد لها أثراً عظيماً في نفسك أنت أولاً ، ثم في نفس أخيك والعلاقة بينكما ثانياً ، ثم لجو الود والصفاء والحنان الذي تشيعه في مجتمعكم .

إن علاقة الإخوة من أسمى العلاقات الإنسانية التي حين تفقد من مجتمعنا يحصل فيه من الجفاف والغلظة والقسوة والغفلة والعداوة والكراهية ما تجعل الحياة شقاءً ونكداً لا يُطاق ، وإن وجود هذه الرابطة من أعظم أسباب ذوق حلاوة الإيمان ، كما قال النبي ﷺ في الثلاثة التي يجد بها المرء حلاوة الإيمان : « **وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا**

لله »[1] ، وإن التذكير بهذه الرابطة بمثل هذه الكلمة ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾ ليسقي بذرتها المباركة فتنبت بسرعة شجرة يانعة وارفة الظلال طيبة الثمار ببركة اتباع الأنبياء أرحم عباد الله بعباده – عليهم الصلاة والسلام – .

ثم واساه يوسف عليه السلام وآنسه بقوله : ﴿ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ لا تحزن ولا تأسف على ما كانوا يفعلونه بنا من أذى ، فهذه عاقبة الصبر ، خير عاقبة ، قد صار يوسف عليه السلام عزيز مصر ، له من الملك ما يتبوأ منه حيث يشاء من أرضها ، بعد الرق صار ملكاً ، وبعد الضيق صار إلى السعة ، وبعد البلاء صار إلى عافية .

كيف كان شعور بنيامين وهو يسمع هذه الكلمات ؟ كيف كان فرحه وسعادته ؟ فعلاً فوق الوصف والتعبير بقلم أو لسان ، نسأل الله أن يذيقنا من مثل هذا الحب والحنان والفرح بتأليف قلوبنا وإصلاح ذات بيننا والنصر على عدوه وعدونا .

أمر يوسف عليه السلام أخاه بأن يكتم أمره ، واتفق معه على الحيلة التي سوف يقوم بها ليأخذه منهم ويبقيه عنده في دار كرامته ، والذي يظهر لي أن هذه الحيلة والسعي لأن يأخذ أخاه إنما هو وحي من الله – تعالى – ، بدليل قوله – تعالى – : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ ﴾ ، وذلك لأن ما جرى من أخذ بنيامين وعدم إرجاعه إلى أبيه الكبير في السن المكلوم بفقد ابنه الأول ، فيه من الأذى الجسيم لنبي الله يعقوب عليه السلام ما لا يعلمه إلا الله ، مما لا يجوز أن يقدم عليه يوسف عليه السلام بغير وحي من الله – تعالى – وإذْنٍ له في ذلك ، لأنه لو كان بغير وحي وإذن شرعي لكان من أعظم العقوق ، وحاش يوسف عليه السلام من العقوق ، والله أعلم .



---

(١) سبق تخريجه ص (٨٦) .

كيد الله ليوسف عليه السلام

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الحيلة التي وفق لها يوسف عليه السلام لكي يأخذ أخاه عنده ، وهو أنه لما جهز إخوته وحمل لهم طعامهم ، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية ، وهي الإناء الذي يشرب فيه ، قيل : من فضة ، وقيل : من ذهب ، قال ابن زيد : وكان يكيل للناس به من عزة الطعام ، أي من قلة الطعام .

قال ابن عباس : كان من فضة يشربون فيه ، وكان مثل المكوّك (والمكوك : إناء قدر الصاع) ، ولهذا قال عنه : (صواع الملك) ، أي : صاعه الذي يكيل به ، ثم بعد خروج قافلتهم ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ أي : نادى منادٍ ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ ، وقد يسر الله ليوسف عليه السلام أن لا يكذب في كل ما قاله كذبة واحدة ، وإنما استعمل التعريض ، فقول مؤذنه ﴿ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ حق ، لأنهم سرقوا يوسف عليه السلام من أبيه وباعوه وأكلوا ثمنه ظلماً وبهتاناً ، فقال إخوة يوسف عليه السلام مقبلين عليهم ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ ؟ وهذا أيضاً من تيسير الله ليوسف عليه السلام عدم الكذب ، فإنهم لم يقولوا لهم ماذا سرقنا ؟ فتكون الإجابة (سرقتم صواع الملك) غير صادقة ، وإنما قدّر الله أن يقولوا لهم ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ ، فقالوا : ﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ وهذا حق ، فإن صواع الملك لم يكن بأيديهم ساعة قولهم ذلك ، ويمكن أيضاً أن يكون الذي قال : نفقد صواع الملك لا يدري في متاع من فيهم بالتحديد فهم يفقدونه .

وقوله : ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٍ ﴾ أي : طعاماً ، هذا بالنظر إلى قلة الطعام يعد كبيراً ، وقوله : ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ أي : ضامن لمن أتى به أن يعطى حمل بعير .

وفي الآية ثلاثة أحكام شرعية :

الحكم الأول : حكم الشرب في آنية الذهب والفضة واستعمالها ، والظاهر من الآية مع تفسير ابن عباس لها - أن الصواع كان من ذهب أو فضة - حل ذلك في شريعة يوسف عليه السلام ، وأما في شريعتنا فقد نصت السنة على تحريم الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة ، قال رسول الله ﷺ : « **الَّذِي يَشْرَبُ فِي إِنَاءِ الفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ** »[1] .

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **لَا تَلْبَسُوا الحَرِيرَ وَلَا الدِّيبَاجَ ، وَلَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا ، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الآخِرَةِ** »[2] ، وهذا الحديث الأخير ظاهر في تحريم وجوه الاستعمال كلها للعموم في قوله : (هي لهم) أي : للكفار في الدنيا ، وهذا يقتضي حرمة جميع وجوه الاستعمال إلا ما خصه الدليل ، وقد نقل الإمام النووي - رحمه الله - وغيره الإجماع على ذلك ، والخلاف في هذه المسألة في أن النهي يختص بالأكل والشرب فقط هو لبعض المتأخرين ولا يُعرف عن السلف .

وكما ذكرنا فالحديث عام ، ثم القياس الصحيح يقتضي إلحاق وجوه الاستعمال بالأكل والشرب ، فاستعمال ساعة اليد أو غيرها أو سلسلة المفاتيح أو السكين أو الملعقة من الذهب والفضة من المحرمات عند عامة العلماء بل ومن الكبائر .

ولا شك أن شرع من قبلنا إذا ورد شرعُنا بخلافه لا يكون شرعاً لنا ، وهذه المسألة من هذا الباب لأن السنة صريحة في التحريم ، حتى لو ورد ما يدل على حِل ذلك

---

(١) رواه البخاري (٥٦٣٤) ، ومسلم (٢٠٦٥) .
(٢) رواه البخاري (٥٦٣٣) ، ومسلم (٢٠٦٧) .

في شريعة يوسف عليه السلام فهو منسوخ بشرعنا .

الحكم الثاني : في قوله تعالى : ﴿ ولِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ ، دليلٌ على صحة **الجعالة** ، وهي : جعل مال معلوم لمن يعمل له عملاً مباحاً ولو مجهولاً ، لأن الحاجة تدعو إلى ذلك في رد الضالة ونحوها ، ولا تجوز الإجارة عليه للجهالة ، فدعت الحاجة إلى العوض مع جهالة العمل .

الحكم الثالث : في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ ، دليل على الكفالة والضمان ، والضمان جائز إجماعاً ، وقد قال النبي ﷺ : « **الزَّعِيمُ غَارِمٌ** » [1] ، فإذا ضمن المال فهو غارم يغرم إذا لم يأت به من عليه الدين ، والكفالة هي : أن يلتزم إنسان بإحضار بدن من عليه حق من دين أو عارية ونحوهما إلى صاحب الحق .



(١) صحيح : رواه الترمذي (١٢٦٥ ، ٢١٢٠) ، وأبو داود (٣٥٦٥) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١١٦) .

نجاح الحيلة

قال تعالى : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

قال ابن كثير - رحمه الله - : (لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة ، قال لهم إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ أي : لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا - لأنهم شاهدوا فيهم سيرة حسنة - أنا ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ أي : ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة ، فقال لهم الفتيان : ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ ﴾ أي : السارق إن كان فيكم ، ﴿ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أي : أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه ؟ ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام ، أن السارق يُدفع إلى المسروق منه ، (أي يكون عبداً ورقيقاً عنده) وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام لهذا : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ أي : فَتَّشَها قبله تورية ، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاماً لهم بما يعتقدونه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه ، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أي : لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر ، قاله الضحاك وغيره ، وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه ، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ، ولهذا مدحه الله – تعالى – فقال : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الحسن البصري : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله ﷻ ، وكذا روى عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن عبد الأعلى الثعلبي عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس رضي الله عنهما فحدث بحديث عجيب ، فتعجب رجل ، فقال : الحمد لله ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : بئس ما قلت ، الله العليم فوق كل عالم ، وكذا روى سماك عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، قال : يكون هذا أعلم من هذا ، وهذا أعلم من هذا ، والله فوق كل عالم ، وهكذا قال عكرمة وقال قتادة : وفوق كل ذي علم عليم حتى ينتهي العلم إلى الله ، منه بدأ ، وتعلمت العلماء ، وإليه يعود ، وفي قراءة عبد الله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾) أ. هـ . من تفسير ابن كثير – رحمه الله – .

قيض الله ليوسف عليه السلام من كلام إخوته ما تلزمهم به الحجة ، من غير أن يضطر يوسف عليه السلام للكذب ، فأقسم إخوته أنهم قد علموا أنهم ما جاؤوا ليفسدوا في الأرض ، وما كانوا سارقين ، ولم يقولوا لم نسرق صواع الملك لأنهم لو قالوا ذلك لما كانوا كاذبين ، وأما قولهم : ﴿ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴾ فكذب ، لأنه نفي عام لوصفهم بذلك ولو في الماضي ، وقد سرقوا يوسف عليه السلام من أبيه كما تقدم ، ولذا ساغ له أن يقول لهم : ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ ، ثم قيض الله ﷻ أن يقولوا : ﴿ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ ، ولم يقولوا جزاء من سرقه أو أخذه ، وقد وُجد الصواع في رحل بنيامين ، كما أنهم التزموا العقوبة التي يَجزون بها الظالم لنفسه بالسرقة عندهم ، وليست هي العقوبة في حكم الملك ، وهو في قوله : ﴿ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ يعود على الذي وجد عنده المتاع ، أي : الشخص يكون رقيقاً وعبداً جزاء سرقته .

وفي قوله تعالى عنهم : ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ دليلٌ على أن السرقة من الإفساد في الأرض ، وذلك لأنها انتهاك لحرمة أموال الناس ، مع أن أهل مصر كانوا على غير الإسلام ، إلا إن السرقة ممن دخل دار الكفر بأمان من أهلها – وكذا كل أنواع الإفساد في الأرض من قتل أو قطع طريق أو غير ذلك – كل هذا نقض للعهد ، وذلك أن من دخل دار الكفر بأمان من الكفار يُعد أماناً منه – أي الداخل – لهم على أنفسهم وأموالهم وأهليهم ، فلا يجوز أن يتلصص عليهم ، ولا أن يسفك دماً أو ينتهك حرمة لهم ، وهذا الحكم في شرعنا باق عند جمهور العلماء ، منهم الأئمة الأربعة وغيرهم ، ذلك لأنهم ما أعطوه الأمان إلا على ذلك ، والمشروط عرفاً كالمشروط لفظاً ، ولذا كان من دخل ديار الكفر والحرب بما يعرف اليوم بتأشيرة الدخول داخلاً بأمان ، فلا يجوز أن يقتل منهم أحداً ، ولا أن يأخذ مالاً ، لا على وجه المغالبة ولا على وجه التلصص ، بل يكون مفسداً في الأرض ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ فيه استعمال التورية والتلطف لئلا يشكوا أن في الأمر حيلة ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ ففيه إثبات صفة الكيد لله – سبحانه وتعالى – وهو التدبير في الخفاء من حيث لا يشعرون ، والله قد وصف نفسه بهذه الصفة في سياق المدح والثناء ، لأن كيده سبحانه هو خير الكيد لا نقص فيه ولا ذم ، وإن كان لا يُشتق من هذا الفعل اسمٌ له سبحانه مثل الكائد ، ولا ينبغي أن يُطلق الفعل مجرداً عن السياق ، بل يُذكر الفعل في سياقه الدال على الكمال ، لأنه كاد سبحانه في الخير ، وكاد سبحانه بمن يستحق أن يُكاد بهم لما تقدم من ظلمهم واستحقاقهم عقوبة ما صنعوا بأخيهم من قبل ، وكذلك كان هذا الكيد لكي يظل يوسف عليه السلام في خصومته مع إخوته ملتزماً بالشريعة التي تلزمهم جميعاً وهي شريعة إبراهيم عليه السلام كما تقدم ، وهو لم يكن يلزمه أن يطبقها في أهل مصر ، لأنها لم تكن شريعة عامة لأهل الأرض جميعاً كشريعة الإسلام التي بُعث بها النبي محمد ﷺ ، لا يسوغ لأحد أن يخرج عنها ، وإنما كانت لازمة ليعقوب عليه السلام وأبنائه ، فكان هذا

الكيد من الله – سبحانه – ليظل هذا الالتزام قائماً ، والله أعلم .

وفي قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أي : حكمه وشرعته ، وهذا دليل على أن لفظ الدين معنيٌّ به التزام الشرع والحكم ، وإن كان استعماله في معنى الملة أوسع إلا أن من أجزاء الملة التزام الشريعة والحكم ، فلا يصح ولا يثبت دين الإسلام لشخص لا يلتزم شرع الله – سبحانه – الذي شرعه لجميع الخلق وافترض عليهم اتباع محمد ﷺ الذي جاء له ، وقد سبق البحث في كون الملك مسلماً كما حكاه مجاهد ، وسبق الكلام على عدم تطبيق يوسف عليه السلام شريعة يعقوب عليه السلام على أهل مصر لأنها ليست لازمة لهم ، وإنما دعاهم إلى التوحيد والإيمان بالله – سبحانه – واليوم الآخر ، وهذا الذي كان يلزمهم ، ولهذا ساغ للملك أن يظل مع إسلامه – لو ثبت – على دينه ، أي : حكمه وشرعه السابق لأنه لم يرد ما يلزمه بمخالفته وتركه ، وهذا لا يسوغ الآن لأحد من أهـــل الأرض مع شريعة محمد ﷺ الذي قال له ربه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

ويوسف عليه السلام لما تحاكم إليه إخوته ، حاكمهم إلى شرعهم اللازم لهم بتوفيق الله – سبحانه – ومشيئته ، ولما كان هذا الأمر دالاً على منزلة يوسف عليه السلام وحسن تصرفه وتدبيره وعلمه ، مدحه الله – سبحانه – فقال : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ ، فالله رفع يوسف عليه السلام على إخوته درجات متعددة في الإيمان والنبوة ، وفي الخلق والسلوك ، وفي العقل والعلم وحسن التدبير ، فسبحان الله في قسمه وعطائه ، وتفضيله من شاء بفضله ونعمته ، والحمد لله على عطائه ومنحه وحفظه ورفعه ، وتأمل كيف ذكر الله ذلك من خلال ذكر أفعال الرب – سبحانه – : ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ ، ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ ، ثم ختمت الآية بذكر صفة العلم لله سبحانه فوق كل العلماء : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، وقد أنكر ابن عباس رضي الله عنه على من ظن أنها ثناء على البشر ، حين احتج بها من احتج على علم ابن عباس رضي الله عنه ، فقال له : بئس ما قلت ،

فالله - سبحانه - هو العليم فوق كل ذي علم ، وهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - سبحانه وبحمده - ، فعلى العبد دائماً أن يكون حاضرًا في ذهنه أن الله هو الذي يفعل ، وأن ما شاء كان ، وأنه العليم - سبحانه - فوق علم البشر ، وأن يشهد حسن تدبيره - سبحانه - لعباده المؤمنين ، وتوفيقه لهم بما لا يقدرون عليه ولا يحيطون به علماً إلا بتعليمه وإعانته .



ما زال الحقد باقياً

قال تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

عجيب شأن إخوة يوسف ﷺ ، على الرغم من مر السنين وغيابه عنهم فلا يزال الحقد والحسد يملأ قلوبهم عليه ، فهم يحاولون تنقيصه وأخيه طالما سنحت لهم فرصة في ذلك ، يدلك هذا الأمر على طبيعة مرض الحسد والغل ، وأنه لا يزول بمجرد مرور الزمن أو بُعد المحسود عن الحاسد ، وإنما يزول باستعمال دوائه من شهود قَسْم الله وعطائه لعباده وأنه يؤثر من يشاء بما يشاء ، وهم إلى تلك اللحظة لم يستعملوا هذا الدواء ، ولذا لما وجدوا فرصة للطعن في يوسف ﷺ وأخيه انتهزوها وسارعوا إلى النيل منهما فقالوا : ﴿ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (يتنصلون إلى العزيز من التشبه به ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف ﷺ ، قال سعيد بن جبير عن قتادة : كان يوسف ﷺ قد سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره ، وقال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف ﷺ من البلاء فيما بلغني أن عمته ابنة إسحاق ﷺ ، وكانت أكبر ولد إسحاق ﷺ ، وكان عندها منطقة إسحاق ﷺ – وهي ما يلف على الوسط – ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، فكان من اختبأها ممن وليها كان له سلمٌ لا ينازع فيه ، يصنع فيه ما يشاء ، وكان يعقوب ﷺ حين ولد له يوسف ﷺ قد حضنته عمته ، وكان لها به وَلَهٌ – أي : حب شديد – فلم تحب أحداً حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات ، اشتاقت إليه نفس يعقوب ﷺ ، فأتاها فقال : يا أُخيَّـةُ ، سَلِّمي إليَّ يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة ، قالت : فوالله ما أنا بتاركته ، ثم قالت : فدعه عندي أياماً أنظر إليه ، وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه ،

أو كما قالت ، فلما خرج من عندها يعقوب عليه السلام ، عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام ، فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق عليه السلام ، فانظروا من أخذها ؟ ومن أصابها ؟ فالتمست ، ثم قالت : اكشفوا أهل البيت ، فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام ، فقالت : فقالت والله إنه لي لسلم – أي : يسلم لها – أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب عليه السلام فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب عليه السلام حتى ماتت ، قال : فهو الذي يقول إخوة يوسف عليه السلام حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه : ﴿ **إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ** ﴾) أ . هـ .

وهذا والذي قبله من الآثار الإسرائيلية التي لا تصدق ولا تكذب ، وإن كان لابد من التنبيه على أن ما تضمنته هذه القصص من اتهام من لا يُعرف عنه تهمة ، يجب رده ، خصوصاً من كان من آل الأنبياء أو أصهارهم ، فاتهام صهر يعقوب عليه السلام بأن له صنمًا تهمة بلا بينة ، ولا ينبغي الظن بيعقوب عليه السلام أن يصاهر من يتخذ الأصنام ، إلا أن يكون المقصود به تمثالاً لا يُعبد ، فيكون الأمر أهون لاحتمال أن يكون جائزاً في شرعتهم ، ولكن في الأصل أيضاً أن تصوير ذوات الأرواح مضاهاة للرب – سبحانه – فهو أمر متعلق بالتوحيد فلا تختلف فيه الشرائع فيكون ممنوعاً ابتداءً .

وكما في قوله تعالى عن سليمان عليه السلام : ﴿ **يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ** ﴾ [سبأ : ١٣] ، ليس هناك ما يدل على أنها من ذوات الأرواح ، ولذا لا ينبغي إساءة الظن بصهر نبي في شرك أو معصية بلا دليل يجب التسليم إليه ، وكذا قصة ابنة إسحاق عليه السلام وحيلتها بالكذب لتأخذ يوسف عليه السلام من أبيه بغير حق مما ينبغي عدم قبوله ، لأنها ابنة نبي وأخت نبي وعمة نبي لم يثبت عنها هذه الحيلة غير الشرعية ، بخلاف حيلة يوسف عليه السلام لأخذ أخيه فإنها كانت لإنقاذه مما فعله إخوته به ، فهم قد امتلأت قلوبهم حقداً وحسداً عليه حتى لو كان فيه إيلام يعقوب عليه السلام ، إلا أنه إذا علم أن هذه الحيلة إنما كانت لمصلحة بنيامين – وهي تدبير الله وتوفيقه – لرضي بذلك قطعاً ، وقد كان .

الغرض المقصود أننا لسنا بحاجة إلى هذه القصص ، فإن هذه التهمة التي اتهمها إخوة يوسف عليه السلام تهمة باطلة على أية حال ، وغير مستغرب منهم تلفيق تهمة باطلة ، سواء أكانت مبنية على واقعة معينة حرفوها وأولها على غير وجهها ، أم كانت مختلقة من أصلها ، وليس مثل هذا بمستبعد عن من ملأ الحسد قلبه ، فإنه إن لم يجد ما يتنقص به محسوده اختلق واخترع ما يتنقصه به ، فهم يريدون عيب يوسف عليه السلام بما ليس فيه وبما لا يليق به حتى في طفولته ، فإن سجايا الأنبياء وصفاتهم الجِبلية التي فطرهم الله عليها هي أكمل السجايا والصفات ، والسرقة نوع من الخيانة تنفر النفوس منها ، حتى لو وقعت من إنسان حال طفولته وعُرفت عنه ، ولذا كانت مقالة إخوة يوسف عليه السلام عيباً وطعناً فيه يستشفي الحسود بها غِلَّه وحقده ، حتى ولو كانت الواقعة المدعاة حال الطفولة ، فتكون مسبة له مر الدهر ، فينزه عنها الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – .

وتأمل **كيف** كانت محاولتهم التنقيص من يوسف عليه السلام سبباً لنقصهم هم ، فهم يواجهون **يوسف** عليه السلام بالطعن فيه جاهلين أن العزيز هو يوسف عليه السلام ، فأسر يوسف عليه السلام في نفسه **قوله** عنهم : ﴿ **أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ** ﴾ ، فكل مَن رام تنقيص غيره بالباطل واتهامه بما ليس فيه .. رغبةً في وجاهة عند ذي سلطان أو عند أحد من الخلق ، فإن عاقبة مكره السيء تعود عليه ، فيحصل له النقص عند ذي السلطان وعند الناس جميعاً ، ووالله إن هذه الكلمة التي قالوها عن يوسف عليه السلام وأخيه لتجعل قلوب المؤمنين في كل زمان ومكان تشعر بنقيصتهم وسوء مقالتهم وفساد قلوبهم تجاه أخويهم اللذين هما أفضل منهم بلا شك ، وهكذا كل مغتاب نمام ، فإنه بغيبته ونميمته لمن يكرهه إنما يرفع قدره ويضع من قدر نفسه ، ويُبغِّضُها للناس ثمرةً ونتيجة لعمله الذي يُبْغضه الله عز وجل ، بل كل سالك لغرض من أغراضه سبيلاً خلاف سبيل الحق ، فإنه يحصل له في عاقبة الأمر عكس ما قصد ، فهم حين أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم بإبعاد يوسف عليه السلام عنه ، ما ازدادوا من أبيهم إلا بُعداً ، وما ازداد ليوسف عليه السلام إلا حباً .

وأتعجب من نفسي ماذا يكون شعور إخوة يوسف عليه السلام وظنّهم لو علموا أن الذي يعنون بالسرقة من قبل هو هذا الملك العزيز أمامهم ؟! كيف كان خجلهم وفضيحتهم ؟! ثم لو كان صدقاً فما الحاجة في أن يذكروا أمام ملك غريب منهم فضائح إخوتهم ، كأن عائلتهم عريقة في السرقة ؟! وهل هذا إلا فضيحة لأنفسهم من حيث أرادوا تبرئتها ؟! فكأنهم يثبتون الجريمة على أخيهم ويؤكدون أنها صفة لازمة في الأسرة ، ماذا يصنع الحقد بأهله ؟! وماذا يدمر الحسد من صورة صاحبه ؟! وكما قيل : لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله ، ثم تأمل حِلم يوسف عليه السلام المظلوم أولاً والمظلوم ثانياً ، الذي يملك أن ينتقم وينتصر ويواجه المبطل بباطله ، ولكنه يحلم ويكظم غيظه ، ولا يزيد على أن يُحدِّث نفسه بمَقالِة يقول : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ أي : مما وصفتم به أخاكم كذباً وزوراً ، نعم والله ، فإن من سرق أخاه من أبيه النبي وباعه رقيقاً شر ممن سرق صنماً أو منطقة أو غير ذلكَ لو كان شيء من ذلك .

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ هذا الأسلوب القرآني الرائع في رد العلم إلى الله فيما لا فائدة من معرفته ، فالله أعلم بحقيقة ما وقع من يوسف عليه السلام مما جعل إخوته يصفونه بهذا الوصف الباطل ، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ ثم تكون نهاية الأمر عند يوسف عليه السلام بعد الحلم وكظم الغيظ ، العفو والصفح والمغفرة بل والدعاء والتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته أن يغفر لهم : ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ، ما أحلمه ! وما أكرمه ! وما أجمله خَلقاً وخُلقاً ! فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم – عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام – .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أي : الكلمة التي قالها في نفسه أسرها ولم يظهرها ، وهي قوله : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ وهو من باب ذكر الضمير قبل الاسم الذي يعود عليه ، قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أسر في نفسه ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي : تذكرون ، والله أعلى وأعلم .

محاولات فاشلة

قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

شرع إخوة يوسف عليه السلام يستعطفونه ويترققون له لكي يطلق أخاهم ، ولو بأخذ أحدهم مكانه ، فهم يفضلون أن يكون أحدهم رقيقاً على أن يرجعوا إلى أبيهم بغير أخيهم ويواجهوا سخطه وغضبه عليهم ، فسبحان الله مدبر الأمر ، كيف جعل وجه يعقوب عليه السلام لأبنائه – وهم الذين يسعون لأن يخلو لهم وجهه – أشد عليهم وأقسى من الرق ، وما ذاك – وهو أبوهم الرحيم الرفيق – إلا بسبب أعمالهم وخصالهم السيئة ، وإلا فأنبياء الله أرحم خلق الله بخلقه ، فكيف برحمتهم بأبنائهم ؟! ولكنها عاقبة المعصية وشؤمها .

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ أي : وهو يحبه حباً شديداً ، ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، يعجبني كثيراً أن كل خطابات إخوة يوسف عليه السلام كانت تبدأ بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ ﴾ ، حقًا واللَّـهِ أعزه الله عليهم أعظم إعزاز ، نعم هي وظيفته ولقبه ، ولكنه لقب خاص اختاره الله له ، فالمعتاد في مثل منصبه لفظ الوزارة أو الملك أو غير ذلك من ألفاظ الرياسة ، ولم يذكر العزيز إلا في هذا المنصب في هذا الزمان ، وهو اسم ووصف يستحقه يوسف عليه السلام ، ولله العزة جميعاً يُعز بها من يشاء ويُذل من يشاء ، أعز من شاء بطاعته وأذل من شاء بمعصيته ، وفي قولهم : ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ دليلٌ على ما كان عليه يوسف عليه السلام من الخُلق الحسن والإحسان إلى الناس ، فإخوته – وهم لا يعرفونه بل وهم يغتابونه أمامه من حيث لا يشعرون – لا يملكون إلا أن يشهدوا بما يرون من إحسانه ، فكل من يعامله يراه من المحسنين ،

صاحباه في السجن شهدا له بذلك والنسوة شهدن بأنهن ما علمن عليه من سوء وإخوته كذلك ، ولقد لمس الملك وأهل مصر جميعاً من إحسانه وكرمه ما نفعهم الله ﷻ به ، وهذه الصفة من أهم صفات الداعي إلى الله تعالى ، يلزمه أن يحافظ عليها ، بل ويتكلفها ليفتح الله له بها قلوب الناس .

وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ ولم يقل إلا من سرق متعانا حفاظاً على التعريض وعدم الكذب ، فهو في الحقيقة لم يسرق ولكنهم وجدوا متاعهم عنده ، ولو أخذ غيره لكان ظالماً فعلاً ، لأنه إنما يأخذ أخاه ليكرمه ويبعده عن جو الحقد والحسد والبؤس الذي يحيطه به إخوته ، ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، هكذا قال له ، ولو أخذ واحداً منهم بتهمة السرقة لكان معاقباً له على فعلٍ لم يفعله ، وما كان ليكرمه كإكرامه لأخيه الذي يستحق ذلك ، وفي استعاذته ﷺ بالله من الظلم ، دليلٌ على حاجة الحاكم إلى اللُجأ إلى الله والدعاء ليجيره من ظلم الأبرياء ، وهذه الحاجة حاجةٌ شديدةٌ ماسة ، لأن الحكم له صولة وجاه ينسي أكثر الحكام ويعميهم ، ولا يشعرهم بخطر الكلمة الواحدة منهم التي قد يتعذب بسببها بريء زمناً من الدهر ، وكم شقيت أمم وشعوب بظلم حكامهم ، وهم في غفلتهم وسكرتهم يعمهون ولا يشعرون ، وسبب ذلك أنهم ما لجأوا إلى الله ليعيذهم من الظلم ، فإن الاستعاذة بالله من الظلم من أعظم أسباب النجاة والتحصن من كيد الشيطان ومكره ، أعاذنا الله من الظلم ووفقنا للعدل ، ونسأله سبحانه أن لا يسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا .



قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

دليل على أن إخوة يوسف عليه السلام قد بذلوا جهداً كبيراً ، وألحوا على العزيز يوسف عليه السلام إلحاحاً شديداً في أن يُطلق أخاهم ، ودل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ ﴾ ، فلم يكن طلباً مجرداً ، بل كان إلحاحاً وجهداً لم يصلوا إلى غايتهم منه فيئسوا منه ، وهذا الجهد كان لأمرين :

الأول : كراهيتهم أن يعودوا لأبيهم من غير أخيهم .

الثاني : الموثق من الله الذي أخذه أبوهم عليهم ، فقد كان العهد عظيماً في نفوسهم ، فبعد يأسهم من العزيز أن يرد عليهم أخاهم ولو ببدل ﴿ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ أي : انفردوا عن الناس يتناجون ويتباحثون سراً فيما بينهم في شأنهم ، وماذا يصنعون في هذه المصيبة التي نزلت بهم ، ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن كثير : (وهو روبيل ، وقيل : يهوذا ، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر حين همّوا بقتله) أ . هـ .

نجد هذا الأخ عنده نزعة من الخير وتقليلاً للشر ، إن صح أنه هو الذي كان

نصحهم بعدم قتله ، وهذه النزعة ظهرت جلياً في هذا الموقف ، فهو يذكرهم بالعهد والميثاق مع الله – سبحانه – الذي قد أخذه أبوهم عليهم برد بنيامين إلا أن يحاط بهم ، والتذكير بعهد الله ﷻ دليل المراقبة والمحاسبة للنفس وإلا فالفاجر لا يعبأ بعهوده ومواثيقه ، وقوله : ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ هنا بدأ الندم يظهر في قلوبهم ويحل على ألسنتهم بعد السنين الطوال ، وهذا أول موضع يعترفون أو يعترف أحدهم ويقره الباقون بالتفريط في حق يوسف عليه السلام ، قد منّاهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم حين مكروا بيوسف عليه السلام أن يكونوا من بعده قوماً صالحين وأن يتوبوا ، فما تابوا ولا صلحوا إلا بعد هذه السنين ، فالعبد لا يملك قلبه ، والله يحول بين المرء وقلبه ، وإنما يُرزق الإنابة والتوبة مع استشعار المراقبة لله ، والعلاقة الخاصة والمسؤولية بين يديه ، ومع ذكر الله – سبحانه – ومعرفة أسمائه وصفاته ، فتأمل كلامهم من أول السورة ما ذكروا صفة الرب – سبحانه – إلا في هذا الموضع حيث قال كبيرهم : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ .

سبحان الله ! ما استشعروا أن الله هو الذي يحكم وأنه خير الحاكمين إلا بعد هذا العمر الطويل حين بدؤوا يعاملون ربهم ، إن أعظم نعمة ينعم الله بها على عبده أن يملأ قلبه بمعرفته ، وأن يُشهِدَ قلبه أسماءه وصفاته وأفعاله ، وأن يأخذ بناصيته إليه ويريه ملكوت السماوات والأرض ويجعله من الموقنين ، وينقذه من ورطات الغفلة عن الله وعن صفاته وأفعاله وملكه وحمده ، هذه الغفلة التي يعيش فيها أكثر الناس فلا يدرون كم يجلبون على أنفسهم من الشقاء بها ، ويعانون من أنواع التعاسة والبلاء والمصائب والمحن بسببها ، مع أن معرفة الله ثم محبته والتوجه إليه سبيل قصد مستقيم سهل ، أقصر الطرق إلى السعادة ، وأيسر السبل إلى الغاية التي خلق الإنسان من أجلها .

وتأمل كيف كانوا طول عمرهم في تعب الحسد ونكد الحقد حتى ذكروا الله وصفاته وأسماءه وشهدوا حكمه وأمره ، فبدأ الفرج يلوح لهم وبدأ الخير الذي أوله الندم واستشعار الخطيئة ومشاهدة الجناية يدب إلى قلوبهم ، وإن كان الفرج دائماً يأتي في

صورة بلاء يبلغ مداه ، وضيق يبلغ غايته ، تأتي بعده السعة واليسر ، فتأمل أن يوم الفرج للوط عليه السلام كان في أوله يومًا عصيبًا كما قال الله عنه : ﴿ سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾ [هود : ٧٧] ، وكان يوم نصر الله نبيه إبراهيم عليه السلام هو يوم إلقائه في النار وهو الذي كانوا يعدون له عدة ، وكانت لحظة النجاة لموسى عليه السلام يوم فلق البحر هي لحظة ﴿ تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ ﴾ [الشعراء : ٦١] ، وقول أصحاب موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] ، ويوم نصر الله نبيه محمدًا ﷺ نصره المؤزر بلا عمل أحد من الناس يوم وصل الكفار إلى الغار .

فدائماً لحظة الفرج تسبقها أشد لحظات الشدة ، فإذا وجدت الأمور تضيق وتصل إلى الغاية ، مع وجود إنابة وتوبة واستحضار لأسماء الله وصفاته وحكمه وحمده ومعاملة خاصة معه وشهود معيته ، فأبشر فإنها لحظات الفرج القريب إن شاء الله تعالى .

كما قال رسول الله ﷺ : « وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ،وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا » [1] ، فاللهم فَرِّجْ كربات أمتنا ، وانصرنا في مشارق الأرض ومغاربها ، ويسر لنا أمرنا برحمة واسعة من عندك تغنينا بها عن رحمة من سواك ، وانصر المسلمين في العراق وفلسطين وأفغانستان والشيشان والهند وكشمير وفي كل مكان يا رب العالمين .

وقول كبيرهم : ﴿ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ أي : أرض مصر لن أغادرها ﴿ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾ أي : يمكنني من أخذ أخي ، فهو يتوكل على الله ويرجوه أن يحكم له بتحرير أخيه ورده إلى أبيه وفاء بالموثق ، ويتوسل إلى الله – سبحانه – باسمه ﷻ ﴿ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ .

ثم أمرهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه بما حدث : ﴿ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٢٨٠٠) مسند بني هاشم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٦) .

سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾ ، قال قتادة وعكرمة : بما علمنا وهو أن ابنك سرق ، وقال ابن زيد : ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً إنما سُئِلْنَا ما جزاء السارق ؟ يعنون بذلك الاعتذار والتنصل لأن ظاهر الأمر أنهم السبب في أخذ أخيهم ، رغم أن ذلك ليس هو جزاء السارق في حكم الملك ، فهم يعتذرون إلى أبيهم بأنهم حين التزموا للعزيز بأن جزاء من وجد في رحله فهو جزاؤه ، ما كانوا حافظين للغيب ، أي : عالمين به ، وهو أن أخاهم قد سرق شيئاً ، فهم ما شهدوا إلا بما علموا من شريعتهم أن جزاء السارق أنه يدفع إلى المسروق منه ، أي : ولو كانوا يعلمون الغيب وأن أخاهم قد سرق ، لما التزموا بذلك ، والله أعلم .

وقوله عنهم : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ يعنون : مصر ، هذا هو الظاهر ، وهو قول قتادة ، ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي : القافلة التي رافقناها ، اسألهم عن صدقنا وأمانتنا ، ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ تأكيد لصدقهم بـ ﴿ إِنَّ ﴾ المؤكدة ولام التوكيد ، ولكن ما يغني التأكيد عن من جُرِّبَ عليه الكذب قبل ذلك ، وما يغني السؤال عن أمانة من عُلم عنه خيانة الأمانة قبل ذلك ، إن اليقين المعلوم في النفس أبلغ من السؤال ، خصوصاً السؤال الذي لا يمكن ، فأنى ليعقوب عليه السلام أن يسأل أهل مصر ؟ ولكنهم لا يدرون ماذا يصنعون ، وكيف يقنعون أباهم بأن هذه المصيبة الهائلة الجديدة لا صُنع لهم فيها ، وأنهم ما فرطوا هذه المرة ؟!

لكنه الجزاء العدل من الله – سبحانه – للكاذب الخائن الفاجر ، أن يُرد خبره كله ولو صدق في بعضه ، وَيُخَوَّنُ في شأنه كله ولو كان أميناً في بعضه ، ويُعامَل كفاجر في أمره كله ولو عدل في بعضه ، وفي هذا حجة لأهل الحديث في رد حديث من عُرِفَ بالكذب مع أنه لا يكذب في كل حديثٍ يحدثه ، ولكن طالما ثبت كذبه مرة فيجب معاملته كذلك حتى يتوب وتحسن توبته ، والله أعلم .

كل هذا أصابهم بسبب ما صنعوا بيوسف عليه السلام منذ زمن طويل ، فعقوبة العاصي

قد تتأخر ، وقد يملي الله للظالم ولكنه لا يهمله ، ولا يضيع حق المظلوم ودعوته كما في الحديث القدسي ، قال الله ﷻ عن دعوة المظلوم : « وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » .



(١) صحيح : رواه الترمذي (٣٥٩٨) ، وابن ماجة (١٧٥٢) بلفظ « بعزتي » ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٧) .

كرب جديد فوق الحزن القديم

قال تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

كيف كان وقع الخبر على يعقوب عليه السلام ؟ ضاع ابنه الثاني الحبيب إلى نفسه ، وغاب الثالث في انتظاره ، وكيف كان رد فعله على هذه المصيبة الشديدة عليه السلام ؟ ثم كيف يكون ابنه الحبيب المُربَّى على عينه ، الذي يعلم صفاته وسجاياه الطيبة شبيه يوسف الكريم عليه السلام قد سَرَق ؟ أمرٌ لا يُقبل ولا يُصدق ، فكان من الطبيعي أن يتهم إخوته – الذين سبق منهم الكذب والخيانة ، ومضى منهم الحسد والضغينة – بأن نفوسهم المريضة قد سولت لهم وزينت أمراً بأخيهم الثاني ، فقد كانت كلمتهم هذه المرة : ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ شبيهةً بكلمتهم أول مرة : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ ، كما كان عهدهم في هذه المرة : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ كعهدهم أول مرة كذلك مع يوسف عليه السلام ، فكان جوابه عليهم مثل ما قال لهم أول مرة : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ، قال ابن كثير – رحمه الله – : (قال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه وصح قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾) أ . هـ . ، والذي يظهر لي – والله أعلم – أن يعقوب عليه السلام ما قصد فعلهم الأول حتى يتكلف تصحيح قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ بل

كان هذا ظناً من يعقوب عليه السلام أنهم صنعوا مكراً بأخيهم بنيامين ، ولا مانع من تجويز الخطأ في الظن على الأنبياء وهم لا يُقَرُّون على ذلك ، فإذا كان الخطأ في الاجتهاد في الأحكام جائزاً وواقعاً ، فلأن يكون جائزاً وواقعاً فيما لا يترتب عليه حكم أولى وأحرى ، ولقد اجتهد النبي ﷺ في شأن الأعمى ونزل عتابه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [عبس : ١-٢] ، واجتهد في أسارى بدر ، واجتهد في قبول عذر المنافقين في غزوة تبوك ، وبين الله ﷻ له عفوه عنه في هذه الاجتهادات ، وقد وقع منه ﷺ في شأن تأبير النخل ما هو معلوم حتى قَالَ : « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ » (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٨-٧٩] وهذا كله دليل على جواز وقوع الخطأ في الاجتهاد من الأنبياء ، وأنهم ينبهون عليه ، فهذا الذي وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الباب ، والله أعلم ، وهو معذور عليه السلام فيما وقع منه لسابق فعلتهم بيوسف عليه السلام ، ومع ظنه ذلك كان رد فعله أجملَ رد فعل وأحسنَه : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي : الذي لا شكوى فيه إلى الخلق ، ما أعظم صفات الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ، مصيبة هائلة وخطب جسيم نكأ الجرح والحزن الدفين ، ومع ذلك فلا يقابل إلا بالصبر الجميل ، بل ولما زاد الكرب وعظم المصاب واشتد البلاء رجا قرب الفرج من ربه العليم الحكيم فقال : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي : يأتيه بأبنائه الثلاثة يوسف وبنيامين وكبيرهم رويل أو يهوذا ، و ﴿ عَسَى ﴾ من الله واجبة ، وهي من أنبياء الله خبر عن الله ﷻ، فإن شدة البلاء علامة على قرب الفرج لأن الأمور يدبرها العليم بأحوال عباده ، الحكيم فيما يُقَدِّره ، ليست الأمور تجري بغير حكمة وإحكام ، وليست من صنع البشر ، إن المقادير يقدرها العليم الحكيم بعلمه وحكمته وإحكامه لكل شيء صنعه ، لا يضع الأشياء إلا في مواضعها ، ولا يشرع الشرائع ولا يُقَدِّر المقادير إلا للحكم والمصالح التي هي أحب إليه مما لو لم يقدر

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٣) ، وأحمد (١٢١٣٥) .

المكروه ، فيخلو الأمر عن هذه الأمور المحبوبة التي ترتبت على المكروه ، فكم في هذا الألم الذي قدره الله على يعقوب عليه السلام من حكمة بالغة ومصلحة عظيمة ، وعبادة له سبحانه ، وقدوة وأسوة ، وصبر وحلم ، ورجاء وحسن ظن بالله ، ومعرفة بأسمائه وصفاته وشهود لآثارها في الكون ، وكم ارتفعت درجات يعقوب عليه السلام عند الله ، وكم من ثناء حسن ولسان صدق في الآخرين بسبب موقفه الرائع : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، اللهم لك الحمد على ماقضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أعرض عن أبنائه وتذكر حزنه القديم على يوسف عليه السلام ، جدد له فقد الابنين حزنَ فَقدِ يوسف عليه السلام ، بل هو لم يزل موجوداً في قلبه لم يفارقه ، ولكن الصبر الجميل منع من ظهوره أمامهم ، وقد يتعجب المرء من أن الخبر بفقد بنيامين كان يناسبه أن يقول : (يا أسفى على بنيامين) ، ولكنه قال : ﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ، فلا شك أن يوسف عليه السلام كان أحب إليه ، ثم إن هذا الموقف ذكره بقيمة يوسف عليه السلام وقدره وصفاته الجميلة .

فها هم أحد عشر رجلاً لا يستطيعون حفظ واحد منهم ، فما قدرهم بالنسبة إلى قدر يوسف عليه السلام ؟ إن هذه البلايا إنما يقوم لها يوسف عليه السلام مقامهم مجتمعين ، بل خيراً منهم بلا شك ، ووالله لقد كان ، فيوسف عليه السلام هو الذي يفرج الله به كرب يعقوب عليه السلام في بنيه ، ولكنه يفتقده حينما قال : ﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ، إن فقد الرجال وغياب الكرماء وانعدام الثقات هو الذي يؤلم رعاة البشر الأنبياء – عليهم السلام – وأتباعهم ، إن هذا المعنى – والله أعلم – الذي جعل عمر رضي الله عنه عندما كان يصلي بالناس فقرأ هذه السورة ، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى عن يعقوب عليه السلام في هذا الموضع : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، سُمع نحيبه ونشيجه من آخر المسجد ، أي : بكاؤه الشديد ، وهو الذي يقول رضي الله عنه : (اللهم إني أشكو إليك جَلَدَ الفاجر وعَجْزَ الثقة) ، ويقول لجلسائه يوماً : (تمنَّوْا) ، فيتمنى أحدهم مالاً ينفقه في سبيل الله ، ويتمنى الآخر خيلاً يجاهد

عليها في سبيل الله وغير ذلك ، فيقول : (لكني أتمنى داراً مثل هذه فيها رجال مثل أبي عبيدة بن الجراح أستعملهم في أمور المسلمين) ، أو كما قال ﷺ ، إنه والله هَمٌّ عظيمٌ وشدةٌ شديدةٌ أن يُفقد الرجال ، إذا كان في زمان عمر والصحابة - رضي الله عنهم - حوله متوافرون يشكو إلى الله عجز الثقة ، بل أعظم من ذلك إذا كان رسول الله ﷺ هو الذي يقول : « إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً »[1] ، فالراحلة التي تصلح للسفر الطويل وحمل الأعباء أقل من واحد بالمائة في الناس ، فكيف بأزمان انعدم فيها الثقات وغاب فيها العلماء وعز فيها الكرماء ؟! اللهم إليك المُشتكى ، ويا أسفى على أصحاب رسول الله ﷺ وأمثالهم - وما لهم مثيل - وأشباههم وأتباعهم ، ماذا نصنع وكيف نهنأ بالعيش ، والمسلمون قد تضاعف عددهم بآلاف الملايين ، وتضاعف كربهم ومحنتهم وبلاؤهم ، وعظُم الجهل فيهم وَقَلَّ العلم فيهم ، وتسلط عليهم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها ، أما يحق لنا أن نبكي ونبكي على أنفسنا وأهلينا وأبنائنا وأمتنا ؟!

إن يعقوب عليه السلام لما ضيع أبناؤه أخاهم الثاني ، تذكر أمانة يوسف عليه السلام وكرمه وعلمه وحسن صفاته ، فتأسف عليه ، ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ شكوى إلى الله - سبحانه - وحزناً على عدم الراعي الشفيق الرفيق ، ومن يُعَدُّ لنوائب الدهر مع أنه يعلم أنه عن قريب يلقاه ، وأن غيابه مؤقت لأنه يعلم من الله - من وعده الصادق الذي لا يخلف - ما لا يعلمون ، يعلم من حُكمه وجوده سبحانه ، ويعلم من رحمته وفضله ما لا يعلمون ، يعلم من عزته سبحانه - وأنه الغالب على أمره ، وأنه حَسْبُ مَنْ توكل عليه ، وأنه لا يضيع أجر المحسنين - ما يجعله يوقن بقرب لقاء يوسف عليه السلام ، فهل نبكي على حالنا وحال أمتنا ، ونشكو إلى الله همّنا وحزننا وبثنا عسى أن يكون في ذلك قرب فرجنا ؟ فإن كنا لا ندري ما يصنع الله بنا كأفراد أو كجيل ، لكننا على يقين من أن الأمة لا تموت وأن الحق منها لا يضيع ، وأنه **لا تزال طائفة منها على**

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٨) ، ومسلم (٢٥٤٧) ، والترمذي (٢٨٧٢) ، وأحمد (٥٣٦٤) .

الحق ظاهرين لا يَضُرُّهَا من خالفها أو خذلها حتى تقوم الساعة ، ونسأله سبحانه أن يجعلنا منهم وأن يجعلنا خطوات على الطريق ولبنات في البناء إنه هو العليم الحكيم .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ أي : ذهب ضوؤها فَعَمِيَ يعقوب عليه السلام ، وهذا بلاءٌ جديد ، فإنه يأمل ويرجو أن يرى يوسف عليه السلام بعينيه ، ذهبت العينان وذهب البصر بسبب الحزن ، ولكن الرجاء في الله باق والصبر قائم ، وهذا دليل على أن الحزن لا ينافي الصبر والرضا ، فإنه من الرحمة بخلق الله - سبحانه - لا من السخط على قدر الله ، كما قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم : « **إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ** »[1] .

إنه مقام الرحمة بالخلق وفيض المشاعر الرقيقة الرفيقة وزوال القسوة التي لا يحبها الله ، إن وجود الألم الفطري لا ينافي الرضا عن الله وبالله فضلاً عن أن ينافي الصبر ، ولكن هذا الألم يذوب في حلاوة الرضا ويُفِيضُ الله على القلب ما يغنيه ولا يشقيه ، فيكون حزناً وبثاً عجيباً لا يشقى به الإنسان ، بل يجد لذة الشكوى إلى الله ، والشعور بآثار رأفته وَرَوْحِه ، ويبكي فرحاً ، ويشتكي سروراً ، ويتألم ملتذاً .

ووالله إنه لأمر عجيب ولكنه حقيقي ، قد يصعب وصفه أو يستحيل إدراكه إلا بالوجد والذوق ، ولكن إذا تأملت الآيات وجدته والله جلياً واضحاً ، فيعقوب عليه السلام قد صبر الصبر الجميل ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم أي : ساكت كئيب ، لا يشكو أمره وما يجده في صدره إلى مخلوق ، وليس حزنه على الماضي وبثه - أي : همه وغمه - على المستقبل والحاضر ، ليسا لفوت دنيا ولا لمجرد فَقْد ابن ، بل هو قلقٌ على مستقبل أمّةٍ وغياب راعٍ شفيق يقوم مقام أمّة ، وهو مع ذلك لا ييأس من رَوْح الله ويبث روح الرجاء التي تبدد ظلمات اليأس في بنيه الذين يشفقون عليه من الضعف : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ أي : ضعيف القوة ، ويخشون عليه من

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) ، مسلم (٢٣١٥) .

الهلاك : ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴾ ، فيقول لهم واصفاً حقيقة بكائه وحزنه : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ .

إن عبادة الشكوى إلى الله ﷻ عبادة عظيمة تجلب للقلب أنواعاً من الطمأنينة والراحة والسكون والسعادة ما لا يمكن أن يوجد في عبادة غيرها ، إنها عبادة أدّاها نوح عليه السلام حين شكى إلى الله ﷻ فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح : ٥-٧] ، وأدّاها محمد ﷺ حين قال : « **اللهمَّ إليكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وقلةَ حِيلَتِي وهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، أنتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وأَنْتَ رَبِّي ، إلى مَنْ تَكِلُني ؟ إلى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُني ، أمْ إلى عَدُوٍ مَلَّكْتَهُ أَمْري ، إنْ لم يَكُنْ بكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فلا أُبَالِي ، ولَكنَّ عافيتَك أوسَعُ لي ، أعوذُ بنورِ وجْهِكَ الذي أَشْرَقَتْ له الظُّلُماتُ وصَلُحَ عليه أَمْرُ الدنيا والآخرةِ أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ أو يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ ، لَكَ العُتْبَىَ حتى تَرْضَىَ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَةَ إلا بِكَ** » [1] ، إنها عبادة استوقفت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سُمِعَ نشيجه عند هذه الآية واستوقفته حين كان مع أصحابه ، فاستوقفته امرأةٌ عجوز ، فترك الناس وقام معها فأطال القيام حتى قضى حاجتها فانصرفت ، فقال له رجل : (يا أمير المؤمنين حبست رجالات قريش على هذه العجوز) ، قال : (ويحك ، وتدري من هذه ؟) قال : (لا) ، قال : (هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت عنها حتى تقضي حاجتها ، إلا أن تحضر صلاة فأصليها ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها) .

إن عبادة الشكوى إلى الله ﷻ من أجْلِها قَدّرَ الله المحنة والبلاء ، بل والمعصية

---

(١) رواه الطبراني ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٢) وإن كانت شهرته تغني عن إسناده ، وقد قال ابن القيم عنه : عليه نور النبوة .

والكفر ، حتى يسمع تضرع عباده إليه ، ويؤخر إجابة دعوتهم - وقد أجابها - لأنه يحب أن يسمع تضرعهم وشكواهم إليه : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ [الأنعام : ٤٣] ، فهل وجدت أخي المبتلى مفتاح الكنز الذي معك وربما لا تدري ؟ فهلا فتحت القفل بالمفتاح وأعددت القلب ليُفَاض عليه من الرحمة ويُسْبَغُ عليه من النعمة ؟ اللهم نشكو ما نزل بنا وبالمسلمين ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، نرجو رحمتك ونخاف عذابك ، فاللهم فَرِّجْ كرب المكروبين ، وفُكّ أسر المأسورين ، وارفع الظلم عن المظلومين ، اللهم استر عورات المسلمين وآمن روعاتهم ، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، اللهم ارحم موتاهم ، واشف مرضاهم وجرحاهم وخفف آلامهم ، وارحم أطفالهم وأيتامهم وأراملهم ورجالهم ونساءهم في كل مكان يا رب العالمين[1] .

---

(١) قصيدة قافلة الأحزان ، قال أخونا وشاعرنا المفضال عثمان العامري :

دِمَاءُ المُسْلِمِينَ بِكُلِ أَرْضٍ ... تَسِيلُ وَجُرحُهُم لا يَسْتَكِينُ
وَكَالأَنْعَامِ فِي اللَيْلِ المَطِيرِ ... بِلَا رَاعٍ يَدُلُّ وَلَا أَمِينُ
وَأَطْفَالٌ مُمَزَقَةٌ ضَحَايَا ... لَهَا فِي كُلِّ حَادِثَةٍ شُجُونُ
صِغَارٌ مَا رَأَوْا يَوماً أَمَاناً ... فَبِالأَحْقَادِ تَرْمِيهِم عُيُونُ
وَجَاؤوا الأَرْضَ مَا عَرِفُوا أَبَاهُم ... وَغَابَتْ عَنْهُمُ الأُمُّ الحَنُونُ
أَرَامِلُ فِي البِلَادِ لَهَا بُكَاءٌ ... فَإِنْ ذَهَبَ الرِجَالُ فَمَنْ يَصُونُ ؟!
وَأَعْرَاضُ الحَرَائِرِ قَدْ أُبِيحَتْ ... ليدع سَاقَهُ حِقْدٌ دَفِينُ
وَذُبِّحَت الرِجَالُ بِكُلِ وَادٍ ... وَدُمِّرَت المَعَاقِلُ وَالحُصُونُ
تَلَوَّنَتِ المَسَالِكُ بِالدمَاء ... وَفُتِّحَت المَحَابِسُ وَالسُجُونُ
فَفِي بَغْدَادَ كَبَّلَهُم حِصَارٌ ... وَفِي الأَفْغَانِ يَحْصُدُهُم أَنِينُ
وَفِي الأَقْصَى جَبَانٌ بَاعَ أرضَاً ... وَوَعْداً لِلإِلَهِ مَضَى يَخُونُ
فَعُبَّادُ الصَّلِيبِ أَتَوْا لِحَرْبٍ ... وَكُلُّ الأَرْضِ تَشْجِبُ أَوْ تُدِينُ
وَعَابِدُ عِجْلِهِم أَمسَى هُمَاماً ... يُحَبَّرُ فِي الرِبَا وَهُوَ المُهِينُ
فَهَلْ عَادَ التَتَارُ إِلَى دِيَارِي ... فَنَامَ القَوْمُ تَبَّتَهُمْ سُكُونُ ؟!
أَمْ الإِيمَانُ قَدْ أَمْسَى طَرِيدَاً ؟ ... فَمَنْ يَهْدِي الطَرِيقَ وَمَنْ يُبِينُ ؟
يَكَادُ القَلْبُ تُحْرِقُهُ البَلَايَا ... يَكَادُ العَقْلُ يَصْرَعُهُ الجُنُونُ
أَهذى دَارُنَا دَارُ السَّلَامِ ... مَقَرُّ خِلَافَةٍ مِنْهَا الأَمِينُ ؟!
سَعَى فِيهَا الخَرَابُ بِكُلِ لَوْنٍ ... وَدَمَّرَهَا لِإِبْلِيسٍ قَرِينُ
نُسَائِلُكُمْ أَمَاتَ الحِسُّ فِينَا ... فَنَامَتْ عَنْ مَخَازِينَا الجفُونُ ؟!

وفي قوله عليه السلام : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ استحضار الخصوصية في العلاقة مع الله - سبحانه - والعلم به ﷻ ، وهذه الخصوصية من أعظم الأسباب الجالبة للمحبة والشوق إلى الله - سبحانه - لأنها من أعظم النعم والمنن ، والحب ينبت على حافّات المنن ، والشوق يحصل بشهود الفضل والاختصاص ، وإذا كان هذا الاختصاص يتعلق بالعلم بالأسماء والصفات والأفعال ، فهو أعظم اختصاص واجتباء يفتح الله به على القلب أنواع السكينة والأمن والطمأنينة والراحة مما هو دقيقة من نعيم أهل الجنة ، فنسأل الله النعيم الذي لا ينفَدُ وقرة العين التي لا تنقطع .



=

أَعَزَّ عَلَيْكُمُ نَصْرُ الثَكَالَى ... فَلَا يَدهٌ تُمَدُّ وَلَا مُعِينُ ؟!
كَأَنَّ مُصَابَ أَنْدُلِسٍ دَهَاكُم ! ... وَدُمِّرَ فَوقَ لَيْثِكُمُ العَرِينُ
كَأَنَّ الأَمْرَ فِينَا مَا عَنَاكُم ! ... وَلَم يَجمَعنا بِالتَّوحِيدِ دِينٌ !
كَأَنَّ الخَطْبَ فِينَا صَارَ فَرْحَا ! ... يُذَمُّ إِذَا بَكَى فِيهِ الحَزِينُ !
إِلَهِي أُمَّةُ الهَادِي تَئِنُّ ... فَدبر أَمْرَهَا أَنْتَ المعِينُ
إِلَهِي فَلْتَرُدَّ البَأْسَ عَنَّا ... فَدِينُكَ رَبَّنَا لَا لَا يَهُونُ

رجاء في رحمة الله

قال تعالى : ﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

بددت الشكوى إلى الله ظلمات اليأس ، وجددت في القلب أنوار الرجاء في رحمة الله ورفع البلاء القديم والحديث ، فخاطب يعقوب عليه السلام أبناءه بهذا النداء المحبب : ﴿ يَـٰبَنِيَّ ﴾ الذي إنما استعمله معهم عندما رأى منهم بعض الرِّقة في القلوب وبعض الإقبال على الله – سبحانه – ، لا حين تكون نفوسهم الأمَّارة بالسوء مسيطرة ومتوجهة إلى الاستجابة لكيد الشيطان ، ولقد كان البلاءُ الشديد الذي نزل مع شفقتهم على أبيهم من الضعف أو الهلاك ، والموعظةُ التي وعظهم أبوهم بها بشكواه إلى الله ومعرفته ربه – سبحانه – لهما أكبر الأثر في انكسار نفوسهم ورقَّة قلوبهم ، فوجَّه لهم أبوهم نُصحه بأن يذهبوا في الأرض باحثين عن أخبار يوسف عليه السلام وأخيه بنيامين ، و (التَّحسُّس) يكون في الخير ، و (التَّجسُّس) يكون في الشر ، هذا هو الغالب ، وقد يُستعمل (التَّحسُّس) في الشر كذلك كما في الحديث الصحيح : « **وَلَا تَحَسَّسُوا** » [1] ، فيكون عند ذلك (التَّحسُّس) للغير ، و (التَّجسُّس) للنفس ، وهنا (التَّحسُّس) إنما هو الاستعلام والبحث في الخير ، ثم بشرّهم بقرب الفرج ونهاهم عن اليأس من رَوْحِ الله – أي : إراحته ورحمته – فإنه : ﴿ **لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ** ﴾ وذلك أن الرجاء من أركان الإيمان ، وهو من أعمال القلوب الواجبة التي وجود أصلها في القلب ركن من أركان الإيمان ، إذا زالت بالكلية زال الإيمان ، ولذا قال الإمام الطحاوي – رحمه الله – : (والأمن والإياس ينقلان عن ملَّة الإسلام) ، وروى البزار عن ابن عباس مرفوعاً ورجح ابن كثير وقفه : سئل رسول الله ﷺ عن الكبائر فقال : « **الشِرْكُ بِالله** ،

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٤) ، ومسلم (٢٥٦٣) ، وأبو داود (٤٩١٧) .

وَاليَأسُ مِنْ رَوْحِ الله ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله » [1] ، وروى ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « **أَكْبَرُ الكَبَائِرِ الإشراكُ بالله ، والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله ، والقُنُوطُ مِن رحمةِ الله واليَأسُ من رَوْحِ الله** » ، والقنوط أشد اليأس ، فالواجب على المؤمن مهما اشتدت المِحن وزادت البلايا أن يظل مستبشراً برحمة الله راجياً فضله وجوده ، والشيطان هو الذي يوسوس له ليحزنه ويقنّطه من رحمة ربه أرحم الراحمين [2] ، فليرد كيده وليستعذ بالله من وسوسته ، ويأخذ بما يقدر عليه من أسباب ، وينكسر لله – سبحانه – ويتذلل له ، فيجيره ربُّه ويُعزه كما فعل بأبناء يعقوب عليه السلام .

---

(١) رواه البزار عن ابن عباس ، وابن كثير (١/ ٤٨٥) في تفسير آية : ﴿ **إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾ [النساء : ٣١] ، وقال : (في إسناده نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً فقد روي عن ابن مسعود نحو ذلك) .

(٢) قصيدة (حذار أخي إياك) للأخ الكريم عثمان العامري :

حَذَار أُخَيَّ إِيَاكَ ... مِنَ الأَحْزَانِ تَغشَاكَ
حَذَار أُخَيَّ مِنْ يَأسٍ ... يَنُوحُ عَلَى مُحَيَّاكَ
فَإِنَّ الهَمَّ مُنفَرِجٌ ... وَلَيْسَ الرَبُ يَنْسَاكَ
فَلَا تُبْدِ وَلَا تَرْفَعْ ... لِغَيرِ الله شَكْوَاكَ
وَإِنْ أَحسَنْتَ يَا حُبِّي ... فَإِنَّ الله يَرعَاكَ
وَقُلْ أَخْلَصتُ لله ... وَلَا تَرْكَنْ لِدُنيَاكَ
وَإِن تَعجَلْ إِلَىَ الله ... فَبِالجَنَّاتِ بُشْرَاكَ
فَلَا تَخشَ مِنَ السَيرِ ... وَقُرآن بِيُمنَاكَ
إِذَا مَا سِرتَ فِي وَادِ ... فَطِبْتَ وَطَابَ مَمشَاكَ
فَهَلْ تَصْبُو إِلَىَ الدُنْيَا ... وَرَبُ الكَوْنِ أَرْضَاكَ ؟
بِدِينٍ خَالِصٍ يَسْمُو ... وَبِالإِسْلَامِ أَصفَاكَ
هدى عَيْنَيْكَ لِلحَقِ ... وَبِالنورَينِ أَحيَاكَ
وَلَو تَحيَا عَلَىَ السُّنَنِ ... فَمَا أَسْمَى سَجَايَاكَ !
فَهَذَا الخَيْرُ مِنْ رَبٍ ... عَظِيم قَدْ تَوَلاكَ
هَذَاكَ طَرِيقُهُ فَضلاً ... وَبِالعَصْمَاءِ أَغْنَاكَ
فَلَا تَحزَنْ أَخَا دَرِبي ... فَإِنَّ الله مَوْلَاكَ
إِذَا مَا كُنتَ فِي تَقوَى ... وَرَبُّ النَّاسِ زَكَّاكَ
فَأَبشِر يَا ضِيَا عَينِي ... جِنَانُ الخُلدِ مَأوَاكَ
هُوَ الفَوْزِ إِذَا المَوْلَى ... مِنَ النِيرَانِ نَجَّاكَ
فَلَا تَخشَ وَلَا تَحزَن ... إِذَا مَا الله آوَاكَ
فَموعِدكَ عَلَىَ الحَوْضِ ... هُنَاكَ تَنَال سُقيَاكَ
بِمَاءٍ بَارِدٍ يَحلُو ... رَسولُ الله يَلقَاكَ
مَلَائِكَةٌ تَحِيَّتهُم ... سَلامٌ بِهِم عُقبَاكَ

انكسار وضعف

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ذهب إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر ، ودخلوا على يوسف عليه السلام في حالة ذلٍ وضعفٍ ما حصل لهم قبل ذلك أبداً ، قالوا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ ، وهذا النداء كما سبق فيه إشعار بعزته وذلهم ، رغم أنه لقب إلا أنه حق بالنسبة ليوسف عليه السلام ، وفي قولهم : ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ أي : الجدب والقحط وقلة الطعام ، وما نزل بهم من بلاءِ فَقْدِ أخيهم مع حزن أبيهم وفقده بصره بسببهم فيه زيادة انكسار وخضوع ، وفي قولهم : ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : الرديء الذي لا يَنْفَقُ مثل خَلَقِ الغرائر – أي : الأَجْوِلَةِ القديمة – والحبل والشيء ، فليس عندهم بضاعة مقبولة في السوق نافقة ، بل الأكياس الخَلِقَة القديمة والحبال ، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان ، قال الضحاك : مُزجاة : كاسدة ، قال ابن كثير : (وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشيء) ، فهي بضاعةٌ مردودةٌ لضعف قيمتها ، وفي هذا القول مزيد انكسارٍ وذلٍ ، فهم لا يطلبون ما يأتي من الكيل الوافي على سبيل الاستحقاق وبذل الثمن ، بل على سبيل الصدقة والإحسان منه لهم والمنِّ عليهم ، ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ أي : أعطنا بهذه البضاعة الكاسدة ما كنتَ تعطينا قبل ذلك وتَصدَّق علينا بردِّ أخينا ، وهم لا يستطيعون مكافأته وردَّ جميله بل يطلبون له من الله الجزاء : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ ، آل أمر أخوة يوسف عليه السلام بعد الظلم والطغيان والعدوان إلى أن أصبحوا يسألون الصدقة ، سبحان الله ! يعز من يشاء ويذل من يشاء ، أيُّ ذلٍ وانكسارٍ أشد من هذا الذي حصل

لهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم !!

وإنما طلبوا بانكسارهم ذلك عطية المحسِن الكريم الذي علموا إحسانه وجوده ، وإذا كان هذا حال من سأل مخلوقاً فَرَحِمَه عندها وجَبر كسره ، فكيف بمن يسأل بهذا الذل والانكسار أكرم الأكرمين وأجود الأجودين ؟ بل الإحسان والكرم لا ينبغي أن يُرجى إلا منه سبحانه وبحمده ، فينبغي على العبد المؤمن أن يدعو ربه مستحضراً ذله وعزة ربه ، العزيز حقاً سبحانه الذي لا تنبغي العزة إلا له ، متوسلاً إلى الله – سبحانه – بما أصابه من البلاء – وأحسن البلاء ما كان في سبيل الله – وما أصاب أهله كذلك ، فإن ذلك من أسباب استجلاب الرحمة ، لأن الله ﷻ يُلتمس فضله بضعف الضعفاء ، قال رسول الله ﷺ : « وَهَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ ؟ »[1] ، ويرجى جبره لقلوب المنكسرين غير المعجبين الفخورين ، فليقدِّم المؤمن في دعائه شهوداً بأن عمله وسعيه هو كبضاعة مزجاة بائرة كاسدة ، فلو عامله الله بعدله رد عليه عمله ، لما فيه من آفات ظاهرة وباطنة يستحق أن يرد بها ، إلا أن طمعه ورجاءه في كرم أكرم الأكرمين الشكور الذي يقبل القليل من العمل ويغفر الكثير من الزلل ، هو الذي يدفعه إلى طلب الفضل والمنة والمنحة ، وليس أنه يستحق على ربه شيئاً ، ومَن أكرم مِن الله الذي يوفِّي الأجر على عملٍ كاسدٍ ، وما فيه من خير ؟! هو الذي مَنَّ به على عبده ووفقه له ، وهداه وسدده ، وألهمه رشده حتى عَلِمَهُ ، وأحبه وأراده وعزم عليه ، ونواه وعَمِلَهُ ، وهو المسؤول أن يقبله صدقةً منه على عبده ، وهو الكريم المنان ، وقد اشتهرت هنا مسألة وهي هل يجوز أن يقول الرجل في دعائه : (اللهم تصدَّق عليَّ) ؟ روى ابن جرير بسنده عن عثمان بن الأسود قال : سمعت مجاهداً سُئِل : هل يكره أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق عليَّ ؟ قال : نعم ، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب .

وهذا القول ليس بصحيح ، بل لا كراهة في هذا ، لحديث عمر ﷺ في صحيح مسلم في سؤاله النبيَّ ﷺ : ما بالنا نقصر – أي الصلاة – وقد أَمِنَّا ؟ فقال النبي ﷺ :

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٦) ، وأبو داود (٢٥٩٤) ، والنسائي (٣١٧٩) ، وأحمد (١٤٩٦) .

« صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ »[1] ، وإنما قال إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ لأنهم إنما يطلبون الصدقة من مخلوق لا يملكون مجازاته ، فطلبوا الجزاء له من الله – سبحانه – ، فلا يقتضي هذا منع جواز إطلاق أن الصدقة من الله ، وبالتالي يجوز طلبها منه – سبحانه – ، والله أعلم .

كان لهذه الكلمات وهذه الحال الشديدة والجهد والضيق والانكسار أكبر الأثر في قلب الكريم الرحيم ذي الصدر الرحب المنشرح المستغني بالله سبحانه عمن سواه وعن الانتصار للنفس ، يوسف الصديق عليه السلام ، ففاضت من هذا القلب ينابيع الرحمة والرأفة والشفقة ، فكشف لهم عن شخصيته وأبرز لهم حقيقته .



(١) رواه مسلم (٦٨٦) ، والترمذي (٣٠٣٤) ، والنسائي (١٤٣٣) .

عفو وصفح

قال تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

قال ابن كثير – رحمه الله – : (يقول تعالى مخبراً عن يوسف ﷺ ، إنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب ، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته وبَدَرَه البكاء ، فتعرف إليهم فيُقال : إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيه شامة ، وقال : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ يعني : كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ أي : إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه ، كما قال بعض السلف : (كل من عصى الله فهو جاهل) وقرأ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ [النحل : ١١٩] ، والظاهر – والله أعلم – أن يوسف ﷺ إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك ، كما أنه أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك – والله أعلم – ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر ، فرَّج الله تعالى من ذلك الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥-٦]) أ . هـ .

هذا أوان تحقق وحي الله ليوسف ﷺ وهو مُلقى في غيابة الجب مضطهداً مظلوماً ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ ، ها هو يتحقق بعد عشرات السنين ، فوعد الله لا

يُخلَف وإن استبطأه الناس ، تأمل في شرف هذه النفوس وكرمها ، فما زاد يوسف عليه السلام على هذه الكلمة في عتابه لهم رغم شدة الجرم وفداحة الظلم ، وما عتب عليهم بعدها ولا قبلها بغيرها ، وإنما يتيسر مثل هذا مع كمال الغنى بالله – سبحانه – ومشاهدة مَنِّه وفضله فلا يجد حب الانتقام إلى القلب سبيلاً .

ووالله إن صاحب مثل هذا القلب الرحيم والصدر المنشرح ليجد حلاوة زوال الغِلِّ من قلبه ، وهذه أيضاً دقيقة من نعيم أهل الجنة : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، فالغِل وحب الانتقام مؤلم للإنسان ، وإرادة أذيَّة الخلق مؤلمة للنفس ، وإن كان أكثر الناس لا يفهمون ، والمؤمن إنما يصرف رغبته في الانتصار إلى الانتصار لله ﷻ إذا خولف أمر الله وظهرت معصيته ، ولا يدع (زبالة) الانتقام للنفس تُفسد عليه حال قلبه ، فاللهم اشرح صدورنا بالعفو ، واملأ قلوبنا غنى بك عمن سواك .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ كان وقع المفاجأة هائلاً عليهم ، وهل كان يخطر أو يمكن أن يجول بخاطرهم مجرد احتمال أن يكون عزيز مصر في ملكه وأبهته هو أخاهم يوسف عليه السلام الذي باعوه رقيقاً في صغره لمن ظنوا أنه يسومه سوء العذاب ؟ فقالوا على سبيل الاستفهام والاستعظام والتعجب : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾ ، فأظهر لهم أخاه أيضاً في أحسن حال ، وليس رقيقاً مستعبداً كما كانوا يظنون ، وقوله : ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ فيه شهود نعمة الله ومنَّته وفضله بالجمع بينهما بعد الفرقة ، وبالتمكين بعد الاستضعاف ، وبالثبات على الدين والطاعة ، ووجود الألفة والمحبة وغير ذلك مما لا يحصيه أحد ، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وهذه قاعدة كلية عامة لكل زمان ومكان ولكل أحد ، فيها بيان عاقبة التقوى والصبر والإحسان ، فالله – سبحانه – لا يضيع عمل المحسنين ولا أجرهم ، وهم من أحسنوا في عبادة ربهم حتى كأنهم يَرَونه ، فيثمر لهم ذلك الغنى بالله – سبحانه – ، فيفيض من قلوبهم على الخلق من حولهم رحمةً

وإحساناً وعفواً وصفحاً وغفراناً .

والتقوى والصبر من أعظم علامات الإحسان ، فهو يمتثل الأوامر ويجتنب النواهي ويصبر على ما يصيبه ، والناس في هذا المقام أربعة : منهم من لا تقوى له ولا صبر ، فهو في غي شهواته ، فإن أصابته مصيبة فهو يؤوس كفور ، وهو أسوأ الأنواع ، ومنهم من يتقي عند الرخاء ، فإذا أصابته مصيبة فلا صبر له فيجزع ويتسخط ، فلا يصلح لمحبة الله – سبحانه – ، ومنهم من عنده جَلد وتحمُّل ولكنه عند تمكُّنه يكون من أفجر الناس وأظلمهم ، فهو كذلك بعيدٌ عن الله ﷻ، ولا ينجو ولا يقترب إلا مَن اتقى وصَبَرَ ، فاللهم اجعلنا من المتقين الصابرين .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ هنا فقط حصلت التوبة لأخوة يوسف عليه السلام، وأخذوا دواء دائهم القديم (الحسد) ، هذا الدواء هو شهود قَسْمِ الله وتخصيصه وإيثاره مَن شاء مِن عباده بما يشاء من فضله ، فأقسموا ليوسف عليه السلام بما شاهدته قلوبهم لأول مرة : إنه عطاء الله ومَنُّه ، وقد أرشدهم يوسف عليه السلام إليه في قوله : ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ ، فهو لم ينسب لنفسه فضلاً حتى في مقام الثناء ، لم يقل : أنا اتقيت وصبرت وأحسنت ، بل ذكرها في صيغة العموم والقاعدة الكلية : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، فأخذوا الدواء فانحلَّ الداء وزال المرض ، واعترفوا حقيقةً بالخطيئة ، فوجدوا القلب الرحيم الكريم مفتوحاً للعفو والصفح ، بلا تكرار اعتذار ولا محاولة إذلال ولا توبيخ ولا تأنيب ، بل يقول مؤنساً وحشة انكسارهم وخزي انكشافهم : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي : لا تأنيب ولا عتب ولا أعيِّركم بذنبكم في حقي بعد اليوم .

لم يعاقب ، بل لم يعاتب بعد ذلك ، بل وزادهم الدعاء بالمغفرة : ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، ويتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته ليستجيب هذا الدعاء ويفتح لهم باب الرجاء فيقول : ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ، فكما كان هو سبحانه في حفظه ليوسف عليه السلام

ورحمته به خيراً حافظاً وهو أرحم الراحمين ، فكذلك في قبول توبة المسيء النادم ومغفرة ذنب المعترف المنيب الراجع إلى ربه هو ﷻ أرحم الراحمين ، ولما كان هذا الرد هو أحسن رد وأكرمه في مثل هذا المقام ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ - خصوصاً المقربين منهم الخبيرين بخُلقه ﷺ كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه - قد عايشوا قصص القرآن ، وأدركوا أثره في النفس والارتفاع بها ، كانت هذه النصيحة الغالية من علي رضي الله عنه لأبي سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب رضي الله عنه حين أسلم قبل غزوة الفتح ، وكان قبل ذلك من أشد الناس عداوةً للنبي ﷺ رغم أنه ابن عمه ، وكان يهجو النبي ﷺ ويؤذيه ، وتأخَّر إسلامه إلى سنة ثمانٍ من الهجرة ، فلقي النبي ﷺ وهو في طريقه لفتح مكة ، فكان النبي ﷺ يُعرض عنه لِما كان يلقى من أذاه ، فشكى أبو سفيان ذلك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : ائته من قِبل وجهه وقل له : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ ، فإنه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسنَ مردوداً منه ، ففعل فالتفت إليه النبي ﷺ وقال : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ، وكان بعد ذلك يدنيه ولا يحجبه ويقول : « عَسَى اَللهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُ خَلَفًا لِحَمْزَةَ »(١) ، ما أفقه عليًّا رضي الله عنه وأعلمه برسول الله ﷺ وسجاياه في الكرم والعفو ، وحسن الاقتداء بالأنبياء قبله وطلبه محاسن الأخلاق ومعاليها ! ، فكانت نصيحةً أثمرت أحسن الثمار وأزالت آثار وحشة العداوة والتأخُّر والهجاء ، وينبغي لمن سامح أخاً من إخوانه أن لا يعتب عليه بعد مسامحته ، ولا يذكر له التثريب بعد ذلك ، وإلا كان عائداً في هبته ، وقد قال النبي ﷺ : « لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ ، الَّذِي يَعُودُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ »(٢) ، وإن كان الاستدلال به مشهوراً في هبة الأموال فهو في هبة الحقوق والأعراض والمظالم أولى وأحرى ، وتأمل كيف أن يوسف عليه السلام وفَّى لأخوته بما وعد من عدم التثريب ، فإنه لما سجدوا له وذكَّر أباه برؤياه : ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ

---

(١) صحيح : أخرجه الحاكم (٣ / ٤٣-٤٤) من حديث ابن عباس ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الأرنؤوط [انظر زاد المعاد ص (٣٥٢-٣٥٣) ط الرسالة] ، وذكره في سنن البيهقي الكبرى حين دخل مكة ﷺ .

(٢) رواه البخاري (٢٦٢٢) ، ومسلم (١٦٢٢) ، والترمذي (١٢٩٨) .

﴿ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ فلم يقل : من بعد أن فعل إخوتي ما فعلوا ، ولا حتى من بعد أن نزغ الشيطان في قلوبهم ما نزغ ، ولا حتى من بعد ما نزغ الشيطان بينهم وبيني ، بل بدأ بنفسه فقال : ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ صوناً لهم من مجرد الحرج والحياء من فعلهم ، فنسب الفعل إلى الشيطان وجعله نزغاً منه بينه وبينهم ﷺ .



بشرى الفرج

قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

قميص يوسف عليه السلام له شأن مع أبيه يعقوب عليه السلام ، كان مجيؤه إليه ملطخاً بدمٍ كذب معه خبر البلاء بغيابه وفراقه العمر الطويل ، ثم كان قميصٌ آخر يحمل معه خبر الفرج من كل الجهات ، وهي والله مناسبة جميلة من يوسف عليه السلام ، وهو يعلم أن قميصه الذي نزعه منه إخوته يوم أخذوه من أبيه كان وصوله إليه سبب حزنه وغمه ، فأراد أن يكون قميصه سبب الفرح والسرور ، ويظهر أنه كان بوحي ، لأنه قال : ﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ وذلك أنه قد عمي من شدة الحزن والبكاء على يوسف عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ، فَرَدُّ بصر يعقوب عليه السلام بقميص يوسف عليه السلام معجزةٌ لهما ، وآيةٌ من آيات الله تعالى ، وعلامةٌ على مدى حب يعقوب ليوسف - عليهما السلام - ، وحُق له والله أن يحبه ، ولو لم يكن ابنه الذي ربّاه ، فكيف وهو ابنه الحبيب المجتبى من رب العالمين ؟ وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : جميع أبناء يعقوب عليه السلام وزوجاتهم وأبنائهم ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ أي : خرجت من مصر ، ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى

لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي : تنسبوني إلى الفَنَد ، وهو الكِبَر الذي معه زوال بعض العقل ، وروى عبد الرزاق عن ابن عباس ، قال : (لما خرجت العير هاجت ريح ، فجاءت يعقوب عليه السلام بريح قميص يوسف عليه السلام فقال : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ ، قال : فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام) .

وما ذكره ابن كثير – رحمه الله – عن الحسن وابن جُرَيج : أنه كان بينهما ثمانون فرسخاً وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة غير ظاهرٍ في الأمرين ، والظاهر أنه من الإسرائيليات ، فالمسافة بين مصر وأرض كنعان قرب بيت المقدس أكبر من ثمانين فرسخاً والمدة أقل من ذلك ، والله أعلم .

وفي قوله : ﴿ تُفَنِّدُونِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير : تُسَفِّهونِ ، وقال مجاهد والحسن : تُهَرِّمونِ ، أي : تنسبوني إلى الهرَم ، وقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : لفي خطئك القديم ، وقال قتادة : أي من حب يوسف عليه السلام لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمةً غليظةً لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله عليه السلام ، وكذا قال السُّدِّي – رحمه الله – ، ا.هـ. [1]

سبحان الله ! كم يحب يعقوبُ يوسفَ عليهما السلام ؟! ريحه من هذه المسافة الطويلة الذي هاج من قميصٍ له ، يريحه ويسره ويفرحه ، شأن الحب شأن عجيب ، ورحمة الله بعبده المؤمن وبعثه له ما يبشره بما يسره من قرب فرجه بعد نجاحه في المحنة وصبره على المصيبة يدركها من وجد أثر القُرب ، وعلم من أسماء الله وصفاته وأفعاله ما لا يعلمه الناس ، وهذا ما يكاد معه قلب المؤمن يذوب حباً وشوقاً إلى ربه الرحمن الرحيم ، القريب المجيب ، البر الودود ، الصادق الوعد لا يخلف الميعاد ، الغالب على أمره ، الفعال لما يريد ، الذي يحب عبده المؤمن ويكره مساءته ، ذو الفضل العظيم

---

[1] من تفسير ابن كثير باختصار .

والطَوْلِ والمن ، العزيز الحكيم ، الكريم الحليم ، يبشّر عباده المؤمنين بعاجل البشرى في الدنيا ، ليدلهم على ما أعد لهم عنده إذا وفدوا عليه من قرة الأعين ولذة الأنفس ، وأنواع الإكرام والإنعام والود والإفضال ، اللهم إنا نسألك من فضلك ورحمتك ، فإنه لا يملكها إلا أنت .

ويعقوب عليه السلام يعلم أن بنيه الموجودين حوله في وادٍ آخر ، فلن يقبلوا مثل هذا الوَجْد ولن يصدّقوا بحقيقته ، وقد كان ، فقالوا لأبيهم نبي الله عليه السلام تلك الكلمة الشنيعة الدالة على جهلهم وسوء أدبهم وعدم معرفتهم بما يجوز على الأنبياء وما لا يجوز ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ ، ونسبة الضلال والخرف والسفه وزوال العقل للأنبياء كفرٌ والعياذ بالله ، ولولا الجهل لكفروا ، ولكنهم معذورون بجهلهم ، وإن كانوا آثمين فيما قالوا لتقصيرهم في حق نبي الله يعقوب ، أبيهم عليه السلام .

ولكن سرعان ما تحقق وَجْدُ يعقوب عليه السلام ، ووقع ما استبعدوه وظنّوه ضلالاً قديماً في حب يوسف عليه السلام ، فجاء البشير وهو البريد الذي استعجلوه للوصول حاملاً أجمل بشرى : وجدنا يوسف عليه السلام ، وهو العزيز على ملك مصر ، ووجدنا بنيامين معه معززاً مكرماً حراً ، وعاد أخوهم الثالث (روبيل) ومعه قميص يوسف الذي ألقاه على وجه يعقوب عليه السلام ، فعاد – بفضل الله – بصيراً ليبصر به ولديه الحبيبين .

فسبحان الله ! يأت الفرج من كل ضيق ، لقاء الغائبين ورد البعيد ، ونعمة التمكين والملك ليوسف عليه السلام ، ووجود السعة بعد القحط والشدة ، ما أروع جزاء الصبر والتقوى ! وما أجمل عاقبة الشكوى إلى الله ورجاء فضله ورَوْحِه ورحمته ! وما أحلى الإيمان به واليقين بوعده وآياته ومشاهدة آثار أسمائه وصفاته وأفعاله ! قال ابن كثير – رحمه الله – : (قال مجاهد والسُّدِّي : كان الذي جاء بالقميص يهوذا ، قال السُّدِّي : لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخٌ بدم كذب ، فأحب أن يغسل ذلك بهذا ، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً ، وقال لبنيه عند ذلك : ﴿ أَلَمْ

﴿أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي : أعلم أن الله سيرده إليَّ ، وقلت لكم : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ ، لذلك قالوا لأبيهم مترفقين له : ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي : من تاب إليه تاب عليه ، قال ابن مسعود رضي الله عنه وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى السَّحَر ، وروى ابن جرير عن محارب بن دثار قال : كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد ، فيسمع إنساناً يقول : اللهم دعوتني فأجبتُ ، وأمرتني فأطعتُ ، وهذا سَحَرٌ فاغفر لي ، قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فسأل عبد الله عن ذلك ، فقال : إن يعقوب عليه السلام أخرَّ بنيه إلى السَّحَرِ بقوله : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾) أ . هـ . كلام ابن كثير .

وهذه الآية دليل على مشروعية طلب الدعاء من أهل الفضل والدِّينِ ، حيث طلب أبناء يعقوب عليه السلام من أبيهم أن يستغفر لهم ، وهذا توسلٌ مشروعٌ بدعاء المسلم الصالح الحي ، وقد خصَّه بعضهم بالأنبياء ، وفي ذلك نظر ، ففي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لأصحابه عن أَوَيْسِ بن عامر القَرَني أفضل التابعين : « **فَإِنْ اسْتَطَعْتُم أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكُم فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ** »[1] .

وقال عمر رضي الله عنه في الاستسقاء : (اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا ، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا)[2] ، ثم أمر العباس رضي الله عنه أن يدعو ، وهذا توسل بدعاء الصالح الحي وقد وقع بمحضر من الصحابة ولم يُنْكَر فكان إجماعاً أو كالإجماع ، فلا حجة فيمن كَرِهَ طلب الدعاء من الصالحين ، أو جعله خلاف الأولى إلا أن يقصد به نفع الداعي ، كما هو مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ، فإنه يجعل طلب الدعاء من باب سؤال المخلوقين ، ولا شك أن أبناء يعقوب عليه السلام لم يكن مقصودهم الأول نفع

---

(١) رواه مسلم (٢٥٤٢) ، وأحمد (٢٦٨) .
(٢) رواه البخاري (٣٧١٠) .

يعقوب عليه السلام، ولا أن مقصود الصحابة الأول نفع العباس عليه السلام، فهذا تكلفٌ ظاهرٌ ، لكن الصحيح أن يقيد هذا السؤال بأمر الآخرة ، فخلاف الأولى هو ما إذا كان طلب الدعاء بأمر دنيوي ، إذ هو خلاف الأولى في دعاء المرء لنفسه ، أما طلب الاستغفار وكل أمرٍ أخروي ديني يعين على مقصود العبد من تحقيق العبودية لله وهو محبوب للرب - سبحانه - ، فأي نقص في هذا ؟! وقد أرشد النبي ﷺ المرأة التي كانت تُصرع بالصبر ، ولا يدعو لها حتى تكون لها الجنة ، فاختارت الصبر ، قال : « **إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ** »[1]، قَالَتْ : أَصْبِرُ ، فلما قالت له : فَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ فَدَعَا لَهَا ، ولم يقل لها اصبري ولا أدعو لك أو ترك طلب الدعاء أولى ، لأن التكشف وهتك حرمة العورة لا يحبه الله ، وليس بمقصودٍ شرعي ، فكان الدعاء به أمراً دينياً أخروياً ، فلا ينبغي النصح بترك طلبه من الغير ، والله أعلم .

وفي أثر ابن مسعود رضي الله عنه فضل الاستغفار بالسَّحَر ، وعليه يدل قوله تعالى : ﴿ **وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات : ١٨] ، فهو وقت غنيمة أهل الإيمان والحب الصادق ، نعوذ بالله من القسوة والغفلة .

وتجد في هذه الآيات الكريمة مدى تعلق قلب يعقوب عليه السلام بأسماء الله وصفاته في كل الأمور : ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ وقوله : ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ ، بل لو تأملت كلامه من أول السورة إلى آخرها ، لوجدته في معظم كلامه أو كله لابد أن يذكر من أسماء الله وصفاته وأفعاله ما يناسب المقام ، فهذه حقيقة الإيمان وهي سعادة الدنيا والآخرة .



---

(١) رواه البخاري (٥٦٥٢) ، مسلم (٢٥٧٦) ، وأحمد (٣٢٣٠)

لقاء الأحبة

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

حان موعد اللقاء ، وتحقق وعد الله الصادق ، وظهرت عاقبة الصبر الجميل والاستعانة بالله على ما يصفون ، قال ابن كثير – رحمه الله – : (يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وقدومه بلاد مصر ، لما كان يوسف عليه السلام قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أُخبر يوسف عليه السلام باقترابهم ، خرج لتلقيهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف عليه السلام لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال : إن الملك خرج أيضاً لتلقيه ، وهو الأشبه [1]، وقد أشكل قوله : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ ﴾ على كثير من المفسرين ، فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر ، ومعنى الكلام : وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش ، وردّ ابن جرير هذا وأجاد في ذلك ، ثم اختار ما حكاه عن السدي أن يوسف عليه السلام آوى إليه أبويه لما تلقاهما ، ثم لما وصلوا باب البلد قال : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ،

(١) أظن ابن كثير – رحمه الله – قال إنه الأشبه لأن الملك كان معظماً ليوسف عليه السلام مطيعاً له ، وسجايا الملك وأخلاقه من أول القصة أخلاق كريمة ، ويعرف لأهل الفضل قدرهم ، فلا يظن أن يتخلف عن استقبال نبي الله يعقوب عليه السلام، خاصة مع قول مجاهد أنه قد أسلم ، وهو الظاهر .

نظر ، لأن الإيواء يكون في المنزل كقوله : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ ، وفي الحديث : « مَنْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[1] ، وما المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه فآواهم إليه : ادخلوا مصر ، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين ، أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط) أ . هـ .

والظاهر فيه ما قاله ابن جرير ، لأنه أقرب إلى ظاهر القرآن ، ثم إن الإيواء يمكن أن يكون في منزل مؤقت كخيمة أو نحوها ، تعد للملك ومن معه إذ ينتظرون القادمين ، وأما ما ذكره ابن كثير أيضاً من أن الله رفع عن أهل مصر بقية السبع السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليه السلام عليهم ، كما رفع عن قريش بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ بقوله : « اللهمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ »[2] ، لما تضرعوا واستشفعوا لديه ، فهذا أيضاً ليس بظاهر ، لأن يوسف عليه السلام أخبر بتأويل رؤيا الملك ، وهذا خبرٌ وليس دعاءً ولا وعيداً مجرداً ، والأخبارُ خُلْفُها كَذِبٌ ، وقد أخبر في تأويله أنه يأتي عام بعد السبع السنين المجدبة فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ، فمخالفة ذلك بمجرد الأخبار الإسرائيلية لا يجوز ، وأما دعاء الرسول ﷺ على قريش ، فليس بخبر ولا عندنا دليل على أن الله ﷻ قد استجابه كاملاً ، كما دعا به رسول الله ﷺ كاملاً ، ثم لا نص صريح في رفعها عن قريش ، والله أعلم .

وقد ذكر ابن كثير عن السُّدِّي وابن زيد أن قوله تعالى : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أنهما إنما كانا أباه وخالته ، لأن أمه كانت ماتت قديماً ، ورده ابن جرير ونصر القول بأن أمه كانت تعيش ، ونصره ابن كثير وهو كذلك ، ولابد هنا من التنبيه على أن الآثار الإسرائيلية التي تخالف ظاهر القرآن يجب ردها وعدم قبولها ، ولولا وجود أمثال ذلك في كتب التفسير لما كان هناك معنى للاشتغال بها ، إذ هذه الأمور كلها مما لا فائدة فيه ، ولا يثير معنى إيمانياً ولا حكماً شرعياً .

(١) رواه البخاري (١٨٧٠) ، ومسلم (١٩٧٨) ، والنسائي (٤٤٢٢) ، وأحمد (٩٥٧) .
(٢) رواه البخاري (٤٧٧٤) ، ومسلم (٢٧٩٨) ، والترمذي (٣٢٥٤) ، وأحمد (٤٠٩٣) .

وتأمل في قوله تعالى : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ وما يتضمنه من معنى الضم والاجتماع ، وما يحتويه ذلك من حلاوة اللقاء وحنان الأمومة والأبوة ، ورحمة البنوة بعد طول الغياب ، وشهود نعمة الله وفضله في صدق وعده وجميل إحسانه ، ووالله إن المرء ليحتاج أن يقف طويلاً أمام هذه اللحظات ليحصل له بها برد اليقين وشفاء الصدر وانشراح القلب ، وقد سبق أن ذكرنا أن هذا من أسباب شرح القرآن للصدور وجلاء الأحزان وذهاب الهموم والغموم ، فإن استحضار هذه المشاهد وَتَذَكُر أنه كم سبقها من أنواع الآلام ، والتي كان معها كذلك من أنواع العبودية التي تحولها لذة وتجعل ضيقها سعة وعسرها يسراً ، فاستمتع أيها المؤمن بهذه المشاهدة العظيمة ودَاوِ بها أمراض همِّك وحزنِك ، وأبشر بقرب الفرج وتحقق وعد الله – سبحانه وتعالى – .

وتأمل أدب يوسف عليه السلام مع ربه عز وجل في قوله : ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ، **فقدم مشيئة الله** لأن الأمور كلها بيده ، ومشيئته عز وجل هي النافذة ، لا رادّ لقضائه **ولا معقب** لحكمه ، وعلى العبد أن يمتثل أمر الله عز وجل في تقديم مشيئته سبحانه بين يدي **كل الأمور** ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف : ٢٣-٢٤] ، فقول إن شاء الله ، هذا الاستثناء دَرْكٌ للحاجة وسبب لحصول المقصود ، كما قال النبي ﷺ في شأن سليمان عليه السلام حين قال : « لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله » ، فقال ﷺ : « **لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ** »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ أي : على سرير ملكه ، أجلسهم معه عليه إكراماً لهما ، وفي هذا بر الوالدين وتقديمهما ، وقوله تعالى : ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ أي : خَرَّ أبواه وإخوته جميعاً الأحد عشر ، وكان هذا السجود سجود تكريم ، وكان مشروعاً لمن قبلنا حتى جاء شرعنا بنسخه ، وجعل السجود لله وحده لا شريك له ،

---

(١) رواه البخاري (٦٦٣٩) ، ومسلم (١٦٥٤) .

فسجود التكريم كان مشروعاً لمن أمر الله بسجود غيره له ، كما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وهو عبادةٌ لله – سبحانه – إذ هو امتثال أمره ، وتكريمٌ للمسجود له ، وكان جائزاً للكبراء والسادة ونحوهم إذ لم يكن منهيًّا عنه ، أما في شرعنا فقد جاء النهي عنه ، ولم يعد مشروعاً ولا مباحاً ، لكن الواجب السجود لله وحده لا شريك له ، سجود العبادة ، ولذا صار السجود في أهل الإسلام لا يعرف منه إلا سجود العبادة ، فلو سجد أحدٌ لأحدٍ غير الله ، لكان ظاهره أنه يعبده من دون الله ، إلا أن يكون جاهلاً أو متأولاً أو مُكْرَهاً ، أو نحو ذلك من موانع التكفير .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ ، فقال : « **مَا هذا يا مُعَاذُ ؟!** » ، فقال : إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم ، وأنت أحقُ أن يُسْجَدَ لكَ يا رسول الله ، فقال : « **لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ الله لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الحَقِّ** » [1]) ا . هـ .

وقوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا** ﴾ يعني : رؤياه وهو صغير ، حيث رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين ، فالشمس : أبوه ، والقمر : أمه ، والأحد عشر كوكباً : إخوته ، هذا هو الصحيح إن شاء الله تعالى ، وقيل الشمس : أمه ، والقمر : أبوه ، وليس بظاهر ، لأنه مراعاةٌ للتذكير والتأنيث المجازي ، وترك المعنى الأهم وذلك أن أباه عليه السلام هو الذي نوره كالشمس ، وإنما كان النور لأمه من جهة أبيه يعقوب عليه السلام .

ومعنى التأويل هنا ليس التفسير ، لأن التفسير كان معلوماً وهو أن أباه وأمه وإخوته يسجدون له ، وإنما المقصود بالتأويل في هذا الموطن وقوع المخبر به في هذه الرؤيا ، وهو سجود أبيه وأمه وإخوته له ، فإن تأويل الخبر وقوع المخبر به ، كقوله

(١) صحيح : رواه أبو داود (٢١٤٠) ، وأحمد (١٨٩١٣) عن معاذ رضي الله عنه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٢٩٤) .

تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٥٣] أي : يوم يقع ما أخبر الله ﷻ به من القيامة ، ولقد كانت الرؤيا متضمنة خبراً ، فلما وقع الخبر كان هذا تأويل الرؤيا ، وهو ما آل إليه أمرها ، فتأويل الكلام : هو ما يصير إليه في حاله الثاني ، فتأويل الأمر : فعل المأمور به ، وأما الرؤيا فيطلق تأويلها على أمرين :

الأول : تفسيرها وبيان حقيقة ما تدل عليه .

الثاني : وقوع ما دلت عليه الرؤيا .

فتأويل رؤيا يوسف عليه السلام على المعنى الأول : هو أن المقصود بالشمس والقمر والكواكب هم أبوه وأمه وإخوته ، وأنهم يسجدون له وهذا تفسيرها ، وتأويلها على المعنى الثاني : وقوع ذلك بالفعل ، وهو المقصود في هذه الآية الكريمة ، والله أعلم .

وتأمل أدب يوسف مع أبيه – عليهما السلام – في قوله : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ التي سبق أن بينا ما فيها من انكسار الرحمة وإظهار المحبة والاحترام والتقدير في مقابلة سجوده له ، فهو يعلم أن السجود الذي شرع لهم هو تكريم من الله – سبحانه – له بحكم الملك والنبوة ، لكنه يعرف فضل أبيه وقدره ومنزلته وما ينبغي له أن يعامله به من التوقير وخفض جناح الذل من الرحمة له ، وقوله عليه السلام : ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ فيه نسبة النعمة إلى الله وشهود تفضله سبحانه به وشهود خلقه أفعال العباد ، فالذي جعلهم يسجدون له ، هو الله – سبحانه – ، ولم يقل يوسف عليه السلام : (قد تحققت رؤياي) مثلاً أو نحو ذلك ، كعادة أكثر الناس في مثل هذا المقام وغيره ، ينسون نسبة الفضل إلى الله وربما نسبوه لأنفسهم أو لغيرهم ، وأنت تلاحظ هنا أن يوسف عليه السلام نسب كل الأفعال إلى الله ﷻ فقال : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ ، وقال : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ ﴾ فنسب الإحسان إلى ربه ، وقال : ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ فنسب الإخراج إليه ، ولم يقل خرجت ، وقال : ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ فنسب المجيء بهم إلى الله

تعالى ، ولم يقل جئتم ، وختم الكلام بذكر لطفه ومشيئته وعلمه وحكمته ، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن دائماً ينسب النعم والفضل لمالكها وخالقها ومُسدِيها ﷻ .

وتأمل في قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ أنه ذكر ربه باسم الربوبية (الرب) مضافاً إلى ضمير المتكلم المفرد ﴿ رَبِّى ﴾ ، وذلك لأن إصلاح ربه له منذ نشأته إلى ملكه إصلاح خاص وتربية خاصة وكفاية خاصة يجدها يوسف عليه السلام ويشهدها من كل قلبه ، فأنسب شيء للمقام أن يقول : ﴿ رَبِّى ﴾ ، والرب : هو المصلح لشأن غيره ، والخصوصية ها هنا ظاهرة ، والله أعلم .

وفي قوله : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ دليل على أن السجن بلية ، والإخراج منه إحسان عظيم من الله – سبحانه – ، رغم أن السجن كان سُلّمًا للملك ليوسف عليه السلام ، لكنه في نفسه بلاء لا يطلب ولا يتمنى ، ولكنه يصبر عليه ، ويحتسب عند الله إلى أن يقع الإحسان من الله بالفرج والخروج ، نسأل الله أن يفك أسر جميع أسرى المسلمين ، وأن يحسن بنا وبهم ويخرجهم من السجون الظالم أهلها ، وأن يجعل لنا من لدنه ولياً ، وأن يجعل لنا من لدنه نصيراً .

وفي قوله : ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ دليلٌ على أن الحياة في القرى والمدن من النعم ، وأن الإنسان لا ينبغي أن يختار السكنى في البادية والصحاري إلا عند الضرورة من انتشار الفتن ونحو ذلك ، فإن غلظ حياة الصحراء تؤثر على سلوك الإنسان وقسوة قلبه في الغالب إلا من رحم الله ، وفي الحديث : « **مَنْ سَكَنَ البَادِيَةَ جَفَا ، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ ، وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتَتَنَ** »[1] ، وفي الحديث الآخر في عَدِّ الكبائر قال النبي ﷺ : « **وَالمُرْتَدُّ أَعْرَابِيًّا بَعْدَ الهِجْرَةِ** »[2] ، ولذا كان الرسل من أهل القرى لا من أهل البوادي كما سيأتي إن شاء الله ، – والله أعلم – ، قال ابن جريج وغيره : كانوا أهل

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٢٥٦) ، والنسائي (٤٣٠٩) ، وأبو داود (٢٨٥٩) ، وأحمد (٣٣٥٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٦) .
(٢) صحيح : رواه النسائي (٥١٠٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥) .

بادية وماشية ، وقال : كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام .

وقوله : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ ﴾ أدبٌ رفيعٌ ووفاءٌ بالوعد الذي وعد به إخوته : ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ ، فجعل ما فعله إخوته به نَزْغاً من الشيطان ، وقدّم نفسه أولاً ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ ﴾ تأنيساً لهم وإزالةً لجرح النفوس في هذا المقام ، وما أحسن نسبة ما حدث إلى الشيطان بعد توبتهم ورجوعهم إلى الله – سبحانه – والاعتراف بخطيئتهم ، وفي هذا أثر التربية الإيمانية في الصغر ، فأبوه في صغره حين نهاه أن يخبر بالرؤيا إخوته فيكيدوا له كيداً ، بيّن له أن كيدهم إنما يكون بوسوسة الشيطان فقال : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ ، فظلّت هذه الكلمة في نفس يوسف عليه السلام ، فذكرها في هذا الموقف ، ونسب فعل السوء إلى الشيطان ونزغه ، وهذا أمر لابد أن يظل من المرء على بال حتى لا يغفل عن عداوة الشيطان ، ولا يسمح لأحداث وقعت بينه وبين إخوته أن تُبقيَ روح الحقد والانتقام إذا استشعر أنهم هم الذين فعلوا به ، فأما إذا استحضر أنه نزغ الشيطان ، وأنه وإخوانه صفٌ واحدٌ في محاربته ، كان ذلك الفكر بهذه الطريقة من أعظم أسباب عودة الألفة وزوال العداوة .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾ القصة مليئة بأنواع اللطف الخفي والأسباب العجيبة لحصول ما قدّره الله عز وجل، التي في بدايتها يظن الظان أنها تؤدي إلى نتائج أخرى عكس ما وقع ، فقد جعل الله إلقاء يوسف عليه السلام في الجب إراحةً له من هم وغم وحسد إخوته ، وجعل بيعه رقيقاً الذي ظاهره الذل والهوان تمكيناً له في الأرض في حياة رغيدة هنيئة بعيداً عن قسوة البادية وجفاء الإخوة ، وجعل السجن طريقاً إلى ملكه ومكانته ، وجعل مكر إخوته سبباً لفشلهم فيما أرادوا ، وجعل الكرب الذي أصاب يعقوب عليه السلام وتضاعَف عليه سبباً في الفرج ، وجعل القحط والجدب الذي أصابهم سبباً للسَّعة والرخاء والعافية ، وقدَّر – سبحانه – من الأسباب لما يشاء ما تعجز العقول عن إدراكه ، فاللطف فيه معنى الخفاء مع الإحسان والتفضل ، فالله لطيف بعباده يرزقهم

من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ، ويَمُن عليهم بفضله من حيث لا يشعرون ، بل من حيث يظنون - أحياناً - أنه حرمان وضرر ، فإذا هو نفع وعطاء وخير .

فاللهم نسألك بلطفك وعفوك وكرمك أن ترزقنا النظر إلى وجهك ، ومرافقة أنبيائك وأوليائك ، وأن ترزقنا نعيم قربك ، وأن تنور قلوبنا بحبك ومعرفتك وخشيتك ، وأن تجعلنا من عبادك المخلصين .

ثم ختم يوسف عليه السلام كلامه مع أبيه بذكر الاسمين الكريمين من أسماء الله الحسنى اللذين ذكرهما له أبوه في صغره حين قص عليه يوسف عليه السلام رؤياه ، فنسب كل خيرٍ إلى الله ، وختم كلامه بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، فقال يوسف عليه السلام في خاتمة كلامه : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

نعم والله ، إنه هو العليم بمصالح عباده ولا يعلمونها ، العليم بعواقب الأمور ولا يعلمونها ، العليم بمن يستحق العطاء والإكرام والإنعام فيجتبيه ويعلمه ويتم نعمته عليه ، والعليم بما في قلوب عباده من الخير والشر وما يناسب كل عبد فيوفِّق كل عبد لما يناسبه ، وهو الحكيم الذي أحكم الأمور كلها فهي في غاية الإتقان في خلقه وشرعه ، الحكيم فهو الذي لا يُشرِّع ولا يُقدِّر شيئاً إلا لحكمة ومصلحة محبوبة له - سبحانه - حتى ولو تضمن القدر شيئاً مكروهاً له ، لكنه يفضي إلى محبوب له أعظم ، مما لو قدّر عدم المكروه فلا يحصل هذا المحبوب .

الحكيم في وضعه الأشياء في مواضعها التي يستحق الحمد عليها ، حتى أهل النار إذا دخلوا النار لا يستطيعون إلا أن يشهدوا حكمته ، فيكون حمد الله في قلوبهم ، لا يملكون غير ذلك ، والاقتران بين هذين الاسمين : ﴿ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يفيد كمالاً ثالثاً على كمال كل منهما ، فهو قد أحكَمَ الأمور ووضع لها عللها ومصالحها وحِكمها بعلمه الموصوف به أزلاً - سبحانه وبحمده - ، فاللهم لك الحمد كما تقول وخيراً مما نقول ، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، إنك أنت العليم الحكيم .

ثم التفت يوسف عليه السلام من الكلام مع أبيه إلى الثناء على ربه ﷻ ودعائه ، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه عليه في تحقيق غايات أعلى بعد أن تحقق له كل ما يريد فقال تعالى عنه : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .



دعاء وتضرع

قال تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

يتوسل يوسف عليه السلام إلى ربه – سبحانه – باسم الربوبية المضاف إلى ضمير المتكلم : ﴿ رَبِّ ﴾ ، وبشهود إيتائه إياه الملك وتعليمه من تأويل الأحاديث ، فهو توسلٌ إلى الله بفضله وإنعامه على عبده ، وتوسلٌ بشهود العبد ذلك وثنائه على الله به واعترافه بالنعمة ، وهذا من أسباب قبول الرب لدعاء عبده وشكره لعمله ، ثم توسل إلى الله بأنه فاطر السموات والأرض أي : خالقهما على غير مثال سابق ، وهذا يقتضي كمال ملكه ونفوذ أمره في السماوات والأرض ، وإن شهود ملكوت السموات والأرض لهو من أعظم أسباب حصول اليقين ، ثم توسل إليه بأنه وليه في الدنيا والآخرة الذي تولاّه بنعمه وإكرامه وتوفيقه وإعانته ، وهو الذي أخذ بقلبه إليه وملأه بحبه والإنابة إليه ، وهو الذي تولاّه باجتبائه واصطفائه بالنبوة ، وهو الذي تولاّه فقرّبه إليه ، ومعنى الولاية فيها معنى القيام بالأمر ومعنى القرب والمحبة ، وهو وَلِيُّه أيضاً في الآخرة ، فهو لا يريد سواه ، ولا يتوكل على سواه ، ولا يعد لفاقته وحاجته في دنياه وأخراه سواه ﷻ ، وهو الذي يرجو تَوَلِّيَهُ إياه بإدخاله الجنة في الآخرة ، كل هذه التوسلات لتحصيلِ أعظم مطلوب : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، إن نعمة الإسلام هي واللهِ أَجَلُّ نعمةٍ ، وبغيرها ما كانت تحصل للعبد نعمة دينية أو دنيوية ، إن راحة قلب المسلم وسعادته الحاصلة في الدنيا والمرجوة في الآخرة إنما كانت وتكون بنعمة الله بالتثبيت على هذا الدين ، إن الملك والعلم وغيرهما من نعم الدنيا لا يمكن أن تُسعد الإنسان إلا مع نعمة الله بالإسلام ، وكم أعطي أناس من الملك وشقوا به ولم يسعدوا ،

وكم أعطي أناس من العلم وشقوا به ولم يسعدوا ، وإنما النعمة الحقيقية هي نعمة الإسلام ، تذكر في هذا الموطن أخي المسلم نعمة الله علينا بالإسلام التي ذكرنا بها ، فقال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ، فسوف تشعر أن أعظم مطلوب لك هو أن تظل مسلماً إلى أن يتوفاك الله عليه ، لتتم عليك النعمة في الدنيا والآخرة ، والإسلام لله هو أعظم حظ يُعْطَاهُ عبدٌ ، وهو حظه من ربه ﷻ ، وهو يفتح له باب حظٍ آخر عظيم من أسباب النعيم ، وهو صحبة الصالحين : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ ، ووالله إن صحبة الصالحين في الدنيا من أسباب السعادة فيها ، وهي سبب لذوق حلاوة الإيمان ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لولا ثَلاثٌ لَمَا أحببتُ البقاءَ ، لولا أنْ أَحْمِلَ عَلَى جِيادِ الخَيْلِ فِي سَبِيلِ الله ، ومُكَابَدةِ الليلِ ، ومُجَالَسَةِ أقوامٍ يَنْتَقُون أَطَايبَ الكلام كَمَا تُنْتَقَى أطايبُ الثمارِ) ، وعن معاذٍ رضي الله عنه أنه قال عند موته : (اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لم أَكُنْ أُحِبُ البَقَاءَ لِجَرِي الأَنْهار ، ولا لِغَرْسِ الأَشْجَارِ ، ولا لِنَكْحِ الأَزْوَاجِ ، ولكن لِظَمَأِ الهَوَاجِرِ ، ومُكابدةِ الليلِ ، ومُزَاحَمَةِ العُلَماءِ بالرُكَبِ عند حِلَقِ الذِكْرِ) ، ولولا ما في صحبة الصالحين من الخير الذي لا يدرك بغيرها لما أمر الله بها نبيه ﷺ مع من هم أدنى منه ﷺ ، وإنما أنعم الله عليهم بالإسلام به ﷺ فقال تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، وصحبة الصالحين من نعيم أهل الجنة قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٦٩-٧٠] ، وقال إبراهيم عليه السلام وهو خير البرية بعد النبي ﷺ : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٣] ، وقال النبي ﷺ في احتضاره : « **اللهمَّ في الرَّفِيقِ الأَعْلَى** »[1] .

وفي الحديث القدسي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **إنَّ لله**

---

(١) رواه البخاري (٤٤٣٦-٤٤٤٩) ، ومسلم (٢١٩١) ، وأحمد (٢٤٤٢٥) .

مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا : هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ ، فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ : مَا يَقُولُ عِبَادِي ؟ قَالُوا : يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَأَوْنِي ؟ فَيَقُولُونَ : لَا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ ، فَيَقُولُ : وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي ؟ يَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا ، يَقُولُ : فَمَا يَسْأَلُونِي ؟ يقولون : يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ ، يَقُولُ : وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ يَقُولُونَ : لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا ، يَقُولُ : فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا ؟ يَقُولُونَ : لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً ، قَالَ : فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ ؟ يَقُولُونَ : مِنَ النَّارِ ، يَقُولُ : وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ يَقُولُونَ : لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا ، يَقُولُ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ يَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً ، فَيَقُولُ : فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ : فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ ، قَالَ : هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ »[1] .

فإذا كان مجالسة الصالحين تمنع الشقاء فكيف يُفَرَّطُ فيها ؟! فإنهم لما قرت أعينهم بالله ، قرت بهم كل عين ، وأنس بهم كل مستوحش ، وفرح بهم كل حزين ، وأمن بهم كل خائف ، واطمأن بهم كل مضطرب ، وإذا كان كلبٌ قد صحب الصالحين – أصحاب الكهف – فذُكِر معهم في كل موضع وصار ثامنهم ، فكيف بمؤمن يصحب المؤمنين ؟! فكيف بصحبة الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ؟ إذا كانت مصاحبة الأعلى للأدنى مأموراً به ، فكيف بمصاحبة الأدنى للأعلى ؟ وما أجمل قول قتادة في هذا الموضع عن يوسف عليه السلام : (لما جمع الله له شمله ، وأقرَّ عينه ، وهو يومئذٍ مغموسٌ في نعم الدنيا وملكها ونضارتها ، اشتاق إلى الصالحين قبله) ! أ . هـ . وذلك أنه تذكر أن كل لقاءٍ في الدنيا فلابد من موتٍ وفراقٍ بعده ، كما في الحديث الصحيح أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : « **يا محمدُ عِشْ ما شِئْتَ فإنَّكَ ميّتٌ ، وأحْبِبْ ما شِئْتَ فإنك**

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) ، واللفظ له .

مُفَارِقُه » ، فطلب يوسف عليه السلام الموت على الإسلام ، واللقاء الذي لا فراق بعده عند الله ﷻ بصحبة الصالحين ، فمهما فاتك أخي المبتلى بالبعاد عن الأهل والأحباب ، فتذكّر أن هناك لقاءً لا فراق بعده مع الصالحين عند الله ﷻ ، فاعمل لذلك ، ومهما أتاك أخي المبتلى بصحبة الأهل والأحباب – وهو ابتلاءٌ بالخير – فإياك أن تطمئن إليه ، واطلب ما هو أعلى وأدوم : ﴿ **تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ .

فائدة : تأمل في قوله عليه السلام : ﴿ **وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ** ﴾ فـ ﴿ **مِن** ﴾ هنا للتبعيض ، رغم أنه ما عرض عليه – في سياق قصص القرآن – رؤيا إلا أولها ، وقال لصاحبيه في السجن : ﴿ **لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ** ﴾ ، ومع ذلك فلابد أن يستحضر العبد أنه لا يعلم كل شيء ، بل لا يعلم إلا ما علّمه الله ، فكل واحد من البشر يعلم أشياء ويجهل غيرها ، والمقام مقام تضرع وانكسار لله – سبحانه – ، وحقيقٌ عليه أن يذكر ﴿ **مِن** ﴾ التي تفيد التبعيض ، بخلاف ما لو حُذِفت ، فقال مثلاً : (وعلمتني تأويل الأحاديث) لكان خلاف الحقيقة في عدم الإحاطة بكل التأويل ، وخلاف الأدب في هذا المقام ، والله أعلم .

قال ابن كثير – رحمه الله – في هذه الآيات : (هذا دعاءٌ من يوسف الصديق عليه السلام ، دعا ربه ﷻ لما تمت نعمةُ لَمِّ الشمل عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه ﷻ كما أتم نعمته عليه في الدنيا ، أن يستمر بها عليه في الآخرة ، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه ، قاله الضحاك ، وأن يلحقه بالصالحين ، وهم إخوته من النبيين والمرسلين – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – ، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره ، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله ﷺ جعل يرفع إصبعه عند الموت ويقول : « **اللهمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى** » [1] ، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٥٥) .

وانقضى عمره لا أنه سأله ذلك منجزاً) أ . هـ .

وهذا هو الظاهر من السياق ، لأنه ذكره عقب ذكر سجود أبيه وأمه وإخوته له وكلامه مع أبيه ، فليس فيه ذكر الاحتضار - والله أعلم - وأما الاحتمال الثالث الذي ذكره وهو أنه سأل هذا منجزاً ، وأنه كان جائزاً في شريعتهم وغير جائزٍ في شريعتنا ، ونقله عن ابن عباس ﷺ وقتادة والسدي ، فليس في القرآن والسنة بيان أن هذا كان ناجزاً ، وأما مسألة تمني الموت فالأحاديث الصحيحة إنما نهت عن تمنى الموت لِضُرٍ نزل بالإنسان ، كما قال رسول الله ﷺ : « **لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ ، فَلْيَقُلْ : اللهمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي** » [1] ، وأما سؤال الموت خوف الفتنة في الدين فلا مانع منه ، كما قال تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ **رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٦] ، وفي حديث معاذ ﷺ في رؤية النبي ﷺ ربه في المنام ، وهو حديث اختصام الملأ الأعلى ، قال في دعائه ﷺ : « **وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ** » [2] ، وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد ، أن النبي ﷺ قال : « **اثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ : المَوْتُ ، وَالمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ الفِتْنَةِ ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ المَالِ ، وَقِلَّةُ المَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ** » [3] .



(١) رواه البخاري (٦٣٥١) ، ومسلم (٢٦٨٠) ، وأبو داود (٣١٠٨) ، والترمذي (٩٧١) ، والنسائي (١٨٢٠) ، وابن ماجة (٤٢٦٥) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي (٣٢٣٣) ، وأحمد (٣٤٧٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩) .

(٣) صحيح : رواه أحمد (٢٣١١٣) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٩) .

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وبعد أن اكتملت القصة الرائعة بهذا السياق المعجز الذي يستحيل أن يوجد له مثيل ، لا في قصص أهل الكتاب ولا في أساطير الناس وقصصهم ، مع ما تضمنه من المعاني الإيمانية المتعلقة بتحقيق الإيمان بالله - سبحانه - وربوبيته وإلاهيته وأسمائه وصفاته والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالرسل والأنبياء ، وبيان صفاتهم الجميلة التي تجعلهم أحب خلق الله إلي خلقه ، وغير ذلك من المعاني الإيمانية التي سبق بيان بعضها ، تأتي خاتمة السورة معجزة أخرى في هذه التوجيهات الحكيمة البالغة الحكمة التي تقرر القضايا الكبرى التي يحتاجها الإنسان في سيره في هذه الحياة .

ووالله إن سورة يوسف ﷺ لمعجزةٌ خالدةٌ باقيةٌ - ككل سور القرآن العظيم - وهو أعظم أدلة نبوة نبينا محمد ﷺ ، بدأت هذه التوجيهات الحكيمة بتقرير قضية إثبات نبوة محمد ﷺ استدلالاً بهذه السورة وما فيها من أنباء الغيب وإثبات وحي الله ﷻ له ﷺ ، وهذا لأن قضية النبوة هي مفتاح كل مسألة بعد ذلك ، وهي سبب الانتفاع بهذا النور وهذه الحياة التي يتضمنها القرآن ، وإذا لم يُفتح قفل القلب بهذا المفتاح ظل ميتاً أعمى ، لا يعرف توحيداً ولا إيماناً ولا نبوة ، ولا بعثاً ولا حساباً ولا جزاءً بل ولا يعرف نوراً على الإطلاق ، بل يزيده الوحي الذي هو النور والحياة طغياناً وكفراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة : ٦٤] وذلك لعدم قبول القلوب الميتة المظلمة لأمر نبوة محمد ﷺ ، فأغلقت أبواب الخير

والرحمة على أنفسها ، واختارت الكفر والشقاء والتعاسة الأبدية .

كانت بداية هذه التوجيهات الإيمانية في خاتمة السورة بإثبات نبوة محمد ﷺ من إخباره بالمغَيَّبات بهذه الطريقة الناصعة مع القطع بأنه لم يكن حاضراً وقت القصة ، ولا له علم بكتب الأولين هو ولا قومه ولا هو يستطيع قراءتها لو كان له سبيلٌ إليها ، وقد أخبر القرآن بتفاصيل الوقائع وما وقع حتى من خلجات النفوس وأنواع الخواطر واختلاف الأفكار والألفاظ التي استعملت ، حتى كأنك حاضر الوقائع تشاهدها وتتأثر بها وتتفاعل معها بأسلوب لا نظير له بالقطع واليقين .

فهذه القصة لدى أهل الكتاب في كتابهم الذي يسمونه المقدس في العهد القديم ، فليقارن كل عاقل منصف – ولا أقول فقط كل مؤمن – بين السياقين ، ويقارن بين أثر كل منهما في النفس ، والمعاني الإيمانية والتفاصيل المطلوبة ، وما وقع عليه التركيز من الأمور ليجزم بلا تردد ولا توقف بأنه لا وجه للمقارنة ، ووالله إن الفرق لأكبر مما بين الثرى والثريا ، مع اتحاد مضمون الوقائع في النهاية ، وكل هذا من أوضح الأدلة اليقينية على نبوة محمد ﷺ ، وفي الآية امتنانٌ على رسول الله ﷺ بإيحاء هذه السورة إليه ، وهي والله مِنَّةٌ عليه وعلينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (يقرر تعالى لمحمد ﷺ لمّا قصَّ عليه نبأ إخوة يوسف عليه السلام ، وكيف رفعه الله عليهم ، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام ، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ، نوحيه إليك ونعلمك به يا محمد ، لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أي : وما كنت حاضراً عندهم ، ولا مشاهداً لهم إذ أجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب وهم يمكرون به ، ولكن أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ

بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص : ٤٤-٤٦] وقال : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ [القصص : ٤٥] وقال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يقول : ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ص : ٦٩ - ٧٠]) ا.هـ. بتصرف .

وهذه الآية الكريمة فيها ذمٌ لمكر إخوة يوسف ﷺ ، ضمن ما وقع من إعلام النبي ﷺ بهذا المكر ، وإرشادٌ إلى النظر في عاقبة هذا المكر الذي هو التدبير في خفاء ، ولكن لما كان مكراً بالسيئات كان بائراً رغم ما توهّم أصحابه أنهم في أول أمرهم قد نجحوا في مخططهم ، ووصلوا إلى غايتهم ، ولكن كيف كانت عاقبة الأمر ومآله ونهايته ؟ كآيات كثيرة تؤكد هذا المعنى ، وتُطمْئِنُ المؤمنين وهم يتعرضون لأنواع من المكر ، يُدبر لهم في الخفاء وهم لا يشعرون ، ولكن ربهم مطلعٌ عليه وهو محيط به وبأهله ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر : ٤٣] ، وكقوله تعـالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥٠-٥١] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٣] ، وكقوله تعالى عن نوح ﷺ في شكواه قومه إلى الله ﷻ : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح : ٢٢] أي : كبيراً ، كقوله تعالى عن اليهود أعداء المسيح ﷺ وأعداء جميع الأنبياء : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] ، وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ عن المشركين : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة تبين كيف أن الباطل دائماً يمكر بالحق ويفشل في

النهاية ، رغم قوة الباطل الظاهرة وضعف أهل الحق في الأسباب المادية ، وما ذاك إلا لأن الله – سبحانه – يمكر بمن يمكر بأوليائه ، وَمَكْرُه ﷻ صفة كمال لائقةٍ به سبحانه وبجلاله وعظمته ، منزهٌ عن النقص والظلم والسوء ، لا يشبه مكر المخلوقين ، وهو خير المكر ، وهو إنما يمكر بمن يستحق المكر ، عدلاً منه سبحانه وحكمة .

وفي هذا ما يُطمئن قلوب المؤمنين ، خصوصاً مع ضعف إمكانيتهم في معرفة مكر أعدائهم من الكفرة والمنافقين والظلمة ، وفي مواجهته لو عرفوه ، مع أن مكر الأعداء شديد كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم : ٤٦] ، فعلى الله يتوكل أهل الإيمان في دفع مكر الماكرين ، ويفوضون أمورهم إليه ؛ إذ هو بما يعمل الكافرون محيط ، ومكرهم في علمه سبحانه لا يغيب عنه شيء منه ، وهو بصيرٌ به كما قال سبحانه عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٤-٤٥] .

فليبشر المؤمنون بأن تخطيط الكفار لهم لن يثمر ثماره ، ولن يؤدي إلى نتائجه ، ولن يُحقق أهدافه ، فلله المكر جميعاً ، يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ، ومن أعظم دليلٍ على ذلك ما وقع في قصة يوسف عليه السلام من مكر إخوته به ، وكيف كان عملهم في باطن الأمر عملاً لرفعة يوسف عليه السلام ونجاته من شر حسدهم وبغيهم ، وكيف كان مكر امرأة العزيز والنسوة سبباً لعزه وملكه من حيث أرادت ذله وسجنه : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ ، وهو القدوة الحسنة لكل الدعاة بعده ، عن عدم إيمان أكثر الناس ، وهذه مسألةٌ عظيمة

الأهمية في نفس الداعي إلى الله ﷻ ، ومرحلةٌ مهمةٌ لابد أن تمر بها دعوة الحق ، لها مصالح جمة وحكم بالغة ، من أهمها : تحصيل عدم الزهد في القلة ، وعدم الاغترار بالكثرة ، وعدم بناء الأمور على الكثرة ، قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٠] ، وقال عن نوح عليه السلام : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] ، فلابد أن يُوَطِّنَ الداعي نفسه على أن عليه العمل ، وليس عليه النتائج ، عليه البلاغ عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ ، وليس عليه الهداية .

ومن حِكم ذلك وفوائده : تحصيل الإخلاص وإرادة الله والدار الآخرة ، وذلك أن من يعمل ولا يجد في الدنيا ثمرة عمله ودعوته من إقبال الناس على دعوته ، فإنه لا يُؤَمِّلُ ولا يرجو إلا رضا الله عنه وثوابه .

وإذا علم الداعي أن هناك من الأنبياء من لم يجبه أحد ، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ » [1] ، ومع ذلك نالوا أجرهم عند الله كاملاً غير منقوص ، فما عليه أن يهتدي الناس ، ما دام قد قام بما عليه من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، ولم يكن فظّاً غليظ القلب يؤدي إلى انفضاض الناس من حوله ، وكانت دعوته نقيةً بيضاء لم يشب الحق فيها شائبة تؤدي إلى انصراف الفِطَر السليمة عنها ، فلا يعبأ بما عليه الناس .

ومن حِكم ذلك : أن يوقن أهل الإيمان وأهل الدعوة أن النصر ليس من صُنعهم ، فإنهم قدْ مَرَّ عليهم وقت يفر الناس فيه من الحق فأين كانوا هم حينئذ ؟ وما كانوا يملكون لأنفسهم ولا لدعوتهم نصرًا ولا تمكينًا ، بل حتى ولا حمايةً وجوارًا من الأذى ، فإذا آوى الله ﷻ عباده المؤمنين القليل المستضعفين في الأرض ، وأيدهم بنصره

(١) رواه البخاري (٥٧٥٢) ، ومسلم (٢٢٠) ، وأحمد (٢٤٤٤) .

ورزقهم من الطيبات ، فعند ذلك لا يقولون : (انتصرنا) ، (فعلنا) ، (خططنا) ، (نفذنا) ، بل يقولون : (هذا من فضل الله علينا وعلى الناس) ، فيشكرون الله على نعمته ويشهدون فضله بها كما قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

ومن حِكم ذلك : أن يعلم أن هذا الدين لا يقوم بالغوغاء ، وأنه لابد من إعداد طائفةٍ مؤمنةٍ تُرَبَّى على الحق ، وتُؤَهَّل لقيادة الأمة ، بل العالم ، وحين تستكمل سمات الشخصية المسلمة في أفرادها ، والتي أساسها تحقيق الإسلام والإيمان والإحسان ، علماً وعملاً وحالاً ، ودعوةً وصبراً وثباتاً ، وحين تقوى الروابط بين أفرادها حتى يصيروا كجسدٍ واحد ، حباً وتعاوناً وأداءً لفروض الكفاية أو تأهلاً لذلك ، فسوف يحصل لها التمكين من الله – سبحانه – .

أما أن نظنّ أن دعوة الإسلام يمكن أن تقيمها الجماهير الغفيرة التي لم تُرَبَّ التربية الإيمانية ، وإنما تحركها عاطفةٌ بلا علم ، وحركةٌ بلا بصيرة ، وتقليدٌ أعمى للقادة ، فهو ظنٌ فاسدٌ جاهلٌ بدعوة الأنبياء وطريقتهم ، وهذه الجماهير ما أسرع ما تنجرف وراء ناعقٍ جديدٍ ينحرف بها إلى الأهواء المضلة والشهوات المغوية ، فينهار العمل ويقطف الثمرة – إن كان هناك ثمرة – الأعداء والمنافقون وأصحاب المنافع والمصالح الدنيوية .

إن الجماهير تدخل في الدين أفواجاً بعد أن يقوم على الأعمدة الراسخة من المؤمنين ، إن الزلازل والفتن تكثر في آخر الزمان ، فهل يصح أن نبني بناءنا بلا أعمدة ؟ إن أول زلزال سوف يهدم البناء فوق رؤوسنا ، ونكون نحن المقصرين لأننا غرتنا الجموع الكثيرة التي لم تهيئ ولم تُرَبَّ على القرب من العلماء العاملين ، ولم تختبر صفاتها حتى يُنظر في صلاحيتها لتحمل المسؤولية ، وإذا لم نستفد من بيان القرآن : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ

﴿ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ، ومن سيرة رسول الله ﷺ والأنبياء قبله ، فلا نلومنَّ إلا أنفسنا ، ونسأل الله العافية .

ومن حِكم قلة المؤمنين في بداية الدعوة : أن يوقن الداعي أن نجاح الدعوة ليس لفصاحته ولا لبلاغته ولا حسن أسلوبه ولا لشدة حرصه ، فلن يكون في شيء من ذلك أشد من النبي ﷺ ، بل ولا مماثلاً له ، بل ولا قريباً منه ، ومع شدة حرصه ﷺ واجتهاده وكمال عبوديته ، مرت الدعوة بهذه المرحلة ، ولم يؤمن أكثر الناس ، ولم يهدِ النبي ﷺ من أحب .

فليوقن الداعي بذلك ، وليشهد فقره وعجزه عن هداية الناس ، فإذا اهتدى على يديه أحد فلا يقل لنفسه ولا لغيره : (أنا الذي دعوت) ، (أنا الذي علَّمت) ، (أنا الذي ربيت) ، (أنا الذي صبرت وضحيت) ، فهذا باب فساد خطير في قلب الداعي وقصده ، وهو بداية العُجب ثم الكبر والمنّ على الخلق ، ثم التنافس على الدنيا باسم الدين والحقد والحسد ، نعوذ بالله من ذلك كله .

ومرور الدعوة بمرحلة القلة والضعف يُغلق هذا الباب ، لأن المؤمن يتذكر هذه المرحلة ، ويتذكر حاله فيها من ضعف القوة وقلة الحيلة والهوان على الناس ، وأنه لم يكن بيده ساعتها أن يغير هذا الواقع ، ولا حتى يعلم متى يتغير - وإن كان موقناً بوعد الله - ، إلا إنه لا يدري أيكون موجوداً على ظهر الأرض ساعة يتغير ، أم يكون قد رحل عنها ، فلله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، ووعدُ الله هو لمجموع الطائفة المؤمنة ، ولا يلزم أن يدرك آحادها ذلك في حياتهم ، بل بالقطع يسقط الكثيرون شهداء في الطريق قبل الوصول ، فإذا تذكر المؤمن ذلك لم يغتر بعمله ولا بعلمه ولا بدعوته ولا بجهاده ، فكانت هذه المرحلة من أهم وأنفع المراحل للدعوة والداعي .

وفي قوله تعالى : ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ بيانٌ لحرص النبي ﷺ على إيمان أكثر الناس ،

وقد دلت أدلةٌ كثيرة على شدة حرصه ﷺ على ذلك مثل قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] أي : مُهلك نفسك ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، وقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [النحل : ٣٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

وهذا مما ينبغي أن يكون عليه الداعي إلى الله ومعلم الناس الخير وهو أن يكون حريصاً على هداية الناس ، فهدفه الأول أن يهتدي الناس ، وأن يعرفوا ربهم ويحبوه ، وهو يحرص على ذلك لأنه المأمور به شرعاً ، حتى ولو كان يعلم أن القَدَرَ قد مضى بغير ذلك ، فالحرص على هداية الخلق امتثالٌ للشرع ، ولكن شهود القدر يمنع الإحباط واليأس والحزن والكآبة ، التي إذا وقعت في نفس الداعي أقعدته عن العمل ، وأبطلت دعوته وسعيه ، فعليه أن يبلغ الحق وليس عليه أن يهتدي الناس ، عليه أن يحرص على هداية الخلق ، وإذا رأى غير ذلك علم أن من ورائه حكمة بالغة ومصالح باهرة يحمد الرب عليها ، فله الحمد على كل حال ولا يحمد على مكروه سواه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ بيان لأصل عظيم في دعوة الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ، وهو أنهم لا يأخذون أجراً من الخلق على دعوتهم ، وهكذا خُلَّصُ أتباعهم ، وهذا من أعظم أسباب استجابة الناس للدعوة ، لأنهم فُطِرُوا على أن من لم يسألهم أجراً فهو يحب الخير لهم ، فهم يقبلون ما جاءهم به ، قال تعالى : ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور : ٤٠] ، وقال تعالى عن نوح : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [هود : ٢٩] ، وقال عن هود عليه السلام : ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ﴾ [هود : ٥١] ، وقال في سورة الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب – عليهم جميعاً الصلاة والسلام – أن كلاً منهم

قال لقومه : ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠] ، وقال ﷻ عن مؤمن آل ياسين في استدلاله على قومه في وجوب اتباع الرسل : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس : ٢١] ، ولما كانت هذه القضية عظيمة الأهمية في استجابة الخلق ، كان حرص كثير من أهل الباطل على العمل الذي يسمونه (خيرياً) ليتوصلوا به إلى إقناع الناس بدعوتهم الباطلة ، فَفِرَقُ المُنَصِّرِين وجماعاتهم إنما تدخل إلى قلوب الجهلة والسذجة في أماكن متفرقة من العالم بالعمل التطوعي بلا أجر .

وما أكثر الدجالين المشعوذين والسحرة والكهنة الذين يروج أمرهم على العامة لأنهم لا يأخذون أجراً ، وإن كانوا عند التأمل يحصلون على مصالح مادية هائلة ، بالطرق الخفية من خلال الجاه الذي يحصل لهم بسبب عملهم (بلا أجر) ! أفلا يعي هذه الحقيقة أتباع الأنبياء من العلماء والدعاة ؟! ويعلمون أن دعوتهم إنما تجد أبواب القلوب مفتوحة بقدر ما أخلصوا عملهم لله والدار الآخرة ، ولم ينتفعوا من دعوتهم بشيء من حطام الدنيا ؟

وفي الأثر الإسرائيلي : (يا ابن آدم عَلِّمْ مجاناً ، كما عُلِّمْتَ مجاناً) ، ولو تأملت العلم الحقيقي النافع الذي ورثته الأمة ، هل أخذ أحد من أهله على تعليمه للناس أجراً ؟ فهؤلاء الصحابة - رضي الله عنهم - علَّموا التابعين - رحمهم الله - ، وكانوا جميعاً يعلّمون مجاناً بلا أجر منهم ، ولا حتى من الدولة الإسلامية ، وكذا كان جهادهم وفتوحاتهم ، ومن بعدهم التابعون وتابعوهم ، ومن بعدهم الأئمة والعلماء .

فهؤلاء أئمة المذاهب الأربعة الكبار : أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، ما أخذ أحدٌ منهم أجراً قط على تعليمه العلم ، ولا كانت وسيلة كسبه ومعاشه تعليم الناس ، وانظر إلى البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأهل الحديث ، كم أخذوا على كتبهم ورحلتهم في طلب العلم ؟! وغيرهم كثيرٌ كثيرٌ تجدها

قاعدة مطردة : أن العلم الحقيقي لم يكن قط وظيفة يُتكسب منها .

إن أخذ الداعي أجراً على دعوته ، والعالم أجراً على علمه ، أو أن تكون هذه وظيفته التي يتكسب منها ، يُمنع عنه خيراً كثيراً ، ويُطفيء كثيراً من النور الذي تحمله دعوته ، كما أنه لابد أن يكون تابعاً - بدرجةٍ ما - لمن يدفع له الأجرة ، فيفقد قدراً من استقلاليته ، وتجرده في البحث والفتوى والتعليم والدعوة ، إن لم يفقده بالكلية فيصير تابعاً للباطل لا متبوعاً في الحق ، ويصير - كما نرى علماء السوء في كل زمان - يُفَصِّلُ الفتاوى على حسب الأهواء ، ويتحكم فيه المال والشهرة والشهوة ، فيضيع الحق من قلبه ولسانه ، والعياذ بالله ، ونسأل الله العافية .

فعلى الداعي أن يجتهد أن يكون مصدر كسبه لمعاشه أمراً آخراً ، غير الدعوة إلى الله وتعليم الناس الخير ، ولو تحمل في سبيل ذلك شظف العيش والفقر ، بل ذلك - إن شاء الله - إن وقع فهو من أسباب قبول دعوته إذا علم الناس عدم إقباله على الدنيا ، وإن كان آخذاً ولابد فليكن من بيت المال ، أو من الدولة المسلمة إذا اضطر إلى التفرغ للدعوة ، وتعذر عليه أن يجمع بين وجه للكسب مع دعوته ، ويأخذ قدر الكفاية .

فهذا هو الأصل ، وليس أن يكون العمل الدعوي وسيلة للتربح والغنى وبناء القصور وفتح الأرصدة والعيش في أبهة الغنى ، فإن ذلك من أعظم أسباب انصراف الناس عن الدعوة ولو كانت حقاً ، فضلاً عن ضياع الأجر عند الله - سبحانه - .

ولابد أن ننتبه هنا للفرق بين مسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن ، وبين مسألة أخذ الأجرة على الدعوة إلى الله ، وإن كان بينهما قدرٌ مشترك ، إلا أن هناك فرقاً مهماً ، وهو أن جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن - على قول من يجوزه وهم الجمهور - مشروطٌ بما لم يتعين عليه تعليمه ، وكذا غيره من أنواع العلوم ، فأما ما صار فرض عين على المعلِّم أن يُعَلِّمَه ، كمن لا يعلم التوحيد ولا يوجد إلا واحد يبلغه له ، وكمن لا يحسن الصلاة أو قراءة الفاتحة ولا يوجد إلا واحد يقوم بذلك ، فلا يجوز له أن يمتنع

من التعليم إلا ببذل الأجرة ، بل يلزمه أن يبذله له من غير عِوض ، والله أعلم .

وأكثر مسائل الدعوة من هذا الباب ، أما مسألة جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ، فمسألة خلافية ، ذهب مالك والشافعي - رحمهما الله - إلى الجواز ، استدلالاً بقول النبي ﷺ : « **إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ الله** » [1]، وذلك من حديث الرقية بالقرآن ، وكذا استدلوا بحديث الواهبة نفسها ، قال النبي ﷺ : « **اذْهَبْ فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ** » [2]، وفي رواية : « **فَعَلِّمْهَا مِن القُرْآنِ** » ، وهذه أدلةٌ ظاهرةٌ ، وذهب أبو حنيفة - رحمه الله - إلى منع أخذ الأجرة على الطاعات مطلقاً ، استدلالاً بحديث أُبَيِّ ابْنِ كَعْبٍ ، قَالَ : عَلَّمْتُ رَجُلًا الْقُرْآنَ فَأَهْدَى إِلَيَّ قَوْسًا فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ : « **إِنْ أَخَذْتَهَا أَخَذْتَ قَوْسًا مِنْ نَارٍ ، فَرَدَدْتُهَا** » [3]، ورغم المقال الذي فيه إلا أن له شواهد تقوي معناه .

وذهب الإمام أحمد إلى عدم جواز المشارطة ، وجواز أخذ الجعل من غير مشارطة ، ولا شك أن الأحوط قول أبي حنيفة ، والأقوى دليلاً قول مالك والشافعي - رحمهما الله تعالى - ، وعلى أي حال ، فلا شك أن العمل الإسلامي لن يقوم - علماً وتعليماً ودعوة وجهاداً - إلا على من لا يسأل الناس أجراً وهم مهتدون .

وقوله تعالى : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ** ﴾ يتضمن قضية عظيمة الأهمية بالنسبة إلى فهم المؤمن عموماً والدعاة إلى الله خصوصاً لحقيقة هذا الدين وحدود دعوته ، ألا وهي قضية عالمية الإسلام ، فهو قد جاء ليعم الأرض كلها ، دعوة في البداية وسلطاناً في النهاية ، وقد بُعث محمد ﷺ رحمة للعالمين ، ولابد أن تصل الرحمة إلى جميع العالم ، لا تختص بقومٍ دون قوم ، ولا بلدٍ دون بلد ، فليس هناك شؤون داخلية للأمم لا دخل للمسلمين بها ، إن دعوة الإسلام هي دعوة النوع الإنساني بأسره ، ورسولهم محمد ﷺ

---

(١)رواه البخاري (٥٧٣٧) .
(٢)رواه البخاري (٥١٣٢) ، ومسلم (١٤٢٥) .
(٣)صحيح : رواه ابن ماجة (٢١٥٨) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة .

رسولٌ إلى الإنس والجن ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وأرض الإسلام التي يجب على المسلمين أن يحرروها من احتلال عبّاد الطواغيت هي الكرة الأرضية كلها ، إن الأرض أرض الله ، والخلق عباد الله ، فلابد أن يعلوهم شرعه ودينه ، فمن شاء بعد ذلك أن يكفر فلا يحق له أن يفرض كفره على غيره ، وعلى أجيال من البشر قادمة ، يعمى عليها الحق ، ويُلَبّس بالباطل والخداع الذي يسمى إن الإعلام ، وما هو إلا تجهيل وتزوير ، حتى يرى الناس الحق باطلاً ، والنور ظلاماً ، وأشقى طرق الحياة بدون الطريقة المُثلى كما قالها آل فرعون : ﴿ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٣] ، ولكي يحجب عن الخلق نور الهدى الذي جاء به محمد ﷺ ، وليعيش البشر أسوأ والله من حياة البهائم ، بل يعيشون حياة الشياطين ، فهل من ظلم للبشرية أشد من أن تترَك هكذا محرومة من هذا الدين إذا تصور أصحابه - وليسوا حينئذ بأصحابه حقاً - إذا تصوروا أن دعوتهم قاصرة على أممهم وبلادهم ؟ هذا التصور الذي لو وُجِدَ عند الصحابة - رضي الله عنهم - لما دخل الناس في دين الله أفواجاً .

إن عالمية دعوة الإسلام نابعةٌ من حقيقة الغاية التي خُلق من أجلها البشر ، وهي عبادة الله ﷻ ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] فلا يجوز أن يُحرم الإنسان من هذا الذكر ، الذي يتذكر به العالم حقيقة الحياة والوجود والبداية والنهاية ، وكيف يعيش الحياة التي أرادها الله خالقها ومبدعها سبحانه وتعالى ، إن عالمية دعوة الإسلام نابعةٌ من حقيقة القرآن ، وأنه الكتاب الذي أنزله الله ليحكم بين الناس - كل الناس - فيما اختلفوا فيه ، وأنه النور المبين الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

إن حق البشرية في الرحمة المهداة ﷺ حقٌّ متساوٍ لكل إنسان ، مكفولٌ لكل من طلبه ، مثل الهواء والماء وضوء الشمس ، لأنهم لو حُرِموا هذه الأشياء لضاعت عليهم حياة أبدانهم ، وهي حياة يسبقها الفناء ويعقبها الفناء ، وأما إذا حُرِموا من الوحي الذي جاء به محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، ضاعت عليهم حياتهم الأبدية التي هي حقيقة الحياة كما يقول الإنسان يوم القيامة : ﴿ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [الفجر : ٢٤] ، فضلاً عن ضياع سعادتهم في حياتهم الدنيا ، وحصول الشقاء والتعاسة من كل وجه ، ولو نالوا كل الشهوات .

وإذا استحضرنا أن سورة يوسف عليه السلام من السور المكية التي نزلت على رسول الله ﷺ وهو محصور بمكة ، والدعوة لم تَجِدْ بعدُ الأرضَ التي تُؤْوِي أصحابها ، بل هم قليلٌ مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ، ومع هذا تنزلت هذه الآية ، وأمثالها في القرآن كثير ، كقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص : ٨٧-٨٨] في سورة (ص) وهي مكية ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القلم : ٥٢] في سورة (القلم) وهي مكية من أوائل ما نزل ، نزلت بعد المدثر ، وكقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] في سورة (الأنبياء) وهي مكية ، وكذا قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] في سورة (الأعراف) وهي مكية ، وإذا استحضرنا ذلك كله علمنا أن هذه القضية بُيِّنَتْ أوضح بيان من بداية الدعوة ، وفي أول طريقها الذي حُف بالمكاره ، بِغض النظر عن إمكانية التطبيق في هذا الوقت ، إنها لابد أن تكون واضحة في نفوس المؤمنين والدعاة ، خصوصاً منذ البداية ليستعدوا بالهمة العالية والعزيمة الصادقة على السير في الطريق الطويل ، حتى ولو لم تكن وسائل السير وطرق تحقيق هذا الأمر ظاهرة في الأفق .

إن هذه الأمة تهيَّأ لتقود العالم بأسره ، وللشهادة على الناس ، فلابد أن يعرفوا دورهم وحجمهم الحقيقي ، وحجم العبء الذي كُلفوا به ليعدوا للأمر عدته ، إنهم لو

ظنوا أن حدود دعوتهم - مثلاً - جزيرة العرب ، لكانت همتهم - وبالتالي سعيهم - على قدر ذلك ، وكذلك لو ظن العاملون في العمل الإسلامي أن دورهم هو - مثلاً - مسجدهم أو حيهم أو مدينتهم وقريتهم أو حتى إقليمهم ، فستكون همتهم - وبالتالي سعيهم - قدر ذلك .

ولكن إذا أيقنوا أن الإسلام هو ذكرٌ للعالمين ، وأن دورهم في توصيله - نقياً كما جاء به رسول الله ﷺ - إلى أهل الأرض كلهم ، كانت همتهم - وبالتالي سعيهم - على قدر ذلك ، إن هذا الفهم هو الذي جعل الصحابة ﷺ ينطلقون في المشارق والمغارب نشراً للإسلام ، وجهاداً لإعلاء كلمة الله ، وتعليماً وتربيةً للأمم والشعوب حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وإن هذه الهمة التي جعلت مثل عقبة بن نافع يقف على شاطئ الأطلسي بجواده ، ويدخل المحيط خطوات مبيناً رغبته في أن يخوض غمار هذا البحر المحيط يقول : والله يا بحر لو أعلم أن وراءك أرضاً تفتح في سبيل الله لخضتك بفرسي هذا .

وهذه الهمة هي التي جعلت مثل صلاح الدين بعد أن ينتصر على الصليبيين يحدث نفسه ورفاقه أنه ينوي أن يركب البحر ليصل إلى عمق بلاد الفرنجة ، ويجاهد في سبيل الله حتى لا يَبقى أحدٌ يعبد غير الله إلا أسلم أو دفع الجزية ، قد تكون الإمكانيات في بعض الأحوال تحول دون تطبيق ذلك ، لكن لابد أن يظل الشعور بلزوم نشر الإسلام في العالمين كلهم وتذكيرهم جميعاً بكتاب الله حياً في القلوب مورثاً عبر الأجيال ، فإن صراع المناهج والملل والحضارات لا تحسمه القوة المادية ، فإن موازين القوى تتغير في لحظات ، وإنما يحسمه حال القلوب وعزمها وصدقها وثباتها ويقينها .

إن الانكسار الحقيقي الذي يريده الأعداء ليس هو كسر الجيوش والأفراد ولو وضعوهم في السجون وكبّلوهم بالقيود ، وإنما يريدون كسر النفوس والأفكار والمعتقدات ، وإنما يريدون أن يركن أهل الإسلام إلى باطلهم ، فينطفئ النور الذي

يعمهم فيحل الظلام الذي يريده الأعداء : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] ، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢-٣٣] .

تحضرني في هذا المقام قضية تتعلق بهذه المسألة ، وهي العلاقة بين الإمكانيات والقدرات وبين تغير المعتقدات تبعاً للإمكانيات لا تبعاً للأدلة والبراهين ، ونمثل ذلك بمسألتين :

المسألة الأولى : مسألة جهاد الطلب ، فالمسلمون اليوم عاجزون في معظم الأحيان حتى عن جهاد الدفع ، فبلادهم محتلةٌ ، وشرع الله عن مجتمعاتهم مُغَيَّبٌ ، ودعاة الإسلام الحق مضطهدون محاصرون ، ومع ذلك فهل نقبل في ظل انعدام الإمكانيات إلى هذا الحد الأقوال الباطلة بأن الإسلام لا يعرف إلا جهاد الدفع ، وأنه - مثلاً - يحترم سيادة الدول وعدم التدخل في الشؤون الداخلية حتى ولو كانت كافرة ظالمة ؟ وأن الإسلام لا يهدف إلى أن تعم كلمة التوحيد الأرض كلها ؟ وأنه يحترم ما يسمونه بالشرعية الدولية ، التي أكلوها حين جاعوا وداسوا بقاياها بأقدامهم ؟ أم أننا ينبغي أن نترك استعمال لفظ (الكفار) في وصف المخالفين لأهل الإسلام ، بل نقول (غير المسلمين) وأضعاف هذه المقالات المنكرة التي حقيقتها الركون إلى الذين ظلموا ؟! وهل نقبل أن نوصل إلى الأجيال بعدنا إسلاماً ناقصاً مشوهاً نُغْفِلُ فيه الأدلة القاطعة على أن الإسلام هو دين الله الذي لا يقبل سواه ، وأن القرآن ذكر للعالمين ؟ أم نتحمل ونصبر على عقيدتنا وكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ ونوصلها لمن بعدنا ، ممن بالقطع واليقين سيكون منهم من يقدر على تنفيذ هذه الأوامر وإقامتها وينشر دين الله ﷻ في الأرض ويجاهد جهاد الدفع وجهاد الطلب بإذن الله تعالى ؟ وإن كان لابد لنا من الانتباه إلى أن عقيدتنا الراسخة بقوله تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة : ٣٦] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ

﴿ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥] ، لا يعني أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة ، ولا نحسب قوة أعدائنا أو أن نذعرهم علينا وعلى أمتنا بأعمال هي أشبه بالأعمال الدعائية التلفزيونية لنُقنع أنفسنا أننا نصنع شيئاً ، وفي الحقيقة ندمر بلاد المسلمين ونستجلب عليهم أنواع المضار من غير نفع ، لأننا لم نسلك الطرق الشرعية ، ولم نأخذ بالأسباب شرعاً وكوناً ، ونفهم واجب كل وقتٍ ومهمة كل مرحلة ، فلا يحاول مَنْ يحبو أن يقفز كل درجات السُلّم مرة واحدة ، وهو بَعْدُ لم يتعلم المشي .

ولابد لنا أن نعلم أن التربية على معاني الإيمان والإسلام والإحسان هي أساس العمل في كل مرحلة ، وبدونها لن يتقدم المسلمون خطوة واحدة ، والله المستعان .

والمسألة الثانية نمثل بها : مسألة الجزية ، فالمسلمون اليوم ليس لهم في بلادهم كمال السلطان على ثرواتهم ، بل أموالهم بأيدي أعدائهم وهم الذين يفرضون عليهم أنواع التصرف في ثرواتهم بما يحقق مصالح الأعداء ، ومع هذا الحال الذي لا يتصور فيه أن يطبقوا قول الله تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] ، وجدنا من يقول : إن الجزية أمرٌ قد مضى عهده وانتهى ، وأنه إنما كان لأزمنةٍ خاصة كان التعامل الدولي وقتها مبنياً عليها ، ولهذا أقرها الإسلام ، أما الآن فلا يتصور المطالبة بالعمل بها ، ولا ينبغي أن نقول عن غير المسلمين في المجتمع المسلم (ذميون) ، بل هم (مواطنون) ومقولات أخرى تتنكر لأدلة قاطعة من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وخلفها في كيفية معاملة الكفار في الدولة المسلمة وخارجها ، حتى صار في المسلمين من يستحي من طرح هذه الأمور ، ويستنكرها غاية الاستنكار ، وكأن في الأمر احتمالًا للخلاف ، أو أنه ليس مذكوراً في القرآن والسنة المتواترة والإجماع القطعي عند أهل العلم .

فنحن - وإن عجزنا عن تطبيق ذلك في وقت ما ومكان ما - لابد أن يظل

اعتقادنا بلزوم تطبيق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بفهم سلف الأمة لا يُزعزع ، وإذا عجزنا عن شيء منه فهو يسقط عنا لعدم القدرة ، لا لأنه غير لازم أو نقبل فيه التحريف والتبديل ، ففرض الجزية على غير المسلمين في الدولة المسلمة أمرٌ لا يحتمل التبديل والتغيير ، ولننقل الآيات والأحاديث والوثيقة العمرية لأهل بيت المقدس عند فتحها لمن بعدنا من الأجيال ، على أنها شريعة حتمية التطبيق عند القدرة على ذلك ، كما كان رسول الله ﷺ يعلم صحابته كتاب الله الذي فيه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، وربّاهم على أن مهمتهم هي نشر الإسلام في العالم كله ، وهم بَعْدُ محاصرون بمكة لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم الأذى من المشركين .

إن الركون إلى الذين ظلموا هو افتراء غير الحق في دين الله ، وليس علينا العمل بما نعجز عنه ، وإنما يحصل الانحراف والتبديل إذا قبلنا تحت ضغط الواقع أن نتنازل عن شيء من عقيدتنا ومنهجنا ودعوة الحق التي بأيدينا .فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، ويا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك ، ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

ومن أهم لوازم صفة العالمية للإسلام أنه لا يعرف فواصل بين الأمم والشعوب ، فالناس كلهم في لزوم الالتزام به وفي التفاضل بينهم وفي المجازاة بأعمالهم في الدنيا والآخرة سواء لا تفاضل إلا بالتقوى ، ولا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، فالنعرات القومية والوطنية والقبلية والحزبية وسيادة لون أو جنس على سائر الأجناس كلها من دعوة الجاهلية التي وضعها رسول الله ﷺ تحت قدميه يوم عرفة في حجة الوداع ، فيجب أن تكون كذلك عند كل مؤمن ومسلم ، لا أن يضعها فوق رأسه ، والمجتمع المسلم لا يُبنى على صراع طبقاته بين أغنياء وفقراء أو عمال وفلاحين ورأسماليين أو غير ذلك ، بل يُبنى على الحب في الله للمؤمنين والبغض في الله للكافرين ، يبنى على قول النبي ﷺ : « الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، وَهُمْ

يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ »[1] ، وإن كان ذلك لا يعني ظلم الكفار الذميين أو المستأمنين أو المعاهدين بل ولا ظلم غيرهم من الحربيين ، فقد كفل لهم الإسلام حقوقهم بما شرعه الله ، وسَنَّه رسوله ﷺ ، وطبّقه خلفاؤه الراشدون ، فالمعاهد منهم بعهده آمنٌ على دمه وماله وعرضه ، لا يكره على ترك دينه ما دام قد وَفَى بشرط العهد أياً كان نوعه ، ذمةً أو أماناً أو عهداً .

كما أن صفة العالمية تجعل قضية المسلمين في كل أرضٍ قضية واحدة ، فهم يتناصرون في الدين على تباعد أقطارهم واختلاف لغاتهم وتباين أجناسهم ، وانتهاكُ حرمة مسلم أو أرض إسلامية في مكان هو عدوان عليهم جميعاً ، يجب عليهم التناصر على دفعه وإغاثة المظلوم الأقرب فالأقرب ، حتى إذا لم يندفع العدو إلا باجتماعهم جميعاً تعين عليهم ذلك ، وهذا من أعظم ما يقلق أعداء الإسلام ، ويحاولون جاهدين تمزيق قضايا المسلمين بين أجناسهم ودولهم ، كما اصطنعوا هم تلك الحدود الفاصلة بين أجزاء الأمة الواحدة حتى يقاتل بعضهم بعضاً ، وهذه الروح التي تشعر المسلمين بحقيقة جسدهم الواحد كما بينه الرسول ﷺ من أعظم ما يقوى قلوبهم في مواجهة عدوهم ، وما أثر مشاركة المسلمين إخوانهم في أفغانستان والبوسنة وغيرها في إحياء قضاياهم وبث روح الصبر والثبات في صفوفهم بخافٍ على أحد ، بل ظاهرٌ للولي والعدو ، مما جعل همة الأعداء منصبة على قتل هذه الروح ، ومحاولة إذهابها من نفوس المسلمين ، إذ هي تقف حجر عثرة في مواجهة مخططاتهم خاصةً أعداء الله اليهود ومن والاهم من النصارى والمشركين ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ بينت الآيات السابقة شدة حرص النبي ﷺ على إيمان الناس ، وبينت معجزات باهرة وآيات بينة له ﷺ تقتضي إيمانهم ، ومع ذلك فأكثرهم لا يؤمن ، فكانت

---

(1) صحيح : رواه النسائي (٤٧٣٤، ٤٧٣٥) ، وأبو داود (٣٧٥١) ، وابن ماجة (٢٦٨٣) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٦٦) .

هذه التسلية لرسول الله ﷺ ، فالآيات التي جاء بها واضحةٌ جليةٌ ، ولكن كم من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ، فكذلك إعراضهم عن ما حدثتهم به من آيات الله في الكون ، الآفاقية منها والنفسية : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] من لم ينتفع بها ويتعظ بها لم ينتفع بالمعجزات الحسية ، فآيات الله في خلق الإنسان من الماء المهين ، وتحوله في أطوار خلقه إلى أن يصبح إنساناً أعظم من تحول العصا إلى حية ، وخلق السماوات والأرض وطلوع الشمس كل يوم من مشرقها إلى مغربها أعظم من خروج اليد بيضاء للناظرين ، ولذا بدأ موسى عليه السلام بالآيات الكونية قبل المعجزة الحسية فقال : ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الدخان : ٧] ، وقال : ﴿ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات : ١٢٦] ، وقال : ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٨] ، ولمّا أعرضوا عن هذه ، أعرضوا عن كل المعجزات الحسية بعدها ، فمن أراد أن يؤمن فتكفيه آيات الله في السماوات والأرض إن كان موقناً بشيء ، ومن أراد الإعراض فسيعرض عن كل الآيات .

والقرآن هو الذي يدلنا على هذه الآيات الكونية والنفسية بأوضح دلالة ينتظمها انتظاماً ، ويُوقظ في قلب الإنسان الوعي لما حوله من الأدلة ، ويُحيي في قلبه الفهم والتدبر لحقيقة الحياة والوجود والموت وما بعده والهدف من وجوده في الحياة وعلاقة الدنيا بالآخرة وسائر معاني الإيمان ، فيستنير ويشرق الحق فيه ، فمن أعرض عنه فلابد أن تكون له المعيشة الضنك والشقاء والتعاسة في الدنيا والآخرة .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السماوات والأرض من كواكب زاهرات ، ثوابت وسيارات ، وأفلاك دائرات والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج

متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات) أ. هـ .



التحذير من الشرك

قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

فطر الله ﷻ العباد على الميل إليه وإلى توحيده وذوق حلاوة ذلك والراحة به ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] ، والحنيف هو : المائل إلى الله المعرض عن غيره ، كما قال النبي ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ »[1] ، وهم كذلك مفطورون على كراهية الشرك والتألم به ووجد مرارته وهمه والضيق به ، ومع ذلك ، ومع بيان الرسل الكرام ، أكثر الخلق أشركوا بالله وتحملوا أفظع الألم ، ألم الانقطاع والبُعد عن محبة الله – سبحانه – ، وذاقوا مرارة الباطل واستمروا على تجرعها ، كيف حدث ذلك ؟ وكيف خدعهم الشيطان حتى أشقاهم هذا الشقاء مع ما ينتظرهم من العذاب الأبدي والشقاء السرمدي ؟

إنها الطريقة الإبليسية القديمة المتكررة التي استعملها مع الأبوين حين قاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فأظهر تعظيم الله بالقسم به ليخدعهما ، فلبّس الحق بالباطل ، وهكذا خدع قوم نوح ﵇ ، فلبّس حق حب الصالحين واتباعهم بباطل الغلو فيهم وإطرائهم فوق منزلة العبودية ، وهكذا خدع أهل الكتابين اليهود والنصارى من قبلنا ، فلبّس حق حب الأنبياء واتباعهم بباطل الغلو فيهم بعبادتهم من دون الله وكذا الأحبار والرهبان .

فإن الباطل لا يمر إلا بشيء من الحق يذهب مرارته ويسوغه للناس ، فالباطل المجرد لا يقبله البشر ولا يتحملونه ، لابد أن يمزج بشيء من الحق ، السم مرٌّ فظيع الطعم لا يقبله أحد حتى يوضع في العسل ، فلنتنبه جيداً لهذه المسألة لأن أكثر الناس

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥) ، ومسلم (٢٦٥٨) ، والترمذي (٢١٣٨) ، وأبو داود (٤٧١٤) .

يستجيبون للباطل لوجود حق معه ، وأهل النفاق بضاعتهم في هذا السوق رائجة ، فهُم العدو الذين يجب أن نحذرهم لأجل هذه المسألة ، فحق إظهار التوحيد ممزوج بفتن شبهاتهم وشهواتهم وأمراضهم ، التي بها صاروا دعاةً على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها ، وهم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا ، قلوبهم قلوب شياطين في جثمان إنس ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ .

في هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى أن أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا مع شركهم به ، قال ابن كثير - رحمه الله - : (قال ابن عباس : من إيمانهم : أنهم إذا قيل لهم من خلق السماوات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله ، وهم مشركون به ، وكذا قال مجاهد ، وعطاء وعكرمة ، والشعبي وقتادة ، والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، وفي الصحيح : أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك ، قال رسول الله ﷺ : « قَدْ قَدْ » أي : حَسْب لا تزيدوا على هذا ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] وهذا هو الشرك الأعظم ، وهو أن يعبد مع الله غيره ، كما في الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بنِ مَسْعُود ﷺ قَالَ : سَأَلتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله ؟ ، قَالَ : « **أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** »[1] ، وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ قال : (ذلك المنافق يعمل - إذا عمل رياء الناس - وهو مشرك بعمله ذلك) يعني قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [النساء : ١٤٢]) أ . هـ .

وهذا القول في تفسير الآية أنه الشرك الأكبر هو الظاهر في سبب نزولها ووقته ، إذ السورة مكية والخطاب عن المشركين المعرضين عن آيات الله في السماوات والأرض

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧ ، ٦٠٠١ ، ٦٨١١ ، ٧٥٢٠) ، ومسلم (٨٦) ، والترمذي (٣١٨٢) ، والنسائي (٤٠١٣) ، وأبو داود (٢٣١٠) .

المكذبين لرسول الله ﷺ ، وعلى ذلك فإيمانهم الذي آمنوا - من الإقرار بخلق الله للسماوات والأرض وخلقهم هم - قد حبط وبطل لاقترانه بالشرك الأكبر ، قال تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر : ٥٦-٥٧] ، فالشرك يحبط الإيمان والعلم ، لا يُقبل معه إقرار ولا اعتراف ولا عمل ، ومن الشرك الأكبر النفاق الأكبر كما فسره به الحسن ، وهو داخل في عموم الآية وإن لم يكن موجوداً وقت نزولها .

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذا الإيمان لا أثر له ولا يثاب صاحبه عليه لأن الشرك أبطله وأحبط أثره ، وشرط انتفاع الإنسان بأصل الإيمان بقاؤه وعدم حبوطه بالشرك الذي قامت به عليه الحجة ، وهذا مثل معرفة إبليس وإقراره بأن الله خلقه وخلق آدم ، وأنه يبعث الناس يوم القيامة ، وأنه الذي يُحيي ويميت ويُنْظِرُ من شاء : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤] ، ومع ذلك فهو أشد الخلق كفراً ، وكذا يقين فرعون وآله بآيات الله التي جاء بها موسى عليه السلام ، وعلمهم بأنها نزلت من عند الله ، ومع ذلك لوجود الإباء والاستكبار والجحد الظاهر لم ينفعهم اليقين والعلم الباطن ، وفي هذا أوضح رد على الجهمية وغلاة المرجئة القائلين : إن الإيمان هو المعرفة ، وجوزوا أن يكون الإنسان ناطقاً بالكفر فاعلاً للشرك وهو في حقيقة الأمر مؤمن ، بل كامل الإيمان عندهم .

ولو التزم أحدٌ منهم إيمان إبليس وفرعون وقومه لكان كافراً خارجاً من الملة بإجماع أهل العلم ، فإن كفر هؤلاء معلوم من الدين بالضرورة ، فالشرك الأكبر لا يجامع أصل الإيمان النافع في القلب ، بل لا يجامع شيئاً من الإيمان إلا على سبيل الإحباط ، وإذهاب الأثر كالعدم وإن لم تزل من القلب المعرفة بالكلية ، بل ولو لم يزل نطق اللسان بالتوحيد كالنفاق الأكبر كما ذكرنا ، وبالتالي فلا يجوز بحالٍ أن يطلق اسم الإيمان على من لبس إيمانه بالشرك الأكبر الذي قامت به الحجة .

وهذا القيد - وهو قيام الحجة - إنما ذكرناه لأن أدلة الشرع كتاباً وسنةً وإجماعاً دلت على أن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة ، وأن من ارتكب شيئاً من الكفر أو الشرك مخطئاً من غير قصد كالذي قال : (اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)[1] كما ذكره النبي ﷺ ، أو ناسياً من غير ذكر (كمن نسي آية من القرآن غير متذكر لها) ، أو إكراهاً من غير اختيار لقوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [النحل : ١٠٦] ، أو جاهلاً من غير بلاغ الحجة لقول الله تعالى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، أو متأولاً تأوُّلاً يعذر فيه لعدم مخالفة المعلوم من الدين بالضرورة في حقه كفعل الصحابة الذين شربوا الخمر مستحلين لها تأويلاً باطلاً لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : ٩٣] ، فلم يكفرهم عمر رضي الله عنه ، بل أقام عليهم الحجة ثم جلدهم الحد لما أقرّوا بالحق ، وكذا من وقع منه الشرك ، صغيراً غير بالغٍ ، أو مجنوناً غير عاقلٍ ، أو نائماً غير مستيقظٍ ، فكل هؤلاء من وقع منه شركٌ أكبر قد قام به أحد هذه الموانع ، وكان عنده أصل الإيمان والإقرار بقلبه ولسانه ، وفي قلبه الانقياد للشرع لو علمه أو ذُكِّرَ به أو نحو ذلك من زوال الموانع ، لم يكفر ولم يحبط أصل إيمانه ، وكان حكمه كحكم أهل الكبائر المستحقين للعقاب إن قصروا في طلب العلم الواجب عليهم ، لكن لم تقم عليهم الحجة التي يكفر منكرها ، ولم ينقضوا أصل الشهادة بالإقرار بعبادة غير الله ، وهذا فرقٌ مهمٌ جداً بين مشركي العرب ونحوهم ممن حكم القرآن عليهم بالشرك والكفر وكذا السنة والإجماع ، وبين من يقع في الشرك من المنتسبين للإسلام - وهذا الفرق خفي على كثير من المتأخرين - ، وهو أن مشركي العرب وغيرهم يقرون على أنفسهم بعبادة غير الله والشرك به ، وأنهم يتخذون مع الله آلهةً يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ، فهؤلاء زال منهم أصل التوحيد حتى لو لم تصلهم الحجة ولم تبلغهم دعوة

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٧) .

الرسل ، وإن حدث ذلك فهم كفار غير معذبين في الآخرة حتى يُمتحنوا بالأمر بدخول النار ، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن لم يدخلها سُحب إليها ، كما دَلَّتْ عليه أحاديثُ الامتحان الثابِتَةُ الصحيحةُ [1] ، وأما من يقع في الشرك من المسلمين اليوم فهم لا يُقرِّون بعبادة غير الله ، ولا يدرون أنهم بفعلهم الشرك يتخذون الأنبياء والأولياء وأصحاب القبور آلهة من دون الله أو مع الله ، وإذا قلت لهم : أتعبدون غير الله ؟ نفروا من ذلك أعظم النُفرة ، ولو سألتهم عن إلههم ، لأجابوا بأنه الله لا إله إلا هو ، فهذا الجهل الناشئ عن عدم بلاغ الحجة لهم يمنع من تكفيرهم كأعيان وإن كانت أفعالهم شركية فإذا أقيمت الحجة وأزيلت الشبهة لزمهم حكم الشرك وحبط إيمانهم بما اعتقدوا أو قالوا أو فعلوا من الشرك والكفر وهذا بخلاف النوع الثاني من الشرك وهو الشرك الأصغر ، وهو داخل أيضاً في عموم الآية وإن كان مخالفاً لسبب نزولها ووقته كما ذكرنا ، ويختلف أيضاً حكم إيمان من ارتكبه فإنه لا يحبط إيمانه بالكلية ولا يخلد في النار بل حكمه حكم أصحاب الكبائر من أهل القبلة حتى ولو كان من ارتكبه قد قامت عليه الحجة .

فالرياء محرم بالكتاب والسنة والإجماع ، والحجة قائمة به على أكثر الخلق ، ومن ارتكبه بعد قيام الحجة - في غير النطق بكلمة التوحيد - لا يكفر بل بنص رسول الله ﷺ هو الشرك الأصغر حيث قال : « **أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ** » ، قَالُوا : (وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ الله ؟) ، قَالَ : « **الرِّيَاءُ** » [2] .

ولكن يحبط عمله الذي راءى به ولا تحبط كلمة التوحيد ، وأما إذا راءى بكلمة التوحيد فهذا النفاق الأكبر المخلِّد في النار والعياذ بالله ، وقد ذكر السلف في عموم هذه الآية أنواعاً من الشرك الأصغر واستدلوا بالآية على تحريمه ومنعه تغليظاً وتشديداً ، ولأن من فعله فقد شابه المشركين في بعض أفعالهم وصفاتهم فيستحق شيئاً من عقابهم

---

(١) صحيح : رواه أحمد (١٥٨٦٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٨١) .

(٢) صحيح رواه أحمد (٢٣١١٩ ، ٢٧٧٤٢) عن محمود بن لبيد ، وصححه الألباني في صحيح (١٥٥٥) .

وإن كان لا يلزم أنه يعاقب بكل عقابهم فهو يستحق دخول النار ولا يخلد فيها ، فمجامعة الشرك الأصغر لأصل الإيمان لا تحبطه بالكلية ، ولذا يمنع أصل الإيمان الخلود في النار فهو ينتفع بعض النفع لا النفع التام ، ويزول عنه الإيمان الكامل وجوباً ، الذي يستحق صاحبه دخول الجنة لأول وهلة .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (وثَم شركٌ آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال : « دخل حذيفة ﷺ على مريض فرأى في عضده سيراً – أي قطعة جلد – فقطعه – أو انتزعه – ثم قال : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [1] ، وفي الحديث : « **مَنْ حَلَفَ بغيرِ الله فقد أشْرَكَ** » [2] ، وفي الحديث الآخر قال رسول الله ﷺ : « **إن الرُّقى والتمائِمَ والتِوَلَةَ شِرْكٌ** » [3] [والتولة شيء من السحر يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته] ، وفي رواية أخرى قال رسول الله ﷺ : « **الطِّيَرَةُ شِرْكٌ وَمَا مِنَّا إِلَّا ، وَلَكِنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ** » [4] [يعني وما منا إلا مَن وقع في قلبه شيء من ذلك] .

ورواه الإمام أحمد عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ الله بن مسعود ﷺ ، قَالَتْ : كَانَ عَبْدُ الله إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَانْتَهَى إِلَى البَابِ تَنَحْنَحَ وَبَزَقَ ؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَهْجُمَ مِنَّا عَلَى شَيْءٍ يَكْرَهُهُ ، قَالَتْ : وَإِنَّهُ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَتَنَحْنَحَ ، قَالَتْ : وَعِنْدِي عَجُوزٌ تَرْقِينِي مِنْ الحُمْرَةِ ، فَأَدْخَلْتُهَا تَحْتَ السَّرِيرِ ، فَدَخَلَ فَجَلَسَ إِلَى جَنْبِي فَرَأَى فِي عُنُقِي خَيْطًا ، قَالَ : مَا هَذَا الخَيْطُ ، قَالَتْ : قُلْتُ : خَيْطٌ أُرْقِيَ لِي فِيهِ ، قَالَتْ : فَأَخَذَهُ فَقَطَعَهُ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ آلَ عَبْدِ الله لَأَغْنِيَاءُ عَنْ الشِّرْكِ ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ** » ، قَالَتْ : فَقُلْتُ لَهُ : لِمَ تَقُولُ هَذَا وَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْذِفُ فَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى فُلَانٍ اليَهُودِيِّ

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره وسكت عنه .

(٢) صحيح : رواه أبو داود (٣٢٥١) ، وأحمد (٥٣٥٢) ، والترمذي (١٥٣٥) بلفظ فقد كفر أو أشرك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠٤) .

(٣) صحيح : رواه أبو داود (٣٨٨٣) الطب ، وابن ماجة (٣٥٣٠) ، وأحمد (٣٦٠٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٣٢) .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجة (٣٥٣٨) ، وأحمد (٣٦٧٩) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٦٠) .

يَرْقِيهَا وَكَانَ إِذَا رَقَاهَا سَكَنَتْ ، قَالَ : إِنَّمَا ذَلِكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ كَانَ يَنْخُسُهَا بِيَدِهِ فَإِذَا رَقَيْتِهَا كَفَّ عَنْهَا ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكِ أَنْ تَقُولِي كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَذْهِبْ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي ، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا** »[1] .

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد عَنْ عِيسَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، قَالَ : دَخَلْنَا عَلَى عَبْدِ الله بْنِ عُكَيْمٍ وَهُوَ مَرِيضٌ نَعُودُهُ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ تَعَلَّقْتَ شَيْئًا ، فَقَالَ : أَتَعَلَّقُ شَيْئًا وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ « **مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ** »[2] . وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ** »[3] ، وفي رواية : « **مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ** »[4] ، [يعني : لا أتم الله له خيراً ولا ترك الله له خيراً] ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ** »[5] .

وَعَنْ أَبِي سَعْيدِ بْنِ أَبِي فَضَالَةَ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولُ الله ﷺ يَقُول : « **إِذَا جَمَعَ الله الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، نَادَى مُنَادٍ : مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لله فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله فَإِنَّ الله أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ** »[6] .

وروي الإمام أحمد عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ** » ، قَالُوا : (وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ الله ؟) ،

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٣٦٠٤) ، وأبو داود (٣٨٨٣) مختصراً ، وابن ماجة (٣٥٣٠) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٥٥) .

(٢) ضعيف : رواه أحمد (١٨٣٠٤) ، والترمذي (٢٠٧٢) ، والنسائي (٤٠٧٩) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٠٢) وضعفه في غاية المرام (٢٨٨) .

(٣) صحيح : رواه احمد (١٦٩٦٩) ، عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٩٤) .

(٤) ضعيف رواه أحمد (١٦٩٥١) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٧٥٠٣) ، وفي السلسلة الضعيفة (١٢٦٦) .

(٥) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجة (٤٢٠٢) بنحوه .

(٦) صحيح : رواه الترمذي (٣١٥٤) ، وابن ماجة (٤٢٠٣) ، وأحمد (١٥٤١١) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٢) .

قَالَ : « **الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا ، فَانْظُرُوا ، هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً ؟** »[1] .

وروى الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ فَقَدْ أَشْرَكَ** » ، قَالُوا يَا رَسُولَ الله : مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ ، قَالَ : « **أَنْ يَقُولَ : أَحَدُهُمْ اللهمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ** »[2] .

وروي الإمام أحمد عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ الله بْنُ حَزْنٍ وَقَيْسُ بْنُ المُضَارِبِ فَقَالَا : وَالله لَتَخْرُجَنَّ مِمَّا قُلْتَ أَوْ لَنَأْتِيَنَّ عُمَرَ مَأْذُونٌ لَنَا أَوْ غَيْرُ مَأْذُونٍ ، قَالَ : بَلْ أَخْرُجُ مِمَّا قُلْتُ ، خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَقَالَ : « **أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ** » ، فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ : وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **قُولُوا اللهمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ** »[3] ، وقد رُوِيَ من وجه آخر ، وفيه أن السائل في ذلك هو الصدّيق ، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن معقل بن يسار ، قال : شهدت النبي ﷺ أو قال : حدثني أبو بكر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **الشِّرْكُ أَخْفَى فِيكُم مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ** » ، فقال أبو بكر : وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلهاً آخر ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : « **الشِّرْكُ فِيكُم أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ** » ، ثم قال : « **أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى مَا يُذْهِبُ عَنْكَ صَغِيرَ ذَلِكَ وَكَبِيرَه ؟ قُلْ اللهم إِنِي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وأَنَا أَعْلَمُ ، وَأَسْتِغْفِرُكَ بِما لا أَعْلَمُ** »[4] ، وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي عن أبي بكر الصديق ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **الشِّرْكُ أَخْفَى فِي أمتي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا ، أي : عَلَى الصَّخْر** » ، قال : فقال أبو بكر : يا رسول الله ، فكيف النجاة والمخرج من ذلك ؟

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٨٣) .

(٢) صحيح : رواه أحمد (٧٠٠٥) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٦٤) .

(٣) صحيح : رواه أحمد (١٩١٠٩) ، وذكره ابن كثير في تفسيره وسكت عنه (٢ / ٩٦) .

(٤) صحيح : رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده (٥٨) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٣١) .

فقال : « **أَلَا أُخْبِرُكَ بِشَيءٍ إِذَا قُلته بَرِئْتَ مِنْ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ وَصَغِيرِهِ وَكَبِيرِهِ ؟** » ، قال : بلى يا رسول الله ، قال : « **قُلْ : اللهم إِنِي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وأَنَا أَعْلَمُ ، وَأَسْتغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ** » [1] ، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : يَا رَسُولَ الله عَلِّمْنِي شَيْئًا أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ وَإِذَا أَخَذْتُ مَضْجَعِي ، قَالَ : « **قُلْ اللهمَّ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ** » [2] ، وفي زيادة عند الإمام أحمد « **وأنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءاً أو أَجُرَّهُ إلى مُسْلِمٍ** ») ا . هـ . بتصرف يسير .

يتحصل من الأحاديث التي نقلها الإمام ابن كثير - رحمه الله - في الشرك الأصغر أنواع منها :

١ - تعليق السير أو ربط الخيط أو تعليق الودع ونحوها من الأشياء وكذا التمائم .

٢ - الحلف بغير الله .

٣ - الرُّقَي المحرمة والمجهولة والتِوَلَةُ وهي - كما ذكرنا - من جنس السحر يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته .

٤ - الطيرة : وهي التشاؤم (ومثله : التفاؤل) بالطيور (ومثلها : الأرقام وبعض الحيوانات والنباتات ، كمن يتشاءمون برقم ثلاثة عشر أو يتفاءلون بالحمامة أو يتشاءمون من البومة أو يتفاءلون بنجمة البحر أو قرن الفلفل أو بنحو ذلك) ويستثنى من ذلك الفأل بالكلمة الطيبة وليس بغيرها .

٥ - الرياء : وهو طلب رؤية الناس لعمله الصالح (ومثله السمعة وهو طلب

---

(١) صحيح : رواه البغوي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٣١) .
(٢) صحيح : رواه الترمذي (٣٣٩٢) ، وأبو داود (٥٠٦٧) ، وأحمد (٥٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨١٣) .

سماعهم لعمله) وطلب أعراض الدنيا بعمل الآخرة ، كطلب الأموال أو الرياسة أو نحوها ، ولا بد هنا من الانتباه إلى أنه وإن كان الغالب على هذه الأنواع الشرك الأصغر الذي لا يُخرج من الملة ، إلا إنه أحياناً يكون الشرك الأكبر ، وذلك بأن يعتقد في الشيء المعلق من خيط أو حلقة أو نحوه من التمائم أنها تنفع و تضر بذاتها من دون الله أو مع الله ، فيكون شركاً أكبر في الربوبية ، ويكون تعليقها لجلب نفعها أو لتدفع هي الضرَّ عنه شركاً في الألوهية ، والعياذ بالله .

وكذا إذا اعتقد أن الطيور تأتي بالخير أو بالشر بذاتها من دون الله أو مع الله ، فهذا شركٌ أكبر في الاعتقاد ، أما إذا اعتقد أن هذه الأشياء أسباب أو علامات على حصول الخير أو الشر أو الضر أو النفع من عند الله ، فهذا شركٌ أصغر ، لأنه كذب على الشرع وكذب على القدر ، لأن هذه الأشياء لم يدل دليل شرعي على كونها أسباب أو حتى علامات ، واعتقاد أنها أسباب أشد من اعتقاد أنها علامات ، ولا دليل كونيًّا قدريًّا من التجربة الظاهرة على ذلك ، أما ادعاء تجربة خفية فلا تثبت الأسباب بالتجربة الخفية ، فإن الأسباب الخفية غير الظاهرة لا يصلح في اعتبارها أسباباً إلا دليل شرعي ، وكل هذه ذريعة إلى الشرك الأكبر فيكون شركاً أصغر ، ومن هذا ما انتشر عند الناس من لبس حلقة مغناطيسية يزعمون أنها تعالج بعض الأمراض ، وإن حاول البعض أن يثبت لها سببية ظاهرة ، وهو عند أهل الخبرة نوع من الدجل والخداع ما لم يثبت هذا الأمر بالتجربة الظاهرة لا مجرد دعوى السببية فلا يقبل ، فيكون من النوع المحرم ، والله أعلم [1] .

والحلف بغير الله الغالب عليه أنه يجري على اللسان من غير قصد تعظيم المحلوف به كتعظيم الله ، وإن كان مجرد الحلف بالمخلوق نوع التعظيم ، إلا إنه إذا كان يعظمه كتعظيم الله أو أشد فهو شركٌ أكبر ، كمن يُقال له احلف بالله فيحلف كاذباً ، فإذا قيل له احلف بالصليب أو المسيح أو الشيخ الفلاني تلعثم وامتنع وأقرَّ بالحق ،

---

(١) راجع كتاب (فضل الغني الحميد) فصل : بيان أنواع الشرك .

وكالذي يتوجه له على خصمه اليمين فيعرض الخصم الحلف بالله ، فيقول لا أقبل الحلف بالله حتى يحلف بصاحب القبر الفلاني وعند قبره ، فيقسم بحق هذا الغالب الطالب (يعني أن صاحب القبر سوف يغلب من يحلف به كاذباً وسوف يطلب الحق منه) ، فهذا من الشرك الأكبر بلا شك ، لأنه يعظمه أشد من تعظيمه لله ﷻ ، ويعتقد فيه أنه ينتقم ممن حلف به كاذباً أشد من انتقام الله وعقوبته لمن حلف به كاذباً .

وأما الرقي فإذا كان يعتقد أنها تنفع بذاتها فإنها شركٌ أكبر ، وإذا كان فيها كلام مجهول أو توسلات بدعية محرمة ، فهي شرك أصغر ، وأما إذا كانت الرقي بالأدعية الصحيحة والتوسلات الشرعية لله بأسمائه وصفاته وباللغة العربية أو بما يُعرفُ معناه من غيرها ، وهو يعتقد أن الله ﷻ هو الشافي النافع الضار ، فهي مشروعة جائزة مستحبة في حق الراقي ، والأولى للإنسان أن لا يطلب الرقية من غيره تكميلاً للتوكل ، وسبق بيان أن الرياء في النطق بكلمة الشهادة شرك أكبر ، وفيما دونها شرك أصغر ، والله أعلم .

فائدة : حكم الشرك الأصغر حكم الكبائر عند جماهير أهل العلم ، وإن كان من أغلظها كما روي عن ابن مسعود ﷺ : (لأن أحلف بالله كاذباً أهون عليَّ من أحلف بغيره صادقاً) ، وعلى هذا فصاحب الشرك الأصغر في المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له ، وربما كانت الحسنات الماحية والمصائب المكفرة والاستغفار ماحياً لهذا الشرك ، والقول بالموازنة بين الحسنات والسيئات هو الذي تجتمع به الأقوال ، بخلاف الشرك الأكبر فلا يوازنه شيء ولا يمحوه شيء إلا التوبة منه ، ما دام قد قامت على صاحبه الحجة كما ذكرنا .

وشذَّ شيخ الإسلام ابن تيمية فقال إن الشرك الأصغر لا يُغفر ، بمعنى أنه لا بد أن يعذب صاحبه وإن لم يخلد في النار ، وهو قول مردود بالأحاديث الصحيحة التي ذكرها ابن كثير - رحمه الله - ، وسبق نقلها عن مشروعية الاستغفار من هذا الشرك

الأصغر ، على الرغم من عدم العلم والشعور به اللازم في التوبة ، فقول النبي ﷺ : « قُلْ : اللهم إِنِي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وأَنَا أَعْلَمُ ، وَأَسْتغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ »[1] ، دليلٌ واضح على أن الاستغفار مما لا يعلم يمكن أن يذهبه وأن يغفره الله ، ونصوص السنة وأقوال السلف أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] هو الشرك الأكبر ، كما قال رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة : « حَـتَّى مَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ »[2] .

وإنما وجب الخلود على المشركين شركاً أكبر بهذه الآية ، فلا يصح أن يقال بوجود عمل (هو الشرك الأصغر عند شيخ الإسلام ابن تيمية) داخل في عموم الآية ، ثم صاحبه لا يخلد في النار ، بل الصواب أن الشرك الأصغر داخل في عموم قوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] ، والشرك إذا أُطْلِقَ قُصد به الأكبر إلا بدليل ، أو نقول هو يعم الأكبر والأصغر ، لكن إذا خص الدليل الأكبر فيخرج منه الأصغر ، فالآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] يقصد بها الأكبر بدليل السنة المذكور وكلام السلف فيها ، والله أعلى وأعلم .



(١) سبق تخريجه ص (٢٨٧) .
(٢) رواه البخاري (٧٤٤٠) .

التحذير من الأمن من مكر الله

قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

ينكر تعالى على من أمن مكره وعذابه مع تلبسه بما يستوجبه من الكفر والمعاصي ، فقال : ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ ﴾ أي : أمرٌ يغشاهم من عذاب الله ، ﴿ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي : القيامة ، ﴿ بَغۡتَةٗ ﴾ أي : فجأة ، ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ ، ولأن الموت يفضي بالعبد إلى الآخرة وما فيها ، وشعوره ببقائه في القبر إذا قام من القيامة كأنها ساعةٌ ، لهذا سمّى رسول الله ﷺ الموت ساعة الإنسان ، فقال لمن سأله عن وقت قيام الساعة « إِنْ يَعِشْ هَذَا [الغُلَامُ] لَمْ يُدْرِكْهُ الهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ »[1] ، وإنما أراد انخرام ذلك القرن ، أي : موت ذلك الجيل ، وقد تكرر في القرآن والسنة التحذير من الأمن من مكر الله ، قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ٤٥ - ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٧ - ٩٩] ، وفي حديث ابن مسعود : « مِنْ الكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِاللهِ ، والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ ، والقُنُوطُ مِن رحمةِ الله ، واليَأْسُ من رَوْحِ الله »[2] . والأمن من مكر الله وعقابه يلزم منه زوال الخوف من القلب ، ولو زال بالكلية لزال الإيمان بالكلية لقوله تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] ، ولو نقص نقص

---

(١) رواه البخاري (٦٥١١) ، رواه مسلم (٢٩٥٢) .

(٢) تقدم تخريجه ص (٢٣١) .

الإيمان ، ولو تأمل العاقل حقيقة حياته وموته وأنه في الأرض أو في السماء لا يملك شيئاً لنفسه ، ولا يملك شيئاً من الكون حوله في نومه ويقظته ، وأن الموت يأتيه بغير اختياره ، أيقن أنه لا يأمن مكر الله وعذابه إلا خاسر مغبون مغرور جاهل ، نعوذ بالله أن نأمن مكره ، ونسأله ﷻ أن يؤَمِّنَنا من عقابه وعذابه بفضله ورحمته .



قال تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

فمعناه أن من اتبعني يدعو أيضاً إلى الله على بصيرة ، وقيل : أنا ومن اتبعني على بصيرة ، وعلى كلا الوجهين ، فالآية تدل على وجوب الدعوة إلى الله ﷻ ، وأن البصيرة من الفرائض . وفي قوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ ﴾ تنبيهٌ على أن التوحيد تنزيه لله عن المسبَّة - إذ الشرك مسبةٌ لله تعالى - وهو أول ما يدعى إليه .

وقوله تعالى : ﴿ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ مع قوله : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فيه تنبيهٌ على الإخلاص ؛ لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الله فهو يدعو إلى نفسه .

وهذه الآية الكريمة فيها بيان جملة من أصول الدعوة إلى الله ما أحوج الدعاة إلى الله إلى معرفتها والعمل بها ، وإليك بعض ما تضمنته هذه الآية من أصول الدعوة الصحيحة :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ ، انظر كيف وحد السبيل إليه وهو سبيل الرسول ﷺ ، لأن طريق الحق واحد لا تفرق فيه ولا اختلاف ، بخلاف سُبل الباطل ، فإنها كثيرة متنوعة على رأس كل منها شيطان يدعو إليه ، ويقود أتباعه إلى النار ، وهكذا يجب أن يكون كل الدعاة إلى الله في طريق واحد ومنهج واحد ، هو الإسلام الحق الذي بُعث به رسول الله ﷺ ، وكان عليه الصحابة والسلف - رضي الله عنهم - ، وهو الذي تميز عن طرق البدع والضلالة التي كثرت وافترقت ، كما قال رسول الله ﷺ : « **إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ**

وَسَبْعِينَ مِلَّةً [يَعْنِي الْأَهْوَاءَ] كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ » (١)، وقال ﷺ : « **وَسَتَرَوْنَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلَافًا شَدِيدًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ** » (٢).

فأصحاب الحق هم أهل السنة والجماعة ، ومنهجهم الواضح لا يجوز أن يفترق بين الناس ، أو يبتعدوا عنه ، والتعدد الحاصل بسبب اختلاف المنهج - بين موافق ومخالف لطريقة السلف - تعدد مذموم ، وشرٌ على الدعوة والدعاة وتفرقةٌ للقلوب ، وبثٌّ للضغينة والحسد ، والغِيبة والنميمة ، وإنما يتحمل وزر ذلك أهل البدع الذين خالفوا سبيل الحق الواحد ، ثم على أهل السنة والجماعة في كل قطر من الأقطار ، بل في كل مكان أن يكونوا معاً في هذه السبيل ، هكذا كان رسول الله ﷺ وصحابته أمة واحدة ، وطائفة واحدة متعاونين على البر والتقوى ، كما أمرهم الله ، فما بال كثير من الناس اليوم يُحبذ الفُرقة ، وهو يعلم ما عليه المسلمون من تضييع الواجبات العينية والكفائية ؟! ولا شك في عجز الأفراد عن القيام بهذه الواجبات ، مع تباعدهم وتفرقهم ، وعدم انتظامهم في سلك واحد ، ولا تقوم دعوة من الدعوات - ولا عُلِم في سنة الله الكونية ولا الشرعية دعوة قامت - بغير تعاون ، ووحدة ، وائتلاف ، فكيف يتسنى لأهل منهج الحق أن يتفرقوا أو يكون غيرهم أحرص على الاجتماع منهم ؟! نسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين .

وفي قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فيه نسبة هذه الدعوة إلى الله تعالى ، وما أشرفها من نسبة ، ولكن لا يتحقق هذا الانتساب فتكون الدعوةُ دعوةً ربانية ، حتى تكون ربانية في أصلها ومصدرها ، وفي طريقها ومنهجها ، وفي غايتها ومقصدها : ففي

(١)صحيح : رواه أبو داود (٤٤٢٩) ، وأحمد (٤ / ١٠٢) ، وابن ماجة (٣٩٩٣) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٤٢).

(٢)صحيح : رواه أبو داود (٤٤٤٣) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجة (٤٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٦).

الأصل والمصدر يجب أن تكون ربانية : بأن ترجع إلى الوحي المنزل من عند الله كتاباً وسنّة ، فإن نقاء الأصل يؤثر في نقاء الثمر وصحته وقوته ، قال تعالى : ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام : ١٠٦] ، وقال تعالى : ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف : ٣] ، وقال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء : ١١٣] .

وأما الدعوات التي تتخذ من المناهج الكلامية ، أو الطرق الفلسفية ، أو آراء الرجال ، أو تحكمات العقول ... مصدراً ، فهي لا تستحق أن تكون دعوات ربانية .

وأما الطريق والمنهج والوسائل : فلابد أن تكون ربانية كذلك على منهج الأنبياء ، فالغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة بل الوسيلة من عند الله ، كما أن الغاية إليه وحده ، وسيرة الرسول ﷺ ، وسيرة من قبله من الأنبياء فيها البيان لوسائل الدعوة ، وطريقها ، وما يُقَدَّم ، وما يُؤخر ، وما هي موازنات المصالح والمفاسد ؛ حتى لا تختلط الأمور وتلتبس الأحوال .

وأما في الغاية والمقصد : فلا بد أن يكون المقصد وجه الله تعالى ، والدار الآخرة لا غير ، وذلك من خلال العمل لإعلاء كلمة الله في الأرض ، ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف : ١١٠] ، وليس التمكين في الأرض لطائفة الدعاة بغاية مقصودة لهم ، بل هي من وسائل الدعوة لتحقيق العبودية لله في أكمل صورها ، وهو منّةٌ من الله ليست بيد الدعاة ، ولا من كسبهم ، قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج : ٤١] ، وقد لا يتحقق التمكين ، فلا بأس على الدعاة ؛ لأن وسائل تحقيق العبودية كثيرة والحمد لله ، وإنما المهم أن لا يُقَصِّروا فيما يجب عليهم مما يقدرون عليه ، وأما الدعوات التي تجعل غايتها التسلط على رقاب الناس ، أو الظفر بهم للانتقام ، أو السعي وراء الملك والجاه ، والثروة والراحة ؛ تخلصاً من المطاردة ، والاستضعاف ، والفقر ، والخوف ، فليست بالدعوات الربانية ، والمسلم الرباني عبدٌ لله

في كل أحواله ، وأوقاته فقيراً كان أو غنياً ، مُمكّناً أو مستضعفاً ، مظلوماً في ظلمات السجون أو ملكاً على رؤوس الناس ، فندعو الله - سبحانه - أن يرزقنا الإخلاص ، والعمل الصالح في كل حين .

وهذه الربانية هي من سمات الدعوة إلى الله ، تعطيها من الصفات الأخرى صفة الثبات والاستقرار ، فهي لا تتلون بتلون ما حولها ، ولا تغير جلدها ، ولا رايتها ، ولا ولاءها حسب المصلحة كسائر الدعوات الأرضية ، وتعطيها كذلك صفة الشمول والاتساع ، فليست منحصرة في جانب واحد ، بل تأخذ الدين وتقوم به من جميع جوانبه علماً ، وعملاً ، وسلوكاً ، وخلقاً ، وتعطيها الربانية كذلك صفة العالمية : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٧] فليست منحصرة في بلد ، أو قبيلة ، أو شعب ، أو طائفة ، بل هي دعوة للإنس والجن إلى يوم القيامة ، وكذلك تعطيها الربانية صفة الواقعية ، فهي لا تعيش في الخيال ، ولا تحارب المعارك في الخيال ، بل تبدل الواقع - بإذن الله - إلى ما يوافق الإسلام ، ويرضى عنه الرحمن .

ووصف الرسول ﷺ ومن اتبعه بالدعوة إلى الله ، يدل على لزومها ، ووجوبها ، فكل مسلم يدعو إلى الله حسب علمه وقدرته ، وإن لم يجد سوى نفسه ، فليدعها إلى الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، وقال النبي ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ »[1] .

والدعوة إلى الله فرض كفاية ، إذا قامت به طائفةٌ من الأمة - حتى يوجد المعروف الواجب ويزول المنكر المحرم - سقط الحرج عن الباقين ، وإلا أَثِمَ كل قادرٍ بحسب تقصيره ، سواء أكان قادراً بنفسه أم بالتعاون مع غيره ، فيقصر في هذا التعاون ، أم قادرًا

(١) رواه مسلم (٤٩) ، والترمذي (٢١٧٤) ، والنسائي (١١٧٣٩) الكبرى .

على أن يأمر القادرين وينصحهم بأن يدعو إلى الله فيقصر في ذلك .

ولابد حين نتكلم عن وجوب الدعوة إلى الله أن نعلم أن مشاركة الجميع في الدعوة ليس لحاجة الدعوة إليهم ، بل لأنهم هم الذين في حاجة إلى الدعوة إلى الله ، ودين الله ماض بهم أو بغيرهم ، وهم لا يمضون إلا بدين الله ، وإذا كان الله قال لخير الناس بعد الأنبياء صحابة رسول الله ﷺ : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد : ٣٨] ، فكيف يظن أحد أن الدعوة لا تمضي إلا به ؟ ولهذا فلا يمن أحد من الدعاة على الدعوة ، ولا على إخوانه فيها ولا على الناس بل المنةُ لله وحده .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ فهذا من أهم أسس الدعوة إلى الله ، لأن الدعوة بالجهل تضر أكثر مما تنفع ، والبصيرةُ للقلب كالبصر بالنسبة للعين ، وبالبصيرة يفرق المؤمن بين الحق والباطل ، والسنة والبدعة ، والمصلحة والمفسدة ، ومقام الدعوة : مقام خطر تزل فيه الأقدام ، ويضل فيه أقوام ، والانحراف فيه يمتد خطره أجيالاً ، ويتحمل صاحبه أوزاراً ؛ ولذا كان تحصيل البصيرة من الفرائض على كل أحد ، وعلى الدعاة إلى الله خصوصاً ، لأن قرارهم في كثير من الأحيان يتوقف عليه مصير أمتهم .

ولنذكر نبذة عن أسباب تحصيل البصيرة :

منها - بل هو أصلها - : صدق الإيمان بالله ورسوله ﷺ : قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وهذا مثل المؤمن والكافر ، فنور الإيمان يميز الإنسان به بين الحق والباطل .

ومنها : العلم النافع بما جاء به الرسول ﷺ : قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقال النبي ﷺ : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » (١) ، ولذا كان من

(١) صحيح : رواه ابن ماجة (٢٢٤) ، والطبراني (١ / ١٦) الصغير ، (٩) والأوسط ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩١٣) .

سمات دعوة الحق حرص أفرادها علي طلب العلم ، وملازمتهم لحلقه ، ومتابعتهم لأهله .

ومن هذه الأسباب : العمل بالعلم ، فمن عمل بما عَلِمَ رزقه الله عِلْمَ ما لم يعلم ، وحقيقة التقوى أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تجتنب معاصي الله ، على نور من الله ، تخاف عقاب الله ، والتقوى تقود إلى البصيرة والنور ، قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[البقرة : ٢٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾[الأنفال : ٢٩] .

ومن أسباب تحصيل البصيرة : صدق اتباع السنة ظاهراً وباطناً ، لأن هذا هو تحقيق الإيمان برسول الله ﷺ ومقتضاه ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٨] ؛ وهذا يستلزم تعلم السنة ، وتقديمها في الأصول والفروع على قول كل أحد وهديه ، كما قال ابن القيم – رحمه الله – في شأن الهجرة بالقلب إلى النبي ﷺ : (هي سفر النفس في كل مسألة من مسائل الإيمان ، وحادثة من حوادث الأحكام ، ومنزلة من منازل القلوب ، إلى منبع الهدى ، ومصدر النور المتلقى من فم الصادق المصدوق ﷺ ، فكل مسألة طلعت عليها شمس رسالته ، وإلا فاقذف بها في بحر الظلمات ، وكل شاهد عدّله هذا المزكى ، وإلا فَعُدَّه من أهل الريب والتهمات) أ . هـ . والاتباع من أصول الدعوة إلى الله لا تقوم إلا به .

ومن أسباب تحصيل البصيرة : كثرة تلاوة القرآن ، وفهمه وتدبره ، وحفظه وتعاهده ، والاستدلال به والعمل به ، فبحسب نصيبك من القرآن يكون نصيبك من النور : قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى : ٥٢] .

ومن أسباب تحصيل البصيرة أيضاً : كثرة العبادة – خاصة الصلاة – وإطالة السجود ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق : ١٩] ، فكلما اقترب العبد من ربه استنار قلبه ، وكلما أخلد إلى الأرض ولم يرتفع ، واتبع هواه ... التبس عليه الحق بالباطل ، وترك الحق .

ومنها : الصدق ، والصبر – ومنه الصوم – : قال النبي ﷺ : « **الصَّلَاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ** » [١] فإذا اشتبهت عليك الأمور ، ولم تدر كيف تسير ، فافزع إلى الصلاة ؛ فلقد « **كَانَ النَّبِيُّ** ﷺ **إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى** » [٢]، وأكثِر من الصدقة ، وعليك بالصوم فإنه نصف الصبر .

ومن أسباب تحصيل بصيرة القلب : غض البصر ، وحفظ الفرج ، وتجنب الاختلاط المحرم : فإن أثر هذا النوع من المعاصي – خصوصاً في عمى القلب – معلوم لدى أهل الإيمان ، ألم تر كيف كان قوم لوط عليه السلام قد حان عذابهم وهم كما قال تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] ؟ وتأمل كيف جعل الله أحكام غض البصر ، وحفظ الفرج ، وعقاب الزنى ، وآداب الاستئذان ، والأمر بالحجاب ، وترك الاختلاط ، والأمر بالزواج ، والعفة ، والنهي عن البغاء ، هي في سورة النور التي تتضمن آية النور عقب هذه الأحكام العظيمة ، لذا قال بعض السلف : من غض بصره عن المحارم أطلق الله نور بصيرته .

وقوله سبحانه : ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، قال ابن جرير : « معناه وقل تنزيهاً لله تعالى ، وتعظيماً له ، من أن يكون له شريك في ملكه ، أو معبود سواه في سلطانه » [٣] ا . هـ . وفيه التنبيه على أن أساس الدعوة هو التوحيد ، وأول واجب على المكلف ، وأول واجب في الدعوة ، وعليه يحاسب الناس يوم القيامة هو

(١) رواه مسلم (٢٢٣) ، والترمذي (٣٥١٧) ، والنسائي (٥ / ٥٤) ، وابن ماجة (٢٨٠) ، وأحمد (٥ / ٣٤٢) .
(٢) حسن : رواه أبو داود (١٢٧٤) ، وأحمد (٥ / ٣٨٨) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣) .
(٣) تفسير الطبري (١٣ / ٨٠) .

فأصل الأصول في دعوتنا توحيد الله ، وتنزيهه عن الشريك ، والند ، والصاحبة ، والولد ، والمثيل ، والشبيه ، وكل صفات النقص .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله –[1] : فيه إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك أي : مثل شركهم ، فإن من رضي بالشرك فهو مشرك وإن لم يفعله بنفسه ، ففيه أصل عظيم من أصول الدعوة إلى الله وهو البراءة من الشرك وأهله ، وعدم انتمائه لهم ، ووقوفه تحت رايتهم ، وانتمائه لأحزابهم ، وما أحوج الدعاة إلى هذا الأصل الذي من أجله يعاديهم أعداؤهم ، وإذا لم يحققوه في دعوتهم اختلط الإيمان بالكفر ، والحق بالباطل ؛ فحصل الضلال ، والعياذ بالله !



(١) من مسائله على باب الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله في كتاب التوحيد .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأَخِرَةِ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

تضمنت الآية خمس مسائل :

الأولى : أن الرسل من الرجال لا من النساء .

الثانية : أنهم من أهل القرى لا من أهل البوادي .

الثالثة : أنهم من البشر لا من الملائكة ولا من الجن .

الرابعة : صفات الرسل الكرام وأخلاقهم التي تضمنها كلمة (رجال) .

الخامسة : لزوم قراءة التاريخ قراءة إسلامية لمعرفة حقيقة الصراع بين الحق والباطل ، ونهايته بهلاك المبطلين ، وانتصار المؤمنين في الدنيا والآخرة .

المسألة الأولى : قال ابن كثير – رحمه الله – : (يخبر الله تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء كما عليه دل سياق هذه الآية الكريمة أن الله – تعالى – لم يوحِ إلى امرأةٍ من بنات بني آدم وحي تشريع .

وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشّرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب وبقوله : ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ﴾ [القصص : ٧] وبأن الملك جاء إلى مريم فبشّرها بعيسى عليه السلام ، وبقوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَـٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَـٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِى وَٱرۡكَعِى مَعَ

ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢ – ٤٣] .

وهذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا ؟

الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم : (أنه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صديقات ، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة : ٧٥] ، فوضعها في أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام ، فهي صديقة بنص القرآن) أ . هـ .

قلت : هذه مسألة من مسائل الاعتقاد النادرة التي يسع فيها الخلاف أهل السنة ، واختلف فيها النقل عنهم ، فقد نقل ابن كثير هنا ومثله النووي وغيرهم عن جمهور أهل السنة أنه ليس في النساء نبية ، في حين نقل القرطبي والقاضي عياض عن الجمهور خلاف ذلك وإثبات نبوة مريم ، ورجحه ابن حزم في مريم وغيرها ممن ذكر ، إلا أن القرطبي نقل الاتفاق على أن أم موسى ليست نبية ، واحتج من أثبت النبوة للنساء بالآيات التي فيها الإيحاء إليهن ، ونداء الرب – سبحانه – لآدم وحواء ، وبقول النبي ﷺ : « **كَمُلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ** »[1] ، والذي ينبغي الاتفاق عليه في هذا الباب ، نفي الرسالة عنهن ، لأن هذا نص القرآن ، وأما النبوة من غير رسالة فهي محتملة ، والراجح في المسألة الوقف ، لأن نفي الرسالة لا يستلزم نفي النبوة ، لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا ، على

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٩٥٢) بلفظ « **أفضلُ نساءِ الجنةِ أربعٌ مريمُ بنتُ عمرانَ وآسيةُ بنتُ مزاحمٍ امرأةُ فرعونَ وخديجةُ بنتُ خُوَيلد وفاطمةُ بنتُ محمد** » ، أما لفظ « كمُلَ من الرجالِ كثيرٌ ولم يكمُل من النساء إلا ... » فليس فيه خديجة بنت خويلد ولا فاطمة بنت محمد ، وأخرجه البخاري (٣٤١١ ، ٣٧٦٩ ، ٥٤١٨) ، ومسلم (٢٤٣١) ، وابن ماجة (٣٢٨٠) .

الصحيح المشهور من كلام أهل العلم ، والوحي لا يلزم منه أن يكون وحي نبوة ، فالوحي يحتمل أن يكون لنبي وأن يكون لغير نبي ، فقد أوحي الله إلى الحواريين ، وليسوا بأنبياء بالنص ، لقول النبي ﷺ : « **أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ** »[1] ، وأوحى الله ﷻ إلى النحل ، فلا يلزم من لفظ الوحي النبوة ، كما لا يلزم من تكليم الملائكة لبشر ، أو رؤيته إياهم أن يكون المُكَلَّمُ نبياً ، فقد رأى الصحابة جبريل عليه السلام ، أتاهم يعلمهم دينهم وسمعوا كلامه ، وكان عمران بن حصين رضي الله عنه يكلم وتسلم عليه الملائكة وهذا في الصحيح ، وليسوا بأنبياء نصاً وإجماعاً .

والكمال لمن كمل من النساء ، لا يلزم منه النبوة ، لأن خديجة وفاطمة - رضي الله عنهما - ليستا بنبيات إجماعاً ، وما احتج به ابن كثير بأن مريم صديقة بنص القرآن ، لا يلزم منه نفي النبوة ، فإبراهيم عليه السلام كان صديقاً نبياً ، وإدريس عليه السلام كان صديقاً نبياً ، فوصف الصديقية لا يلزم منه نفي النبوة ، وإذا كان الكتاب والسنة قد أخبرانا بنفي الرسالة عن غير الرجال ، ولم يثبتا نبوة أحد من النساء صراحةً ، ولم ينفياه صراحةً ، فالواجب أن نتوقف حيث أوقفنا الكتاب والسنة .

وقد ورد في الحديث « **مَا أَدْرِي أَتُبَّعٌ لَعِينٌ هُوَ أَمْ لَا ، وَمَا أَدْرِي أَعُزَيْرٌ نَبِيٌّ هُوَ أَمْ لَا** »[2] ، فإذا كان الرسول ﷺ لا يدري نبوة البعض من عدمها ، فنحن أولى بالوقف فيما لا نص بإثباته ولا بنفيه ، والله أعلم .

المسألة الثانية : أنهم من أهل القرى : قال ابن كثير - رحمه الله - : (وقوله تعالى ﴿ **مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ** ﴾ ، المراد بالقرى : المدن ، لأنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً ، وهذا هو المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً ، وألطف ، من أهل سوادهم (أي : أريافهم) وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون البوادي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا** ﴾ [التوبة : ٩٧] ، وقال قتادة في

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٢) ، ومسلم (٢٣٦٥) ، وأبو داود (٤٣٢٤ ، ٤٦٧٥) .
(٢) صحيح : رواه أبو داود (٤٦٧٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٢٤) .

قوله : ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود ، وفي الحديث الآخر : أن أعرابيا وهب للنبي ﷺ ناقة ، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتَّهِبَ هِبَةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أو دَوْسِيٍّ » [1] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب ، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ ، قال الأعمش : هو ابن عمر ، عن النبي ﷺ أنه قال : « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيرٌ مِنْ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ » [2]) ا . هـ .

وهذه المسألة لها أهمية كبيرة للدعاة إلى الله ﷻ وأهل العلم ، ومن يُصَدَّرُ لقيادة الناس ، في الاهتمام بلين الجانب ورقة الطباع ، والاختلاط بالناس مع تحمل أذاهم ، وكف الأذى عنهم ، ولا يمكن أن تنتشر الدعوة إلا بذلك ، ولا يحب الناس ولا ينقادون إلا لمن كان معاشراً لهم بالحسنى ، لا الذي يعتزلهم ، ولا الذي يخالطهم بالغلظة والفظاظة والجفاء ، قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وإذا كان الله – سبحانه – قد اختار لقيادة البشرية الأنبياء من أهل القرى ، فينبغي أن لا يُصدر في قيادة الناس أهل الجفاء والشدة ، فإن تصديرهم بلاء على الأمة وهلاك فيها ، كما كان الحجاج بن يوسف هو المبير ، أي : المهلك ، كما أخبر النبي ﷺ : « أَنَّ فِي ثَقِيف كَذَّابًا وَمُبِيرًا » [3] ، فالكذاب : المختار الثقفي ، والمُبِير : الحجاج ، فكانت سُنة ظالمة في المسلمين ، وقد دعا الحسن فقال : (اللهمَ أنتَ قَطَعْتَه عَنَّا ، فاقْطَعْ عَنَّا سُنَّتَه) .

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٢٦٨٢) ، وأحمد (٧٣١٦) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٧٢) .
(٢) صحيح : رواه ابن ماجة (٤٠٣٢) بلفظ : « **أعظم أجراً من المؤمن** » بدل « **خير من الذي** » ، وأحمد (٥٠٠٢ ، ٢٢٥٨٨) بلفظ « **أعظم أجراً من الذي** » ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٥١) .
(٣) رواه مسلم (٢٥٤٥) ، والترمذي (٢٢٢٠) ، وأحمد (٥٥٧٥) .

فنسأل الله أن يولي على المسلمين من كان رؤوفاً رحيماً ، شفيقاً عفيفاً ، ليناً كريم الجانب ، وأن يقطع دابر الظالمين المفسدين ، الذين يصدون عن سبيله ويبغونها عوجاً ، وأن يقطع عن المسلمين سنتهم الظالمة .

المسألة الثالثة : أن الرسل من البشر ، ليسوا ملائكة من أهل السماء كما طلبه المشركون : قاله الضحاك عن ابن عباس ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ** ﴾ [الفرقان : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فالرسول ﷺ ككل الرسل من البشر ، ليسوا ملائكة ، وهذا يقتضي أنهم خلقوا من الطين كسائر البشر ، وليسوا من نور كما تدعي بعض طوائف الصوفية ، ويحتجون بالحديث الباطل : (أول ما خلق الله ، نور نبيك يا جابر) [1] ، ويدّعون كذباً أن رسول الله ﷺ لم يكن له ظل حين يسير ، كيف وفي الحديث الصحيح : « أن بلالاً وأسامة كانا يظلان رسول الله بثوب من الحَر » [2] ، والخلاف بين العلماء من أهل السنة في أن هل أول مخلوق هو القلم - وهذا هو الصحيح - ، أم العرش ، أم الماء ، وقد قال النبي ﷺ : « **إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ** .... » [3] الحديث ، فالرسول ﷺ سراجٌ منير ، ونور مبين للقلوب والبصائر ، لا أن مادة جسده ﷺ من النور ، وأنه ليس من الطين ، أو أنه يتنزه عن صفات البشرية ، بل نص الكتاب والسنة أنه بشر ، قال ﷺ : « **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي** » [4] ، وُلد كما يولد البشر ، ومات كما يموتون ، **ومن**

---

(١) موضوع : وقال الألباني إنه حديث باطل فقال : « **خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار السموم وخلق آدم عليه السلام مما وصف لكم** » صحيح رواه مسلم ، وفيه إشارة إلى بطلان الحديث المشهور على ألسنة الناس : أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر ، ونحوه من الأحاديث التي تقول بأنه ﷺ خلق من نور ، فهذا الحديث دليل واضح على أن الملائكة فقط هم الذين خلقوا من نور دون آدم وبنيه ، انتهى كلام الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥٨) .

(٢) رواه مسلم (١٢٩٨) ، وأبو داود (١٨٣٤) ، وفي النسائي أن الذي كان يظلله أسامة بن زيد رضي الله عنه (٣٠٦٠) .

(٣) صحيح رواه الترمذي (٢١٥٥) ، وأبو داود (٤٧٠٠) ، وأحمد (٢٢١٩٧) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٦) .

(٤) ورواه البخاري (٤٠١) ، ومسلم (٥٧٢) ، والنسائي (١٢٤٢) ، وأبو داود (١٠٢٠) .

زعم حياة النبي ﷺ في قبره كحياة الناس على ظهر الأرض ، ليست الحياة البرزخية ، فإنها أكمل حياة له ﷺ في الرفيق الأعلى ، من زعم حياته كحياة الأحياء من الناس فقد كَذَّب الكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] ، وفي الحديث الصحيح أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ : (عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ) [1] ، وفي الحديث الذي رواه البخاري أن أبا بكر رضي الله عنه قال : (مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ) [2] ، وسياق الآية أصلاً لإثبات مسألة بشرية الرسول ﷺ وسائر الرسل والرد على المشركين في إنكار رسالة البشر .

وأما مسألة الرسالة والنبوة في الجن ، فهذه الآية تثبت أن الرسل رجال من أهل القرى ، وكما ذكر ابن كثير : حديث « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنْ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ » الحديث ، وهذا قول عامة أهل السُنة ، وأما قوله تعالى : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٣٠] فلا يدل على أن من الجن رسلًا لأن الخطاب للثقلين معاً ، فهو يتحقق بوجود رسل من البشر ، وليس من دليل على الوحي إلى الجن ، ولا نزاع أن رسول الله ﷺ رسول إلى الإنس والجن جميعاً ، كما دلت عليه سورة الأحقاف وسورة الجن ، وأن منهم منذرين قال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ - ٣١] ، فدلت هذه الآية على أن الجن كانوا مطالبين ومخاطبين بشريعة موسى عليه السلام ثم صاروا مطالبين ومخاطبين بشريعة محمد ﷺ ، كما أن النقص الجبلي في الجن بالنسبة إلى الإنس يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ

(١) رواه البخاري (٤٠١) ، ومسلم (٥٧٢) ، والنسائي (١٢٤٢) ، وأبو داود (١٠٢٠) .
(٢) رواه البخاري (٣٦٧٠) ، وابن ماجة (١٦٢٧) ، وأحمد (٢٧٨٠٧) .

﴿ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، كما يدل عليه أمر أبي الجن بالسجود لأبي البشر آدم عليه السلام ، وقول إبليس عن ذلك : ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ [الإسراء : ٦٢] ، والواقع المشاهد يدل على نقص علم الجن وخفة عقولهم ، وطيش تصرفاتهم في الجملة إلا من رحم الله ، وهذا كله مما يقتضي عدم وجود رسل ولا أنبياء منهم ، والله أعلم .

المسألة الرابعة : الوصف بالرجولة يقتضي جملة من صفات الكمال لا يقتضيها الوصف بمجرد الذكورة ، ولذا جاء هذا الوصف في سياق المدح في مواضع كثيرة من القرآن منها هذا الموضع ، ومنها قوله تعالى عن مؤمن آل ياسين : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس : ٢٠] ، ومنها قوله تعالى عن الرجل الذي أبلغ موسى عليه السلام بمؤامرة الملأ من قوم فرعون به ليقتلوه : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص : ٢٠] ، ومنها قوله تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فصفات الرسل وأخلاقهم أكمل الصفات وأكرم الأخلاق ، قال تعالى عن نبيه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ، ولأن الرسل أكمل الخلق إيماناً فهم أحاسنهم أخلاقاً فـ « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » [1] كما قال النبي ﷺ ، وجملة ذلك أنهم موصوفون بكل خلقٍ جميل ليقتدي الناس بهم في هذه الأخلاق ، وإليك أخي الكريم جملة من هذه الأخلاق ، وهي مفصلة في كتب التهذيب والرقاق والأدب ولكن أحببت أن أجملها هنا لنزن أنفسنا بها ، وننظر إلى حالنا في التشبه بهم والقرب منهم :

الصدق في القول والعمل مع الله ومع الناس ، وترك الكذب بالكلية ، والصبر واحتمال أذى الخلق والحلم عنهم ، وكظم الغيظ وكف الأذى ، وعدم الانتقام للنفس

(١) صحيح : رواه الترمذي (١١٦٢) ، وأبو داود (٤٦٨٢) ، وأحمد (٧٣٥٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٠) .

إلا أن تنتهك حرمات الله ، والأناة وعدم الطيش والعجلة ، والعفة واجتناب القبائح والفواحش في القول والعمل ، وفي الأموال والأعراض ، والحياء والكرم والجود والسخاء ، وترك الشح والبخل والغيبة والنميمة وخيانة الأعين ، والشجاعة وعزة النفس والبذل والقوة في الحق ، والاستعداد لبذل المحبوب وإخراجه ومفارقته لأمر الله بذلك ، والوفاء بالعقود والعهود والأمانات ، للأهل والأرحام والأصدقاء ، والبر والصلة والإحسان إلى الخلق .

والعدل والتوسط في شيم النفس بين الإفراط والتفريط ، فالجود وسط بين التبذير والبخل ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، والحياء وسط بين الوقاحة والجرأة المذمومة وبين العجز والمهانة والخور والضعف ، والحلم وسط بين الغضب والمهانة والذل وسقوط النفس .

والتواضع والعزة المحمودة وسط بين الكبر والهوان ، والقناعة وسط بين الحرص والتكالب والتنافس على الدنيا ، وبين الخسة والمهانة والتضييع وترك التنافس على المراتب السامية من طاعة الله ومرضاته ، والصبر وسط بين الجزع والهلع والتسخط ، وبين القسوة والغلظة وتحجر الطبع والفظاظة .

والرحمة وسط بين القسوة والضعف والجبن وترك أوامر الله التي أمر فيها بألا تأخذ العباد فيها رأفة في دين الله ، وطلاقة الوجه والتبسم والبِشْر في وجوه البَشَر وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد تكبراً وعُجباً وطي البِشر عن البشر ، وبين الاسترسال في الضحك في كل موقف ومع كل أحد حتى تزول الهيبة والوقار .

ومن صفاتهم – صلى الله عليهم وسلم – الإيثار بالدنيا ، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، وسرعة العفو والصفح وقبول المعذرة ، والمروءة في اللسان بحلاوة المنطق وطيبه ولينه ، والمروءة في الخُلق بسعته وانشراح الصدر في معاملة الخلق ، وفي المال ببذله في مواقعه المحمودة شرعاً ، وفي الجاه ببذله للمحتاج إليه ، والقرب من الخلق بحيث

يجدونه في أزماتهم ومشاكلهم :

يحمل الكَلَّ ، ويُكسب المعدوم ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، يحسن إلى الخادم والمملوك ، فضلاً عن الأهل والأقارب والجيران ، يجالس المساكين ، ويجيب الدعوة ولو إلى شيء يسير ، ويمشي مع الأرملة والمسكين واليتيم في حوائجهم ، يبدأ السلام من لقيه ، خفيف المؤنة على من صحبه ، لا يكلف غيره مؤنته ، هيناً ليناً سهلاً ، يعود المريض ويشهد الجنازة ، يعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، ويعفو عن من ظلمه ، لا يتكبر ولا يحسد ولا يتعالى على الخلق ، ولا يبغي ولا يفخر ، ولا يغش ولا يتبع الشهوات ، ولا يخاصم لنفسه ولا يعاتب لها ، ولا يماري ولا يجادل إلا بالتي هي أحسن ، ولا يستقصي حقه ، ويُغضي عن عيوب من أساء إليه فضلاً عمن سواه إلا لحق الله تعالى ، ويتغافل عن عثرات الأهل والأصحاب والناس مع إشعارهم أنه لا يعلم لهم عثرة ، يوقر الكبير ويرحم الصغير ، ويأتي إلى الناس أفضل مما يحب أن يأتوه إليه ، ويحسن عشرة كل من عاشره من أم وأب ، وابن وبنت ، وأخت وأخ ، وقريب وجار ، وامرأة وصاحب ومملوك ، وكل من يعامله ، والله المستعان وعليه التكلان .

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت ، اللهم ارزقنا رفقة الأنبياء ، وعيش السعداء ، وموت الشهداء ، اللهم صلِّ على نبينا محمد وسائر النبيين والمرسلين وسلم وبارك عليهم وآلهم وصحبهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

المسألة الخامسة : لزوم قراءة التاريخ قراءة إسلامية لمعرفة حقيقة الصراع بين الحق والباطل ونهاية المبطلين وهلاكهم وانتصار المؤمنين في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ استفهام إنكارٍ على المشركين في عدم تدبرهم عاقبة الأمم والسير في الأرض لأجل هذا النظر ، وقد أمر الله بالسير في الأرض والنظر والتفكر في من مضى من الأقوام ، وكيف

كانت مخالفتهم للرسل وتكذيبهم لما جاؤوا به سبباً في هلاكهم ودمارهم ، قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، ومن الخلق من لا يتدبرون ما يرون من آثار من قبلهم وما آل إليه أمرهم ، وإنما ينشغل كثيرٌ منهم اليوم بالإعجاب ببنائهم وتماثيلهم وما يسمّونه بحضارتهم دون أدنى إدراك لما يدل عليه ذهاب ملكهم وسلطانهم ودولهم .

ومنهم من يفسر ميلاد الأمم وموتها والصراعات التي تجري بينها بالأسباب المادية حسب ما أدّاه إليه نظره الجاهل ، وكم شقيت الملايين والأجيال بسبب نظريات قادتها في حقيقة الصراع بين الأمم ، فمنهم من فسر كل ما جرى في التاريخ على أنه صراع من أجل المال ، وأن المال هو المحرك الأساسي لإرادات البشر ، وأن المصالح الاقتصادية هي سبب كل الحروب والاختلافات ، والمال عندهم عصب الحياة بل وإلهها المعبود مصداق ما قال رسول الله ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ » [1] .

وهذه الحضارة بل – الانحطاط – الغربي الرأسمالي يقود الحروب ويدبرها لأجل إعلاء سلطان المال واستثمارات رأس المال ، وينشر أن الشركات العملاقة العالمية هي التي تتحكم في مصير الدول والشعوب وثرواتها ، وقد حاول أصحاب هذه النظرية تصوير فتوح المسلمين في المشارق والمغارب على وفق ذلك – وكذبوا – ، فقالوا إن المسلمين أرادوا الخروج من الجزيرة العربية القليلة الموارد في المياه والأرض الصالحة للزراعة وغيرها حتى يُحصّلوا الرخاء والسعة ، وها هي كتاباتهم في كتب التاريخ التي

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧) ، وابن ماجة (٤١٣٥) .

تحاول أن تدمر في أبناء المسلمين الحس الإيماني والهدف الرباني الذي تحرك المسلمون من أجله قائلين : (اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ العِبَادَ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إلى عِبَادَةِ رَبِّ العِبَادِ ، وَمِنْ جَوْرِ الأدْيَانِ إلى عَدْلِ الإِسْلامِ ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إلى سِعَةِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ) (1) .

ويحاولون أيضاً أن يُنسوا المسلمين أن الحروب الصليبية كانت في المقام الأول حروباً دينية لمحو الإسلام وإطفاء نور الله في الأرض ، بزعم أنها كانت بدوافع اقتصادية ، ولا شك أن غرض الصليبيين كان مشتملاً على ذلك فهم كما قال الله – عز وجل – : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ [التوبة : ٣٤] ، ولكن هذا كان بالإضافة إلى المقصد الأصلي لهم في رفع راية الصليب .

ومنهم من فسر ما جرى من صراع بين الأمم على أنه صراع الطبقات في المجتمعات ، وأنه لابد أن تسود الطبقة العاملة ، وهذه الشيوعية وما تفرع منها من الاشتراكية والبعثية والجماهيرية كم أشقت الأمم وقتلت الملايين وانتهكت الحرمات في المشارق والمغارب حتى انهارت وانتهت .

ومنهم من يفسر كل صراع على أنه صراع الشهوة الجنسية ، وأنها المحرك الأساسي للإنسان ، ومنهم من يفسر حركة التاريخ على أنها صراع لأجل تفوق جنس بعينه على سائر الأجناس ، كعقيدة اليهود أنهم شعب الله المختار ، واعتقاد الأوربيين بلزوم سيادة الجنس الأبيض ، ثم بعضهم يقول بسيادة الجنس الآري وبعضهم الأنجلوساكسوني ، وغير ذلك من الخزعبلات التي تشقى بها الأمم وتُعذب بها الشعوب ، والتي حين ننظر إليها من خلال القراءة الإسلامية للتاريخ في نور آيات القرآن نعلم أنها جميعاً من إضلال الشيطان لهؤلاء الكافرين بتزيين هذه الشهوات البهيمية ، أو إرادة العلو في الأرض والفساد ليُعبَدَ غير الله في الأرض ، قال تعالى :

---

(١) قاله ربعي بن عامر ﷺ لرستم ملك الفرس قبل القادسية .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٥ – ٦] .

فحقيقة الأمر أنه صراع حول قضية العبودية ، هل تكون لله وحده كما يريد أولياء الرحمن وهم رسل الله وأتباعهم ؟ أم تكون للشيطان والطاغوت بتوسط ألهة كثيرة متعددة ؟ هذه المعركة لا تحسمها القوة المادية ولا أنواع التخطيط والمكر والكيد ، إنما يحسمها مدى تمسك أهل الإيمان بعقيدتهم ومنهجهم وثباتهم على ذلك وعملهم بمقتضى منهجهم في مجتمعهم ، ودائماً يبدأ الأمر بقوة أهل الباطل الظاهرة – على الرغم من ضعفها في حقيقة الحال – ﴿ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦] ، ويتعرض أهل الإيمان للاستضعاف والامتحان والبلاء والبطش والإيذاء ، ويُقتل منهم من يُقتل ، ويُفتن كثير ممن ينتسب إليهم ، ولا يدري حقيقة الطريق ، ومع ذلك ومع تمكن الباطل وكثرة عَدده وعُدده يُنْقِصُ الله الأرض من أطرافها حولهم بظهور الإسلام وقبول الناس تدريجياً لنور الإيمان : ﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآ ﴾ [الأنبياء : ٤٤] ، إلى أن تتربى الطائفة المؤمنة على ما يحب الله ويرضى من العقيدة والعمل والسلوك ، وتترابط وتتماسك وتتحاب في الله حتى تكون جسداً واحداً ، وتزكو وتنمو وتؤهل لقيادة البشر ، ويكتمل فيها الإسلام والإيمان والإحسان ، فعند ذلك يأذن الله باضمحلال قوة الباطل ومجيء الحق : ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

فتتغير الموازين وتتبدل الأحوال وينزع الله الملك من أعدائه ويؤتيه أولياءه ، ويُمَكّن لهم في الأرض : يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويأمرون بالمعروف – الذي يرأسه توحيد الله واتباع رسوله ﷺ – ، وينهون عن المنكر – الذي يرأسه الشرك بالله ومخالفة رسوله ﷺ – ، ولله عاقبة الأمور ، ويصبح أهل الباطل وعبّاد الطاغوت مجرد أخبار وأحاديث يتعظ بها أهل الإيمان في الحلقات التالية لهذا الصراع ، ويعرفون بها

حقيقة طريقهم وطبيعة صراعهم ونهايته المحتومة التي قضاها الله ، وإن لم يدركها بعضهم لأنه يسقط شهيداً في الطريق ، إلا إنه خطوة على السبيل ولَبِنَةٌ في البناء ، وحقه لن يضيع في الدنيا بلسان الصدق الذي يجعله الله له في الآخرين ، وفي الآخرة حيث ينصره الله أعظم النصر ، ويفوز بالجنات والرضوان ، ورؤية وجه الكريم المنان الرحيم الودود نِعْمَ المولى ونعم النصير وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ﴿ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

ولا تزال طائفة من أهل الحق باقية لا يُسَلِّطُ الله عليها عدواً تسلطاً يزيل الحق بالكلية ، بل يظهرها بالحجة والبيان ، ثم بالقوة والسنان ، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (1) .

وإن كانت سنته سبحانه أن تأييد من يبقى منهم بالقوة والسنان ، حتى يقهروا أولياء الشيطان ، إنما تكون بعد أن يبلغ الأمر مداه ، ويشتد البلاء إلى منتهاه ، حتى يحصل لهم كمال اليأس من الخلق ، الذي هو في حقيقته كمال التوكل على الله – سبحانه – ، بل ويحصل لهم كمال اليأس من أنفسهم أن يَهدوا أحداً من الخلق ، أو أن ينصروا بأنفسهم الدين ، وربما استعجل من استعجل ، حتى يظن بالله الظنونا ، وحتى يقولوا : ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ ، وعند ذلك يأتي النصر القريب كما تجده في الآية التالية وهي :



(1) رواه البخاري (٣٦٤١) ، ومسلم (١٥٦) واللفظ له ، والترمذي (٢٢٢٩) ، وأبو داود (٤٢٥٢) .

النصر والفرج بعد الشدة واليأس

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

ما أحوجنا إلى تدبر هذه الآية الكريمة على وجوه قراءتها - التي كلها حق ومن عند الله - فكل وجه من وجوه قراءتها ، وكذا وجوه تفسيرها ، له من الفوائد العظيمة التي يحتاجها السائرون إلى الله على طريق الرسل المحفوف بالمكاره والآلام ، فلنستعرض أولاً ما ورد من وجوه القراءة وما فيها من وجوه التفسير ثم نذكر فوائدها .

قال ابن كثير - رحمه الله - : (وفي قوله : ﴿ كُذِبُواْ ﴾ قراءتان : **إحداهما** : بالتشديد ﴿ كُذِّبُوا ﴾ ، وكذلك كانت عائشة - رضي الله عنها - تقرؤها ، فروى البخاري عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - رضي الله عنها - : أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ ، قال : قلت : أَكُذِبُوا أم كُذِّبوا ؟ فقالت عائشة : ﴿ كُذِّبُوا ﴾ ، قلت فقد استيقنوا أن قومهم قد كذبوهم ، فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لها : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ ، فقالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، قلت فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء واستأخر النصر ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك ، حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، قال : أخبرني عروة : فقلت : لعلها ﴿ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ مخففة ؟ ، قالت : معاذ الله !) ا.هـ .

وقال ابن جريج : أخبرني ابن أبي مليكة أن ابن عباس قرأها : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ خفيفة ، قال عبد الله - هو ابن أبي مليكة - ثم قال لي ابن عباس : كانوا بشراً ! ثم تلا : ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٤] ، قال

ابن جريج : وقال لي ابن أبي مليكة : وأخبرني عروة ، عن عائشة : أنها خالفت ذلك وأبته ، وقالت : ما وعد الله محمداً ﷺ من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذّبوهم . قال ابن أبي مليكة في حديث عروة : كانت عائشة تقرؤها : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِّبُواْ ﴾ مثقلة ، للتكذيب .

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن سعيد ، قال : جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال : إن محمد بن كعب القرظي يقول هذه الآية : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ فقال القاسم : أخبره عني ؛ أني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِّبُواْ ﴾ تقول : كذبتهم أتباعهم ، إسناده صحيح أيضاً .

والقراءة الثانية : بالتخفيف ، واختلفوا في تفسيرها : فقال ابن عباس ما تقدم ، وعن ابن مسعودٍ أنه قرأ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ مخففة ، قال عبد الله : هو الذي تكره .

وهذا عن ابن مسعود وابن عباس - رضي الله عنهما - مخالفٌ لما رواه آخرون عنهما ، أما ابن عباس : فروى الأعمش ، عن مسلم عن ابن عباس في قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ قال : لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كَذَبوهم جاءهم النصر على ذلك ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ﴾ ، وكذا رُوي عن سعيد بن جبير ، وعمران بن الحارث السلمي ، وعبد الرحمن ابن معاوية وعلي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس بمثله .

وروى ابن جرير بسنده عن إبراهيم بن أبي حرة الجزري قال : سأل فتى من قريش سعيد بن جبير ، فقال : يا أبا عبد الله ، كيف تقرأ هذا الحرف ، فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ ، قال :

نعم ، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسَل إليهم أن الرسل قد كَذَبوا ، قال : فقال الضحاك بن مزاحم : ما رأيت كاليوم قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلكأ ، ولو رحَلْتُ إلى اليمن في هذه كان قليلاً ، ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر : أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فأجابه بهذا الجواب ، فقام إلى سعيد فاعتنقه وقال : فرج الله عنك كما فرجت عني .

وهكذا رُوي من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك ، وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف ، حتى إن مجاهداً قرأها ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كَذَبُواْ﴾ بفتح الذال . رواه ابن جرير ، إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير في قوله :﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين ، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم ، أي : وظن الكفار أن الرسل قد﴿ كُذِبُوا﴾ - مخففة - فيما وُعِدُوا به من النصر .

وروى ابن جرير بسنده أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال في هذه الآية :﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا لهم ، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم ﴿ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ - مخففة - .

فهاتان روايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس - رضي الله عنهم - ، وقد أنكرت ذلك عائشة رضي الله عنها على من فسرها بذلك ، وانتصر لها ابن جرير ووجّه المشهور عن الجمهور ، وزيّف القول الآخر بالكلية ، ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه ، والله أعلم) انتهى كلام ابن كثير بتصرف يسير .

فيتحصل من ذلك أن قوله تعالى :﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ يقرأ على وجهين ، كلاهما ثابت بلا شك :-

الوجه الأول : ﴿ كُذِبُوا﴾ وهي قراءتنا المشهورة (قراءة عاصم وحمزة والكوفيين وخلف وأبي جعفر) وعلى هذا الوجه ثلاثة أوجه في التفسير :

الأول : أن الرسل قد ظنت أنها قد كُذِبَت ، وهذا هو الثابت بأسانيد صحيحة عن ابن عباس وابن مسعود - رضي الله عنهم - ، حيث قال ابن عباس : (كانوا بشراً) وقال :﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وهو يوضح معنى الظن هنا عند ابن عباس رضي الله عنهما ، وأنه مجرد الخواطر التي تطرأ على القلب ولا تستقر ، من جنس : (ما وقع لرسول الله ﷺ في فترة انقطاع الوحي حين همّ أن يتردى من فوق جبل)[١] ، وهذه كلها عوارض البشرية التي تقع للرسل حتى يكونوا قدوة للمؤمنين في دفع هذه الخواطر ، فهي ظنون مرجوحة مطرودة يجاهدها المؤمن ليصل إلى علم اليقين وحق اليقين ، والرسل تصل بعدها إلى علم اليقين ، حتى إذا وقعت هذه الظنون في نفس المؤمن لشدة الحال لم يقنط من رحمة الله ، ولم يخدعه الشيطان عندها أنه قد زال إيمانه ، بل هذه طبيعة القلب البشري ومجرد ورود الخواطر لا يمكن منعه ابتداءً ، ولا يحاسب عليه الإنسان ما لم يصل إلى الشك أو أن يظن الظن الراجح بالاعتقاد الفاسد ، وهذا الذي أنكرته عائشة - رضي الله عنها - أن تكون الرسل قد ظنت ، أي غلب على ظنها أو اعتقدت ذلك في ربها أو حتى شكت ، وهذا مما لا نزاع فيه بين أحد من أهل السنة وأهل الإيمان إن شاء الله .

ولما لم تكن عائشة - رضي الله عنها - تعلم بهذه القراءة وتوجيهها الذي قاله ابن مسعود وابن عباس - رضي الله عنهم - أنكرتها .

الوجه الثاني : على قراءة﴿ كُذِبُوا﴾ : أن بعض أتباع الرسل ظنوا أن الرسل قد كذبت وهذا يحتمل أمرين :

الأول : أن أتباع الرسل من المؤمنين وقع لهم ما ذُكر في الوجه الأول ، وهو خواطر ووساوس دفعوها بحمد الله وما استقرت في النفوس .

الثاني : أن يكون بعض أتباع الرسل قد فتنوا من شدة الحال ، كمن يعبد الله على

---

(١) صحيح : معنى حديث رواه البخاري (٦٩٨٢) ، ومسلم (١٦٠) .

حرف ومن يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله .

والاحتمال الأول أظهر عندي لأن الله وصف من قال : ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ بالإيمان ، فجعل سبحانه استبطاء النصر لا ينافي الإيمان ، فدل على أنه الخواطر لا الشكوك ولا الظنون الراجحة ولا اليقين بالأولى .

الوجه الثالث : على قراءة ﴿ كُذِبُوا ﴾ : أن أقوام الرسل من الكفار ظنوا أن الرسل قد كُذِبَتْ وأنه لم يأتها شيء لما استبطأ النصرُ ، وهو هنا الظن الراجح عندهم واعتقادهم الفاسد ، قالت أم جميل لرسول الله ﷺ لما أبطأ عليه جبريل : (ما أرى شيطانَك إلا قد تركَك) فأنزل الله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى : ٣] [(١)] ، وهو في الصحيحين دون تسميتها أم جميل .

وأنت إذا تأملت أقوال السلف بمجموعها ، وعلمت ما يجري في واقع الحال عند المحن والشدائد ، وجدت أن مجموع أقوالهم يصف تفاصيل ما يقع لطوائف مختلفة ونوعيات متفاوتة كلها موجودة في الواقع .

ومن فتّش في نفسه وراقب خواطره واستوعب كذلك ما يقع لإخوانه والناس حوله ، خاصةً عند الضربات المتتابعة والهزائم المتتالية التي قد تحل بالطائفة المؤمنة في مراحل مواجهتها الأولى مع الباطل ، وشدة التفاوت بين القوة الظاهرة للباطل والاستضعاف الشديد للمؤمنين ، علم فعلاً أن حقيقة الواقع هو في مجموع أقوال السلف وإن كان في نهاية الأمر بعض الأقوال أليق بظاهر الآية لكن غيرها ملازم لها غير معارض ، فأما قول ابن عباس - رضي الله عنهما - كانوا بشراً يعني أن الرسل قد ظنت - أي جاءتها خواطر - أنها قد كُذِبت .

وعلى الرغم من أن هذا يضيق به البعض ويكرهه كما قال ابن مسعود رضي الله عنه لمسروق : (هو الذي تكره) ، لظنه أنه مخالف لعصمة الرسل واللائق بهم ، لكنه والله

(١) رواه البخاري (١١٢٥) ، ومسلم (١٧٩٧) ، وأحمد (١٨٣٢٧) واللفظ له .

عند التأمل والتجربة من أعظم أسباب الراحة والطمأنينة لعباد الله المؤمنين لأن لهم في الرسل الأسوة الحسنة ، وورود الخواطر حتى بظن أن الوحي ما أتاهم أو أن النصر لن يأتي لا ينافي ما ثبت من عصمتهم ، فإن الخواطر من عوارض البشرية لا دليل على امتناعها على الرسل ، إنما المنع من الاعتقاد الباطل أو الشك ، أما ورود الخواطر التي يجاهدونها ويدفعونها فأين في الكتاب والسنة أو الإجماع المنع من ذلك ، وقد ورد نحوٌ من هذا في الكلام على هم يوسف عليه السلام ، وأما كون هذا من أسباب راحة المؤمنين لأن لحظات الشدة قد يكون معها هذه الخواطر والتي يتفاوت الناس كثيراً جداً في حجمها ومدتها وبقائها ، فمنهم من تأتيه كوميض برق مفزع لصاحبه يزول بأسرع ما يكون ويأتيه بعده برد اليقين ومطر الإيمان المتتابع الذي يثمر في أرض القلب أنواع الخيرات والثمرات الزكية ويدرك به فضل الله عليه في التثبيت وأنه لا يملك لنفسه شيئاً وأنه والله لولا الله ما اهتدى .

وتأمل قول الله – عز وجل – لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٧٣ – ٧٥] .

ولا شك أن الركون إلى الكفرة في افتراء غير الحق على الله ﷻ هو من هذا الجنس من الخواطر ، تزول ولا تستقر ، يعرف بها المؤمن اتباعا لرسل الله – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – أنه « **مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ** »[1] ، ولا يزال دأبه في كل لحظة الالتجاء إلى الله سبحانه ، والفرار منه إليه ، قائلاً داعياً متضرعاً : « **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ** » و « **اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ** » .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) ، والنسائي (٧٧٣٨) في الكبرى ، والترمذي (٢١٤٠) ، وابن ماجة (١٩) ، وأحمد (٦٥٦٩) ، وقد ورد في بعض روايات الحديث الدعاء الذي يليه بلفظ : « يا مقلب القلوب » وفي بعضها بلفظ : « يا مصرف القلوب » .

وهذه الخواطر ليست شكاً ، بل هي مرحلة بين طمأنينة القلب التي سألها إبراهيم عليه السلام ، وبين الشك الذي نفاه رسول الله ﷺ عن إبراهيم عليه السلام حين قال : « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ** » [1] ، وهناك من المؤمنين من تتكرر عليه هذه الخواطر أكثر من ذلك ، ويجد بسببها ما أن يخر من السماء أهون عليه من أن يتكلم به ، ويظل مجاهداً لذلك كثيراً ، وهذا صريح الإيمان كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ ، وعساه باستمرار الجهاد أن يصل إلى برد اليقين ومهيمنية [2] الصديقين ، فتنقطع عنه الوساوس والخطرات ، ويلحق بمن سبقه من السابقين بالخيرات .

وإخبار القرآن عن وقوع الخواطر من الرسل وأتباعهم المؤمنين – على الوجهين من التفسير – يبرد في قلوب المؤمنين حر هذا الجهاد ، ويثبت قلوبهم ، ويبشرهم بأن هذا الذي وجدوه لا يدل على انتفاء الإيمان من قلوبهم – وهو أحب شيء إليهم – ، وزواله وحصول ضده من الشرك أو التكذيب أكره عندهم من الحرق بالنار ، بل إيمانهم بحمد الله باق ، وعن قريب تزول هذه الخواطر ، بل ويزول تسلط الأعداء ، ويأتي نصر الله القريب .

وهناك صنف ثالث لا يعرف حقيقة الطريق ، ويظن أنه لا يفتن ، بل تكفيه دعوى الإيمان ، فإذا جاءت المحن والفتن افتتن ، وظن أنه ﴿ **مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ وأنه ﴿ **غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ** ﴾ ، وهذا النوع الذي في قلبه مرض ، ولو تأملت الآيتين في الأنفال : ﴿ **إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ** ﴾ [الأنفال : ٤٩] ، وفي الأحزاب : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ [الأحزاب : ١٢] لوجدتهما يذكران نوعين من الناس (المنافقين) و(الذين في قلوبهم مرض) ، فالمنافقون في الأصل يعتقدون أن الرسل قد كذبت ، أو عندهم شك في ذلك ابتداءً ، وهذا مثل قول من قال : ظنوا ، أي : ظن الكفار أن الرسل

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) ، وابن ماجة (٤٠٢٦) ، أحمد (٨١٢٩) .
(٢) أي مراقبتهم لله سبحانه .

قد كذبت ، وأما الذين في قلوبهم مرض ، فهم الذين كان إيمانهم وعبادتهم على حرف ، فعند الفتنة افتتنوا ، فهم في الأصل لم يكونوا منافقين النفاق الأكبر ، ولكنهم عند الفتنة سقطوا فيه والعياذ بالله ، ويدلك على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ [الحج : ١١] ، فهو دليل على أنه قبل الفتنة لم يكن منقلباً ولم يكن خاسراً الدنيا والآخرة ، وإنما خسر الدنيا والآخرة لما انقلب لما جاءته الفتنة ، فكان عنده قبل ذلك إيمان ناقص ضعيف ، لا يثبت عند المحن ، لو شككك لشك ، ولو فتن لافتتن ، وهو كحال مسلمة الأعراب - على قول جمهور المفسرين - أنهم لم يكونوا منافقين النفاق الأكبر ، وكان في قلوبهم مرض ، فهم مسلمون وليسوا بمؤمنين الإيمان الواجب ، وكذا من قال الله فيهم : ﴿ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ١٤] ، ولو كانوا قبل دخول الكفار عليهم المدينة - لو حدث - من نواحيها منافقين ، لفرحوا بهم ولما احتاجوا أن يسألوهم الفتنة أي : الشرك ، بل كانوا يبادرون إليها ، وأما هؤلاء فهم يؤتون الفتنة بعد توقف قليل ﴿ وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴾، وهذه النوعية الضعيفة الإيمان موجودة في الصف المسلم ، ووجودها في المراحل الأولى للدعوة خطر كبير عليها ، لأن الأوائل هم الذين سيتصدرون بعد حين في قيادة الأمة بل العالم ، إمامةً وعلماً ، وروايةً ودرايةً ، وتربيةً وتوجيهاً ، ودعوةً وجهاداً ، وملكاً وسلطاناً ، فلو بقيت الأمور بلا تمحيص ، لَتصدر مثل هؤلاء ، فيحصل من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ، فيقدر الله الابتلاء الذي يصل إلى حد اليأس من الناس ومن النفس ، وحتى تأتي الخواطر السيئة لأهل الإيمان ، وحتى تحصل الفتنة لهذا الصنف من الناس ، فيتخلف ويتراجع ، ويفتن ويشك ، وينسحب ويتساقط من الزلزلة ، فيصفو الصف المؤمن ، ويعرف فيه من يصلح ومن لا يصلح .

وأما الكفار والمنافقون فهم على ظنهم واعتقادهم الفاسد من البداية ، لكنهم يرون في استبطاء النصر دليلاً على ظنهم ، وهذه فتنة لهم ليزدادوا إثماً وطغياناً وكبراً ، ثم

يأخذهم العزيز المقتدر ، والله المستعان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وأقرب الأقوال عندي إلى ظاهر الآية ، أن الضمير يعود على أقرب مذكور وهم الرسل ، وأنهم خطرت ببالهم هذه الخواطر التي ثبتهم الله عندها ، وصرفها عنهم ، ورزقهم برد اليقين وعلم اليقين وحق اليقين ، ثم جاء النصر فكان عين اليقين ، نسأل الله أن يرزقنا ذلك باتباعهم والاقتداء بهم .

ومن لوازم هذا القول أن أتباعهم المؤمنين قد حدث لهم مثل ذلك ، بل وزيادة عليه كما ذكرنا ، ومن لوازمه أيضاً أن من فتن من هؤلاء الأتباع ، ومن كان مفتوناً أصلاً من الكفار والمنافقين ، تأكد لديهم الظن الكاذب والوهم الفاسد ظن السوء ، باضمحلال الدين وهزيمة المؤمنين ، هزيمة لا نصر بعدها ، فجاء النصر بعد ذلك ماحقاً لعقائد المبطلين ، ونجاة لعباد الله المؤمنين ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

والوجه الثاني في القراءة : وأما قراءة عائشة - رضي الله عنها - وتفسيرها : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ ﴾ أن الرسل ظنت أن أتباعهم كذَّبوهم - فهي قراءة ثابتة بلا شك وهي قراءة نافع وأبي عمرو ويعقوب - والمعنى الذي ذكرته - رضي الله عنها - معنى حق أيضاً ، وهو يكمل جانباً آخر من صورة الموقف عند البلاء وهو أن شدة الأمر تجعل كثيراً من الناس يفتن حتى يظن الرسل أن أتباعهم الخُلَّص سيلحقون بالمنسحبين المفتونين وأنهم يبقون وحدهم .

وهذا والله من أعظم المعاني الإيمانية فهم عازمون على السير إلى الله ولو كذبهم الناس كلهم ، كما قال النبي ﷺ : « **فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ** » [1] ، فهم لا يستوحشون من قلة السالكين بل وانعدامهم ليكونوا بذلك الأسوة الحسنة لمن يأتي بعدهم من المؤمنين ، حين يجدون من معهم

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٦٣) .

يتركون الطريق ويتركون نصرة الدين ، وتهمهم أنفسهم ويظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية من إنكار القدر ، فظنُ أن الأمور إنما تتم حسب تخطيط الكفار ومكرهم وليس بأمرٍ من الله وقدره هو من ظن الجاهلية ، وكذلك إنكار الحكمة في حصول التسلط العنيف والضربات المتتابعة مع أن المؤمنين على الحق والكفار على الباطل فيحصل الريب والشك لطوائف ، وكذلك ظنُ اضمحلال الدين وكل هذا من ظن الجاهلية ، وهو والله يقع من طوائف عند شدة المحنة ، ونسأل الله العافية ، فعند ما يجد المؤمنون والدعاة والمجاهدون بعض من معهم يقع ويسقط في الفتن ، يتذكرون حال الرسل الذين استيأسوا من إيمان قومهم وظنوا أن أتباعهم قد كذبوهم ، ومع ذلك فهم عازمون على الثبات والسير في الطريق ولو وحدهم ، فيعزمون مثلهم على ذلك ، وهذا من أعظم وأربح التجارات مع الله – سبحانه – فهو يثاب هذا الثواب بعزمه على السير إلى الله وحده ولو لم يقع ذلك ، لكنه يقدر له ما يظن معه انسحاب كل من معه ليعزم على الانفراد لله ثم يأتيه النصر فيجمع الله له خير الدنيا والآخرة كما قيل :

ولِواحِدٍ كُنْ وَاحِداً في وَاحِدٍ ۝ أعني طريقَ الحَقِّ والإِيمانِ [1]

أي : لله الواحد كُنْ سائراً ولو وحدك في طريق واحد هو طريق الحق والإيمان .

وأما إنكار عائشة – رضي الله عنها – للقراءة الأخرى وهي متواترة عندنا الآن ، فلأنها لم تسمعها من رسول الله ﷺ ولم تبلغها من طريقٍ تقوم بها الحجة عندها فهي معذورة بعدم البلاغ ، ففيه دليل على أن من أنكر شيئاً من الدين – بل ومن القرآن – لم تبلغه الحجة به فهو معذور ، ولا عذر لمن بلغته الحجة ، والله أعلم .

وبهذا الجمع – بحمد الله – يتضح لك فائدة جمع أقوال السلف في تفسير الآية ، وكذا جمع القراءات وتوجيهها ، فكل منها يدلك على معنى حق من معاني الإيمان ويتناول جانباً من جوانب الواقع يعالج ما يقع في النفوس ويَشفي به الله صدور

---

(١) من نونية ابن القيم .

المؤمنين ، فاللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا .

وأما قوله تعالى : ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ﴾ فقرئ ﴿ فَنُجِّيَ ﴾ بالبناء المجهول ، وقرئ ﴿ فننجي من نشاء ﴾ فالله هو الذي نجّى من يشاء بفضله ورحمته ومنته ، وجاء النصر في أشد لحظات المحنة ، وهكذا كانت هذه السورة من المبشرات لرسول الله ﷺ بقرب الفرج والنصر والنجاة ، وقد كان ، ونزل بأس الله بالكافرين ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ والحمد لله رب العالمين .

اللهم إنا نسألك نصرك العزيز وفرجك القريب ، ونسألك أن تنزل بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين بأعداء الإسلام من اليهود والنصارى والمنافقين وسائر الكفرة والظالمين الذين يصدون عن سبيلك ويكذبون رسلك ولا يؤمنون بوعدك ، وقد طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، فصُب عليهم ربنا سوط عذاب ، إنك ربنا بالمرصاد ، آمين .



القرآن هدى ورحمة

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

قال ابن كثير – رحمه الله –: (يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين: ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهي العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي: يُكَذب ويُختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدِّق ما فيها من الصحيح وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلات، والإخبار عن الرب – تبارك وتعالى – والأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم الميعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة) أ. هـ.

وقد ذكر العلامة المبارك الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي – رحمه الله – في تفسيره جملة من العبر والفوائد في قصة يوسف عليه السلام مضى بعضها في القصة، لكن أحب أن أذكرها هنا كما ذكرها جملة، مع تعليقٍ على بعضها رأيت الصواب في خلافه، والله

أعلم .

قال – رحمه الله – : (فصلٌ في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها القصة العظيمة التي قال الله في أولها : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ ، وقال تعالى في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد فمن ذلك :

أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها ، لما فيها من أنواع التنقلات ، من حال إلى حال ، ومن محنة إلى محنة ، ومن منحة إلى منحة ومنة ، ومن ذل إلى عزة ، ومن رِق إلى ملك ، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف ، ومن حزن إلى سرور ، ومن رخاء إلى جدب ، ومن جدب إلى رخاء ، ومن ضيق إلى سعة ، ومن إنكار إلى إقرار ، فتبارك من قصها فأحسنها ووضحها وبينها .

ومنها : أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده ، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة ، فإن رؤيا يوسف عليه السلام التي رأى أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدون ، وجه المناسبة فيها : أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها فكذلك الأنبياء [1] والعلماء زينة للأرض وجمال وبهم يُهتدى بهذه الأنوار ، ولأن الأصل أبوه وأمه ، وإخوته هم الفرع ، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجِرماً ، لما هو

(١) قوله رحمه الله هنا : (وكذلك الأنبياء ....) وكذا قوله بعد عدة فوائد : (ولهذا في أصح الأقوال أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [النساء : ١٦٣] وهم أولاد يعقوب الإثنا عشر وذريتهم) هذا ليس بظاهر إذ قد دل القرآن على عدم نبوتهم بما فعلوا مع أبيهم وأخيهم – وقد سبق – ولم يدل دليل ظاهر على نبوتهم بعد ذلك وليس في الكتاب ولا في السنة ما يدل على أن الأسباط هم أولاد يعقوب الإثنا عشر وذريتهم بل كما سبق نقله عن ابن كثير – رحمه الله – أن الأسباط هم أنبياء بني إسرائيل الذين هم من ذرية أبناء يعقوب الإثنا عشر وكما لم يلزم أن يكون ذرية هؤلاء كلهم أنبياء وهذا بلا خلاف بين أهل العلم فكذلك لا يلزم أن يكونوا هم أنبياء ، ومما يدل على عدم نبوتهم أن الأفعال التي ارتكبوها مما ينفر عنهم حتى لو كان قبل النبوة فتوبتهم تقتضي محو ذنوبهم لا إثبات أهليتهم لمقام النبوة ، وأيضا قد ذكر يعقوب عليه السلام أن الله يتم نعمته على آل يعقوب باجتباء يوسف بالنبوة فهو يشعر بأنه هو المجتبى من أبناء يعقوب بمقام النبوة لا غيره ، والله أعلم .

فرع منه فلذلك كانت الشمس أمه ، والقمر أباه ، والكواكب إخوته [1]، ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث ، فلذلك كانت أمه ، والقمر والكواكب مذكرات فكانت لأبيه وإخوته ، ومن المناسبة أن الساجد معظِّم محترِم للمسجود له ، والمسجود له معظَّم ومحتَرمٌ ، فلذلك دلّ ذلك على أن يوسف عليه السلام يكون معظماً محترماً عند أبويه وإخوته ، ومن لازم ذلك أن يكون مجتبى مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك ، ولذلك قال له أبوه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ ومن المناسبة في رؤيا الفتيين ، أنه أول رؤيا الذي رأى أنه يعصر خمراً ، أن الذي يعصر في العادة يكون خادماً لغيره ، والعصر يُقصد لغيره ، فلذلك أوله بما يؤول إليه ، أنه يسقي ربه ، وذلك متضمن لخروجه من السجن .

وأول الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، بأن جلد رأسه ولحمه وما في ذلك من المخ أنه هو الذي يحمله ، وأنه سيبرز للطيور ، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه ، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه ، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل ، وأول رؤيا الملك للبقرات والسنبلات ، بالسنين المخصبة ، والسنين المجدبة ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها ، وبصلاحه تصلح ، وبفساده تفسد وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية ، واستقامة أمر المعاش أو عدمه .

وأما البقرات فإنها تحرث الأرض عليها ، ويستقى الماء عليها وإذا أخصبت السنة سمنت ، وإذا أجدبت صارت عجافاً ، وكذلك السنابل في الخصب تكثر وتخضر ، وفي

---

(١) والظاهر – والله أعلم – أن الشمس أباه والقمر أمه ، وما ذكره الشيخ من المناسبة بتأنيث الشمس والقمر والكواكب مذكرات فكانوا أباه وإخوته غير ظاهر فالتأنيث هنا مجازي في لغة العرب ، وليست بلغة يوسف وأهله ، ثم إن حاجة الناس إلى نور الشمس وبقاءهم بها أضعاف أضعاف حاجتهم وبقائهم بنور القمر ، فكيف يكون أبوه هو القمر وأمه الشمس ، بل نور القمر تابع لنور الشمس فالخير الذي عند أمه هو من أثر الخير الذي عند أبيه يعقوب عليه السلام، ونور الشمس يحتاجه الناس كل يوم ونور القمر يستغنون عنه أياماً فناسب ذلك المعنى أن نور النبوة يحتاج إليه على الدوام والنور الذي عند أهل الفضل والعلم من أهل بيتهم يستغنى عنه بغيره أحياناً ويقوم مقامه ، فالمعاني المناسبة في أن الشمس أبوه والقمر أمه أكثر بكثير من العكس ، والله أعلم .

الجدب تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض .

ومنها : ما فيها من الدلالة على صحة نبوة محمد ﷺ ؛ حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة ، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحداً يراه قومه بين أظهرهم صباحاً ومساء ، وهو أميّ لا يخط ولا يقرأ وهي موافقة لما في الكتب السابقة ، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .

ومنها : أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر ، وكتمان ما تخشى مضرته ، لقول يعقوب ليوسف – عليهما السلام – : ﴿ **يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا** ﴾ .

ومنها : أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله : ﴿ **فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا** ﴾ .

ومنها : أن نعمة الله على العبد ، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه ، وأنه ربما شملتهم وحصل لهم ما حصل له بسببه كما قال يعقوب عليه السلام في تفسيره لرؤيا يوسف عليه السلام : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ** ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف عليه السلام ، حصل لآل يعقوب عليه السلام من العزِّ والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف عليه السلام .

ومنها : أن العدل مطلوب في كل الأمور ، لا سيما في معاملة السلطان رعيته وما دونه حتى في معاملة الوالد لأولاده ، في المحبة والإيثار وغيره وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر ، وتفسد الأحوال ، ولهذا لما قدّم يعقوبُ يوسفَ – عليهما السلام – في المحبة وآثره على إخوته ، جرى منهم ما جرى على أنفسهم ، وعلى أبيهم وأخيهم[1] .

---

(١) الاستدلال على لزوم العدل بين الأولاد بأن الإخلال به في تقديم يعقوب يوسف في المحبة هو سبب اختلال الأحوال وجرى ما جرى استدلال غير صحيح بالمرة ، فالواجب العدل في العطية أما الحب فهو تابع للصفات والأعمال وحق ليعقوب أن=

ومنها : الحذر من شؤم الذنوب ، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعددة ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم ، فإخوة يوسف عليه السلام لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه ، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل ، وكذبوا عدة مرات ، وزوروا على أبيهم في القميص ، والدم الذي فيه ، وفي إتيانهم عشاءً يبكون ، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة ، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف عليه السلام ، وكلما طال البحث ، حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل ، وهذا شؤم الذنب وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة .

ومنها : أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية ، لا بنقص البداية ، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر ، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم ، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح ، والسماح التام من يوسف عليه السلام ومن أبيهم ، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة ، وإذا سمح العبد عن حقه فالله خير الراحمين .

ولهذا – في أصح الأقوال[1] – أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى : ﴿ **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ** ﴾ [النساء : ١٦٣] وهم أولاد يعقوب عليه السلام الاثنا عشر وذريتهم ، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف عليه السلام أنه رآهم كواكب نيرة ، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة .

ومنها : ما منَّ الله به على يوسف عليه السلام من الحلم ، والعلم ، ومكارم الأخلاق ، والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به ، وتمَّ ذلك بأنه لا

=يقدم يوسف فهل يشك في ذلك من ذاق طعم القصة وعلم صفات يوسف وقد اجتباه ربه واصطفاه فكيف لا يحبه أبوه أكثر ، وأما فساد الأحوال فإنما وقع من الجهل والحرص والحسد الذي كان عليه إخوة يوسف لا في إيثار يعقوب ليوسف وكيف يجوز أن يُنسب إيثار يؤدي إلى فساد واختلال إلى نبي معصوم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – وما عاتبه الله وما ذمه قط على ذلك ولو كان ذنباً لتاب منه وراجع ما ذكرناه عند قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا** ﴾ تجد فيه الكفاية إن شاء الله .

(١) راجع ما ذكرناه من ترجيح عدم نبوتهم ص (٣٧) .

يُثرب عليهم ولا يعيرهم به ثم بره العظيم بأبويه ، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق .

ومنها : أن بعض الشر أهون من بعض ، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمها ، فإن أخوة يوسف عليه السلام لما اتفقوا على قتل يوسف عليه السلام أو إلقائه أرضاً ، وقال قائل منهم : ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير .

ومنها : أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع ، أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء ، أو خدمة أو انتفاع أو استعمال ، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعاً حراماً ، لا يجوز ، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها ، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً ، وسمّاه الله شراء ، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم [1] .

ومنها : الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة ، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها ، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى ، بسبب توحدها [2] بيوسف عليه السلام ، وحبها الشديد له ، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة ، ثم كذبت عليه ، فسجن بسببها مدة طويلة .

ومنها : أن الهم الذي همّ به يوسف عليه السلام بالمرأة ، ثم تركه لله ، مما يقربه إلى الله زلفى ، لأن الهم داعٍ من دواعي النفس الأمارة بالسوء ، وهو طبيعة لأغلب الخلق ، فلما

---

(١) الاستدلال على صحة بيع ما لم يعلم حقيقة مالكه لتداول الأيدي له بالقصة فيه نظر ، فإن بيع يوسف كان حراماً باطلاً قطعاً ، وإنما سماه الله شراء في قوله ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ ﴾ لواقع الحال حتى ولو كان باطلاً ، كما تقول بيع الخمر حرام وباطل فتسميته بيعاً لا يدل على صحته ، ولذا لم يحتج يوسف عند خروجه من السجن إلى عتقه لأنه حر أصلاً ، وجريان الرق عليه كان ظلماً وعدواناً ممن علمه أو تسبب فيه أو رضي به ، فلو أن رجلاً علم أن رقيقه ومملوكه كان قد بيع ظلماً وهو حر لوجب عليه فوراً إطلاقه وعدم استخدامه فليس برقيق عنده ولا عند غيره ، وإن كان لا يلزمه قبول خبر عبده بغير بينة لكنه لو صدقه للزمه إطلاقه ، وما وقع من عزيز مصر وغيره لا دليل فيه إذ هم كفار ، وأقل أحوالهم ظلمة ، ولا إقرار في القرآن على فعلهم ، وإن كان أصل المسألة التي ذكرها الشيخ صحيحاً وهو أن الشيء المتداول بين الأيدي ولم يُعلم أنه كان على غير الشرع أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء .... إلى آخرها ، وإنما الكلام على صحة الاستدلال على ذلك بالقصة ، والله أعلم .

(٢) توحدها يعني : انفرادها وخلوتها به .

قابل بينه وبين محبة الله وخشيته ، غلبت محبة الله وخشيته داعيَ النفس والهوى ، فكان ممن ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠] ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، أحدهم : « وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ » (١) وإنما الهم الذي يُلام عليه العبد ، الهم الذي يساكنه ، ويصير عزماً ، ربما اقترن به الفعل .

ومنها : أن من دخل الإيمان قلبه ، وكان مخلصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع ببرهان إيمانه وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ على قراءة من قرأها بالفتح ، فإنه من إخلاص الله إياه وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه ، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله ، وخلصه من السوء والفحشاء .

ومنها : أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية ، أن يفرَّ منه ويهرب غاية ما يمكنه ، وليتمكن من التخلص من المعصية ، لأن يوسف عليه السلام لما راودته التي هو في بيتها فرَّ هارباً ، يطلب الباب ليتخلص من شرها .

ومنها : أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه ، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار ، فما يصلح للرجل فإنه للرجل ، وما يصلح للمرأة فهو لها ، وإذا لم يكن بينة ، وكذا لو تنازع نجارٌ وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة ، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر من هذا الباب ، فإن شاهد يوسف عليه السلام شهد بالقرينة ، وحكم بها في قدِّ القميص ، واستدل بقدِّه من دبره على صدق يوسف عليه السلام وكذبها (٢) . ومما يدل على هذه

---

(١) صحيح : تقدم تخريجه ص (٦٨) .

(٢) راجع ما ذكرناه من العمل بالقرائن في هذه الآية ، وقد قدمنا أن الراجح أن القرائن تستعمل للوصول إلى الاعتراف ، لا أنها يقضى بها مطلقاً في كل الأحوال بلا بينة ولا اعتراف والتوسع في الحكم بالقرائن المجردة يفتح أبواباً من المفاسد عديدة لذا لا يقول به عامة العلماء .

القاعدة أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة من غير بينة ولا إقرار ، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق ، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة ، فإنه يحكم عليه بالسرقة ، وهذا أبلغ من الشهادة ، وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر ، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملاً ، فإنه يقام بذلك الحد ، ما لم يقع مانع منه ولهذا سمّى الله هذا الحاكم شاهداً فقال تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ .

ومنها : ما عليه يوسف عليه السلام من الجمال الظاهر والباطن ، فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب ، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لُمْنها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن : ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ، وأما جماله الباطن ، فهو العفة العظيمة من المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها ، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته ، ولهذا قالت امرأة العزيز : ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ ، وقالت بعد ذلك : ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ، وقالت النسوة : ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ .

ومنها أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية ، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين – إما فعل المعصية وإما عقوبة دنيوية – أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة ، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار .

ومنها : أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله عز وجل، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية ، ويتبرأ من حوله وقوته لقول يوسف عليه السلام ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

ومنها : أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير ، وينهيانه عن الشر ، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس ، وإن كان معصيةً ضاراً لصاحبه .

ومنها : أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء ، فعليه عبودية في الشدة ، فيوسف

عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله ، فلما دخل السجن ، استمر على ذلك ، ودعا الفتيين إلى التوحيد ، ونهاهما عن الشرك ، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته ، حيث ظنّا فيه الظن الحسن ، وقالا له : ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما ، فرآهما متشوقين لتعبيرهما عنده ، رأى ذلك فرصة فانتهزها ، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ، ليكون أنجح لمقصوده ، وأقرب لحصول مطلوبه ، وبيّن لهما أولاً أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم ، إيمانه وتوحيده وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وهذا دعاء لهما بالحال ، ثم دعاهما بالمقال ، وبيّن فساد الشرك وبرهن عليه ، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه .

ومنها : أنه يبدأ بالأهم فالأهم ، وأنه إذا سئل المفتي ، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد ، فينبغي له أن يُعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله ، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته ، وحسن إرشاده وتعليمه ، فإن يوسف عليه السلام - لما سأله الفتيان عن الرؤيا - قدّم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له .

ومنها : أن من وقع في مكروه وشدةٍ ، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه ، أو الإخبار بحاله ، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق ، فإن هذا من الأمور العادية فقد جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض ، ولهذا قال يوسف عليه السلام للذي ظن أنه ناجٍ من الفتيين : ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

ومنها : أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه ، وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع ، وأن لا يمتنع من التعليم ، أو لا ينصح فيه ، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم ، فإن يوسف عليه السلام قد قال ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه فلم يذكره ونسي ، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف عليه السلام، أرسلوا ذلك الفتى وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا فلم يعنفه يوسف عليه السلام، ولا وبخه ، لتركه ذكره ، بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه .

ومنها : أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله ، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه ، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده ، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك ، بل دلّهم – مع ذلك – على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع ، وكثرة جبايته .

ومنها : أنه لا يُلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه ، وطلب البراءة لها ، بل يحمد على ذلك ، كما امتنع يوسف عليه السلام عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن .

ومنها : فضيلة العلم ، علم الأحكام والشرع ، وعلم تعبير الرؤيا ، وعلم التدبير والتربية ؛ وأنه أفضل من الصورة ولو بلغت في الحسن جمال يوسف عليه السلام ، فإن يوسف عليه السلام – بسبب جماله – حصلت له تلك المحنة والسجن ، وبسبب علمه حصل له العزة والرفعة والتمكين في الأرض ، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته .

ومنها : أن علم التعبير من العلوم الشرعية ، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه ، وأن تعبير المَرَائي داخل في الفتوى لقوله للفتيين : ﴿ **قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** ﴾ ، وقال الملك : ﴿ **أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ** ﴾ ، وقال الفتى ليوسف عليه السلام : ﴿ **أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ**.... ﴾ الآيات ، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم .

ومنها : أنه لا بأس أن يخبر الإنسان بما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل ، إذا كان في ذلك مصلحة ، ولم يقصد به العبد الرياء ، وسلم من الكذب ، لقول يوسف عليه السلام : ﴿ **ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ ، وكذلك لا تذم الولاية ، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده ، وأنه لا بأس بطلبها ، إذا كان أعظم كفاءةً من غيره ، وإنما الذي يُذم إذا لم يكن فيه كفاية ، أو كان موجوداً غيره مثله ، أو أعلى منه ، أو لم يُرِدْ بها إقامة أمر الله ؛ فبهذه الأمور ينهى عن طلبها والتعرض لها .

ومنها : أن الله واسع الجود والكرم ، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة ، وأن خير الآخرة له سببان : الإيمان والتقوى ، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها ، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه ، ويشوقها لثواب الله ، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها ، وهي غير قادرة عليها ، بل يسلبها بثواب الله الأخروي ، وفضله العظيم لقوله تعالى : ﴿ **وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ** ﴾ .

ومنها : أن جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسعة على الناس - من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها ، لأن يوسف عليه السلام أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات ، للاستعداد للسنين المجدبة ، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله ، بل يتوكل العبد على الله ، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه .

ومنها : حسن تدبير يوسف عليه السلام لما تولى خزائن الأرض ، حتى كثرت عندهم الغلات جداً ، حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها ، لعلمهم بوفورها فيها ، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل ، ولا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله .

ومنها : مشروعية الضيافة ، وأنها من سنن المرسلين ، وإكرام الضيف لقول يوسف عليه السلام لإخوته : ﴿ **أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ** ﴾ .

ومنها : أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم ، فإن يعقوب عليه السلام قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف عليه السلام معهم حتى عالجوه أشد المعالجة ، ثم قال لهم بعد ما أتوه وزعموا أن الذئب أكله : ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا** ﴾ ، وقال لهم في الأمر الآخر : ﴿ **هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ** ﴾ ، ثم لما احتبسه يوسف عليه السلام عنده وجاء إخوته لأبيهم قال لهم : ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا** ﴾ ، فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج .

ومنها : أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع بل جائز ، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر ، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر ، لأمر يعقوب عليه السلام حيث قال لبنيه : ﴿ **لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ** ﴾ .

ومنها : جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق ، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد ، وإنما الممنوع التحيل على إسقاط واجب أو فعل محرم .

ومنها : أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره ، بأمر لا يحب أن يطلع عليه أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة له من الكذب ، كما فعل يوسف عليه السلام حيث ألقى الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها منه ، موهماً أنه سارق ، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته ، وقال بعد ذلك : ﴿ **مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ** ﴾ ولم يقل (من سرق متاعنا) ، بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره ، وليس في ذلك محذور ، وإنما فيه إيهامٌ أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر وأنه يبقى عند أخيه ، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبينت الحال .

ومنها : أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه ، إما بمشاهدةٍ أو خبر من يثق به وتطمئن إليه النفس لقولهم : ﴿ **وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا** ﴾ .

ومنها : هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام ، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف عليه السلام ، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة ، ويحزنه ذلك أشد الحزن ، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة لا تقصر عن خمس عشرة سنة ، ويعقوب عليه السلام لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿ **وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾ ، ثم ازداد الأمر شدة حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف عليه السلام ، هذا وهو صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله ، قد وعد من نفسه الصبر الجميل ، ولا

شك أنه وفّى بما وعد به ، ولا ينافي ذلك قوله : ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر ، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين .

ومنها : أن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً ، فإنه لما طال الحزن على يعقوب عليه السلام واشتد به إلى أنهى ما يكون ، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب عليه السلام ومسهم الضر ، أذن الله حينئذ بالفرج ، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراراً ، فتم بذلك الأجر وحصل السرور ، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء ، والعسر واليسر ، ليمتحن صبرهم وشكرهم ، ويزداد – بذلك – إيمانهم ويقينهم وعرفانهم .

ومنها : جواز إخبار الإنسان بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر أو نحوهما ، على غير وجه التسخط ، لأن إخوة يوسف عليه السلام قالوا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ ، ولم ينكر عليهم يوسف عليه السلام.

ومنها : فضيلة التقوى والصبر ، وأن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار التقوى والصبر ، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب ، لقوله تعالى : ﴿ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ .

ومنها : أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال ، أن يعترف بنعمة الله عليه ، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى ليُحدث لذلك شكراً كلما ذكرها ، لقول يوسف عليه السلام: ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ .

ومنها : لطف الله العظيم بيوسف عليه السلام حيث نقله في تلك الأحوال ، وأوصل إليه الشدائد والمحن ، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات .

ومنها : أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه ، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك ، ويسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة لقول يوسف عليه السلام : ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي

ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة ، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك . فنسأله تعالى علماً نافعاً ، وعملاً متقبلاً ، إنه جواد كريم)[1] .



(١) عن كتاب (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله تعالى - صـ (٤٠٧ - ٤١٢) .

الخاتمة

وبعد ...

فبفضل الله ورحمته ، تمَّ ما أردت جمعه من المعاني والفوائد من هذه القصة العظيمة والسورة الكريمة ، والتي هزت وجداني ، وتهز وجدان كل مسلم ومسلمة ، وما أراني إلا نقبت قشرة صغيرة عن لبٍ عميق ، كلما تدبر القارئ وتفهم السامع متضرعاً لمولاه ، سائلاً منه النعمة والفضل .... وجد المزيد ، وذاق حلاوة القرآن وازداد يقيناً أنه كتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي .

اللهم علمني منه ما جهلت ، وذكرني منه ما نُسّيت ، وارزقني تلاوته آناء الليل وآناء النهار ، على الوجه الذي يرضيك عني .

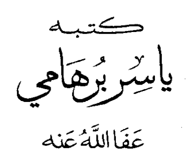
اللهم ما كان من حق وصواب فيما كتبت فأنت المنان به ، ومنك الفضل والرحمة ، فتقبله مني واجعله خالصاً لوجهك ، ونوراً في حياتي وفي قبري ويوم القيامة ، ونوراً لأهلي وبنيَّ وإخواني وأحبابي والمسلمين .

اللهم ما كان من خطأ وزلل في ما كتبت فمني ومن الشيطان ، وأنت الغفور

الرحيم ، أرحم الراحمين ، خير الغافرين ، الودود الكريم ، غافر الذنب وقابل التوب ، الستير ، فأسألك بعفوك ورحمتك ، وفضلك وعزتك ، وحكمتك وقدرتك ، أن تغفر لي مغفرة من عندك وأن ترحمني من لدنك رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك .

اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، أنت المنان ، بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، أن ترزقني مرافقة نبيك وخليلك الذي اصطفيته واجتبيته ، وفضلته على جميع خلقك ، واخترته لتُنزِلَ على قلبه كتابك الكريم ، عبدك ورسولك محمد ﷺ ، وأن ترزقني مرافقة جميع أنبيائك ورسلك ، وخاصة إبراهيم وموسى وعيسى ونوحًا وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف - عليهم الصلاة والسلام - ، ومرافقة الصديقين والشهداء والصالحين ، في الفردوس الأعلى بغير حساب ولا عذاب ، أسألك ذلك لنفسي ووالديَّ وأهلي وذريتي وإخواني وأخواتي وأحبابي ، في من اجتبيتَ من عبادك الصالحين .

اللهم اجز من أعان على كتابتها ونشرها خير الجزاء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الفهرس

